لجنة التأليف والترجمة والنشر

كتاب الإمتاع والمؤانسة

تأليف

أبي حيان التوحيدي

وهو مجموع مسامرات في فنون شتى

[illegible] في عدة ليال

الجزء الثاني

صححه وضبطه وشرح غريبه

أحمد أمين و أحمد الزين

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٩٤٢

تنبيهات

(١) يلاحظ أن حجم هذا الجزء يخالف بعض المخالفة حجم الجزء الأول ، وقد اضطرتنا إلى ذلك ندرة الورق ففضلنا خروج الكتاب مع هذا الاختلاف على إرجائه إلى أن يتفق الجزآن فى الحجم .

(٢) لم ننشر فهارس الموضوعات فى هـذا الجزء وسابقه اعتماداً على أننا سننشر فهرسا عاما للموضوعات كلها فى آخر الكتاب .

(٣) كان اعتمادنا فى الطبع على النسخة الكاملة الوحيدة المشار إليها فى الحواشى بحرف ا وهناك قطع قليلة غير مرتبة الصفحات ولا كاملة الأجزاء ، تبلغ خمس الكتاب تقريباً ، ومن ثم جعلناها نسخة إضافية ، وقد نجد فيها بعض الزيادات فنضعه بين مربعين من غير تنبيه عليه . فليلاحظ ذلك .

أحمد أمين

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) أيها الشَّيخُ — أطالَ اللهُ يَدَكَ فى الخيرات ، وزادَ فى هِمَّتِك رَغْبةً فى اصطناع المَكرُمات ، وأجراكَ على أَحْسن العادات فى تقديم طُلّاب العِلْم وأَهْلِ البُيوتات — قد فرغْتُ فى الجزء الأول على مَا رَسَمْتَ فى القيام به ، وشَرَّفْتَنى بالخَوْض فيه ، وسرَدْتُ فى حواشيه أعيانَ الأحاديث التى خَدَمْتُ بها مجلسَ الوزير . ولم آلُ جُهْداً فى رِوانها وتقويمها[١] ولَم[٢] أحْتَجْ إلى تَعْمِيةِ شىء منها ، بل زَخْرَفْتُ كثيرا منها بناصِعِ اللفظ ، مع شَرْحِ الغامِض وصِلَةِ المَحْذوف وإتمام المنقوص . وحَمَلْتُه إليكَ على يد (فائقٍ) الغلام ، وأنا حريصٌ على أَنْ أُتْبِعه بالجزء الثانى ، وهو يَصِل إليكَ فى الأُسبوع إن شاء الله تعالى .

(٢) وأنا أسألك ثانيةً على طريق التوكيد ، كما سألتك أوّلا على طريق الاقتراح ، أن تكون هذه الرسالة مصُونةً عن عيونِ الحاسدِين العَيّابين ، بعيدةً عن تناوُلِ أيْدى المُفسِدين المنافسين : فليس كلُّ قائل يَسْلَم ، ولا كلُّ سامعٍ يُنْصِف ، ولا كلُّ متوسِّطٍ يُفْلح ، ولا كلُّ قادمٍ يُفسحُ له فى المجلس عند القدوم .

والبَليّة مضاعَفة من جهة الشُّطَراء فى الصناعة ، وللحسد نَوَرانٌ فى نفوسِ هذه الجماعة ؛ وقلَّ من يجْهد جُهْده فى التقرب إلى رئيسٍ أو وزير ، إلا جَدَّ فى إبعاده من مَرامه كلُّ صغير وكبير ؛ وهــذا لأنّ الزمانَ قد استحال عن المعهود ،

---

(١) هذه الكلمة مطموسة فى (ا) .

(٢) فى (ا) ولو لم أحتج ، وقوله : « لو » زيادة من الناسخ .

وجها عن القيام بوظائف الديانات وعادات أهْلِ المروءات؛ لأمورٍ شَرْحُها بَطُول؛ وقد كان الناس ينقلّبون فى بسيط[١] الشمس؛ (أعْنى الدِّين) فغَرُبَتْ عَنْهم، فعاشوا بنور القمر، (أعْنى المروءَة) فأفل دُونَهم، فبَقوا فى ظُلُمات البرِّ والبحرِ، (أعْنى الجهل وقلّة الحياء) فلا جَرَمَ أعْضَل الدّاء، وأشْكَلَ الدّواء، وغَلَبت الحَيْرة، وفُقِدَ المُرْشِد، وقَلَّ المُسترْشِد؛ والله المُستَعان.

وأرْجع إلى ما هو الغرضُ مِنْ نسخ ما تَقَدَّم فى الجزء الأوّل.

الليلة السابعة عشرة

(١) فلما عُدْتُ إلى المجلس قال: ما تَحْفظ فى تَفعال وتِفعال، فقد اشْتبَها؟ وفرعتُ إلى ابن عُبَيْد الكاتب فلم يكن عنده مَقْنَع، وألقيْتُ على مِسْكَويْه فلم يكن له فيها مَطْلَع؛ وهذا دليلٌ على دُثُور الأدب وبَوار العِلْم والإعراضِ عن الكدْح فى طلبه. فقلتُ:

قال شيخنا أبو سعيد السِّيرافىُّ الإمامُ — نَضَّرَ اللهُ وَجهَه —: المصادرُ كلُّها على تَفْعالٍ بفتح التاء، وإنما تجىء تِفعالٌ فى الأسماء، وليس بالكثير. قال: وذكر بعضُ أهل اللّغَة منها ستة عشر اسمًا لا يوجد غيرُها. قال: هاتِها.

قلتُ: منها التِّنْبال والتِّلقاء، ومرَّ تِهواءٌ من اللّيل؛ وتِبْراك[٢]، وتِعْشار[٣] وتِرْباع، وهى مواضع؛ وتِمساح للدّابة المعروفة؛ والتِّمساح الرَّجُلُ الكذّابُ أيضاً.

---

(١) كذا ورد هذا اللفظ فى كلا الأصلين ولعل المراد ببسيط الشمس ضوءها المنبسط.

(٢) فى كلتا النسختين «وتبرال»؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا نقلا عن ياقوت. وتبراك: ماء لبنى العنبر وقيل موضع بحذاء تعشار.

(٣) فى كلتا النسختين «وتعشاء»؛ وهو تحريف؛ والتصويب عن ياقوت. وتعشار موضع بالدهناء.

وتِجفاف وتِمثال وتِمْراد[1] بيت الحَمَام ، وتِلْفاق ، وهو ثوبان يُلفقان . وتِلْقام : سريعُ اللَّقْم .

ويقال : أتت الناقةُ على تِضْرابها ، أى على الوقت الذى ضَرَبَها الفحْلُ فيه ، وتِضْراب كثيرُ الضَّرْب [وتِقْصار][2] ، وهى المِخْنقة ؛ وتِنْبال ، وهو القصير .

قال : هذا حَسَنٌ ، فما تقولُ فى تَذْكار ؟ فإنّ الخوض فى هذا المثالِ إنما كان من أجْلِ هذا الحرْف ، فإنّ أصحابنا كانوا فى مجلس الشّراب ، فاحتَكَموا فيه ؟

فقلتُ : هذا مصْدَر ، وهو مفتوح .

ثم قال : اجْمَعْ لى حُروفاً نظائرَ لهذا من اللغة ، واشْرَحْ[3] ما نَدَر منها ، وعَرَضَ الشّكُّ لكثير من الناس فيها .

فقلتُ : السمعَ والطاعة مع الشَّرَفِ بالخِدْمة .

(٢) وقال أيضاً : حدِّثنى عن شىء هو أهمُّ من هذا لى وأخطَرُ على بالى ، إنى لا أزال أسمع من زيد بن رِفاعة قولاً ومذهباً لا عهد لى [به][4] وكِنايةً عما لا أُحُقّه ، وإشارةً إلى ما لا يتوضّح شىءٌ منه ، يذكُرُ الحروف ويَذْكُرُ النُّقَط ، ويزْعُم أن الباء لم تُنْقَطْ من تحت واحدةً إلا بسبب ، والتاءَ لم تُنْقَطْ من فوقُ اثنتين إلّا لعلّة ، والألفَ لم تُعَرَّ إلا لغَرَض . وأشباه هذا ؛ وأشهَدُ[5] منه فى عَرْض ذلك دَعْوَى يتعاظم بها ويتنفَّجُ[6] بذِكْرِها ؛ فما حديثُه ؟ وما شأنُه ؟

---

(١) فى كتب اللغة أن التمراد هو بيت صغير فى بيت الحمام لمبيضه .

(٢) لم ترد هذه الكلمة فى كلتا النسختين ، وقد أثبتناها عن كتب اللغة .

(٣) فى « ب » : « وبوخ » .

(٤) لم ترد هذه الكلمة فى (ا) .

(٥) « وأشهر » فى كلتا النسختين .

(٦) يتنفج : يفتخر بما ليس فيه . وفى كلتا النسختين « يتفخ » .

وما دُخْلَلُهُ ؟ وما خَبَرُه ؟ فقد بلغني أنك تغشاه وتجلس إليه ، وتُكْثِرُ عنده ، وتُوَرِّق له ، ولك معه نوادرُ مضحِكة ، وبَوادِرُ معجِبة . ومن طالت عِشْرَتُه لإنسانٍ صَدَقَتْ خِبْرَتُه به ، وانكشف أمرُه له ، وأمكن اطّلاعُه على مستكِنِّ رأيه وخافي مَذْهَبه وعويصِ طريقته .

فقلتُ : أيها الوزير ، هو الذي تعرفه قبلى قديمًا وحديثًا بالتربية والاختبار والاستخدام ، وله منك الأُخوّة[1] القديمة والنسبة المعروفة .

قال : دَعْ هذا وصِفْه لى . قلتُ : هناك ذكاءٌ غالبٌ ، وذِهْنٌ وقّادٌ ، ويقظةٌ حاضرة ، وسوانحُ متناصرة[2] ، ومتّسعٌ فى فنونِ النَّظمِ والنثرِ ، مع الكتابة البارعة فى الحساب والبلاغة ، وحفظ أيام الناس ، وسماعٍ للمقالات ، وتبصّرٍ فى الآراء والدّيانات ، وتصرّفٍ فى كلّ فنّ : إمّا بالشَّدْوِ[3] الموهِم ، وإمّا بالتبحّر المفهِم ، وإما بالتناهى المُفْحِم . فقال : فعلى هذا ما مذهبه ؟ قلتُ : لا ينسب إلى شيء ، ولا يُعْرَف برَهْط ، لجَيَشانه بكلّ شيء ، وغَلَيانِه[4] فى كلّ باب . ولاختلاف ما يبدو من بسطة بيانه ، وسطوته بلسانه[5] . وقد أقام بالبصرة زمانًا طويلاً ، وصادفَ بها جماعة جامعة لأصناف العلم وأنواع الصناعة : منهم أبو سليمان محمدُ بن معشر البستيّ[6] ، ويُعْرَف بالمَقْدِسيّ . وأبو الحسن على بن

(١) فى « ب » الآصرة . والآصرة ما عطفك على إنسان من ود أو رحم أو نحوهما .

(٢) متناصرة ، أى ينصر بعضها بعضا .

(٣) بالشدو ، أى أخذ العلم وتلقيه .

(٤) فى كلتا النسختين « وعليانه » .

(٥) فى (أ) « سلطانه » .

(٦) فى كلتا النسختين « ابن مسعر البستى » ، وهو تحريف والبيستىّ نسبة إلى بيستق من قرى الرىّ .

هارون الزَّنْجانىّ[1]، وأبو أحمد المهرَجانىّ[2] والعوْفىّ وغيرِهم ، فصحِبَهم وخَدَمَهم ؛ وكانت هذه العصابة قد تآلفَتْ[3] بالعِشْرة ، وتَصافتْ بالصّداقة ، واُجتمعتْ على القُدْس والطَّهارة والنصيحة ، فوَضعوا بينهم مذهباً زعموا أنّهم قرّبوا به [الطريقَ] إلى الفَوْز برضوان الله والمصير[4] إلى جنَّتِه ، وذلك أنهم قالوا : الشريعة قد دُنِّستْ بالجَهالات ، واُختَلَطَتْ بالضّلالات ؛ ولا سبيلَ إلى غَسْلِها وتطهيرها إلا بالفلسفة ، [وذلك] لأنّها حاويةٌ للحِكمة الاُعتقاديّة ، والمصلحة الاجتهاديّة .

وزعموا أنه متى اُنتظَمت الفلسفةُ اليونانية والشريعةُ العربية فقد حصل الكمال ؛ وصنّفوا خمسين رسالةً فى جميع أجزاء الفلسفة : عِلْميِّها وعَمَليِّها ، وأفرَدوا لها فِهْرِسْتاً وسمَّوها رسائلَ إخوان الصَّفاء وخلاّن الوفاء ، وكتموا أسماءهم ، وَبثُّوها فى الوَرّاقِين ، ولقّنوها للناس ، واُدَّعَوا أنّهمْ ما فعلوا ذلك إلا اُبتغاءَ وجهِ الله عزّ وجلّ وطلبَ رضوانِه ليخلّصوا الناسَ من الآراء الفاسدة التى تضرّ النفوس ، والعَقائدِ الخبيثةِ التى تضرّ أصحابَها ، والأفعال المذمومةِ الّتى يَشقَى بها أهلُها ؛ وحَشَوْا هذه الرسائلَ بالكَلِمِ الدِّينيّة والأمثالِ الشرعيّة والحروفِ[5] المُحْتَمَلَة والطُّرُق المُوهِمة .

فقال : هل رأيتَ هذه الرسائل ؟ قلتُ : قد رأيتُ جملةً منها ، وهى مبْثوثةٌ من كلّ فنٍّ نُتَفاً بلا إشْباعٍ ولا كِفاية ، وفيها خُرافات وكِنايات وتلفيقات

---

(١) فى (ا) الرنجانى .

(٢) المهرجانى : نسبة إلى مهرجان من قرى أسفرايين أو مهرجان قدق ، وهو كورة ، وفى كلتا النسختين « المهرجونى » .

(٣) فى (ا) : « بالعت » .

(٤) كذا فى « ب » ، والذى فى (ا) « والفوز » مكان قوله : « والمصير » وهو خطأ من الناسخ .

(٥) الحروف : الكلمات .

وتلزيقات ؛ وقد غَرِقَ الصَّوابُ فيها لغلبة الخطأ عليها ؛

(٣) وحملتُ عِدّةً منها إلى شيخنا أبى سليمان المنطقىّ السِّجستانىّ (محمد بن بهْرَام)[1] وعرضْتُها عليه ونظر فيها أياما واختبرها طويلا ؛ ثم ردَّها علىّ وقال : تَعِبوا وما أغْنَوا ، ونَصِبوا وما أَجْدَوا ، وحامُوا وما وَرَدوا ، وغَنَّوا وما أَطرَبوا ، ونَسَجوا فهَلْهَلُوا ، ومَشَطوا ففَلْفَلوا[2] ؛ ظَنّوا ما لا يكون ولا يُمكِن ولا يُستطاع ؛ ظنُّوا أنهمْ يمكنهم أن يدسُّوا الفلسفةَ — التى هى علْمُ النُّجومِ والأَفْلاك والمِجَسْطِى والمَقَادِيرِ وآثارِ الطَّبيعة ، والموسيقِى التى هى مَعْرفة النَّغَم والإيقاعاتِ والنَّقَراتِ والأَوْزَان ، والمنطق الّذى هو اعتبارُ الأَقْوال بالإضافات والكَمِّيّات والكيفيّات — فى الشريعة ، وأن يَضُمّوا[3] الشريعةَ للفلسفة .

وهذا مرامٌ دونه حَدَد[4] ؛ وقد توفَّرَ على هذا قَبْلَ هؤلاء قوم كانوا أحدَّ أنْياباً ، وأحضرَ أسباباً ، وأعظمَ أقداراً ، وأرفعَ أخْطاراً ، وأوْسَعَ قُوًى ، وأوْثَقَ عُرًى ، فلَمْ يَتِمَّ لهمْ ما أرادُوه ، ولا بلَغوا منه ما أمَّلُوه : وحَصَلوا على لُوثاتٍ قبيحة ، ولَطَخاتٍ فاضحة ، وألقابٍ مُوحِشة ، وعَواقبَ مُخْزِية ، وأوْزارٍ مُثْقِلة .

فقال له البُخارىّ أبو العبّاس : ولِمَ ذلك أيها الشيخ ؟

قال : إنّ الشريعةَ مأخوذةٌ عن الله — عزّ وجلّ — بوَساطة السَّفير بينه وبين الخَلْق من طريقِ الوَحْى ، وبابِ المناجاة ، وشهادةِ الآيات ، وظهورِ المعجزات ، على ما يوجِبُه العقل تارةً ، ويُجوِّزُه تارةً ، لمصالحَ عامّةٍ مُتقَنة ، ومراشدَ تامّةٍ

---

(١) فى كلتا النسختين : « ابن إبراهيم » .

(٢) فى (أ) : « تعلقوا » وفى (ب) : « فعلقوا » ؛ وهو تصحيف . وفلفلوا ، أى جعلوا الشعر شديد الجعودة . يقال : شعر مفلفل ، إذا كان كذلك .

(٣) فى (ب) : « يطبقوا » .

(٤) دونه حدد ، أى دفع ومنع .

مُبيَّنة ؛ وفى أثنائها ما لا سبيلَ إلى البحثِ عَنْه ، والغَوْصِ فيه ؛ ولا بدَّ من التّسليم للداعى إليه ، والمنبِّهِ عليه ؛ وهناكَ يَسقُطُ (لِمَ) ويَبْطُلُ (كَيْفَ) ، ويَزُول (هَلَّا) ويذهبُ (لوْ) و(لَيْتَ) فى الرِّيح ، لأنَّ هذه الموادَّ عنها مَحْسُومة ، وأعتراضات المعترِضين عليها مردودةٌ ، وأرتيابَ المُرتابين فيها ضارٌ ، وسكونَ الساكنين إليها نافع ؛ وجُمْلَتُها مُشتمِلةٌ على الخير ، وتَفصيلُها موصولٌ بها على حُسن التّقبُّل ، وهى متداوَلة بين متعلِّق بظاهرٍ مكشوف ، ومُحْتَجٍ بتأويلٍ معروفٍ ؛ وناصرٍ باللغة الشائعة ، وحامٍ بالجدَل المُبين ، وذابٍّ بالعمل الصالح ، وضاربٍ للمثل السائر ، وراجعٍ إلى البرهان الواضح ، ومتفقِّهٍ فى الحلال والحرام ، ومُستنِدٍ إلى الأثر والخبَرِ المشهورَيْن بين أهلِ المِلّة ، وراجع إلى اتفاقِ الأمّة .

وأساسُها على الوَرَع والتّقوى ، ومُنتهاها إلى العبادةِ وطلَبِ الزُّلْفَى .

ليس فيها حديثُ المُنجِّم فى تأثيراتِ الكواكِب وحركاتِ الأفلاكِ ومقادير الأجرام ومطالِع الطَّوالع ومغارب الغوارب .

ولاحديثُ تشاؤُمِها وتيامُنِها ، وهُبوطِها وصُعودها ، ونَحْسِها وسَعْدها ، وظُهورِها واستِتْارِها ، ورُجوعِها واستقامتِها ، وتربيعِها وتثليثِها ، وتسديسِها ومُقارنتِها .

ولا حديثُ صاحبِ الطبيعة الناظرِ فى آثارِها ، وأشكال الأُسْطُقُسَّات ، بثبوتِها وافتراقها ، وتصرفها فى الأقاليم والمعادنِ والأبدان ، وما يتعلق بالحرارة والبرودة والرطوبة واليُبوسة ؛ وما الفاعل وما المُنفعل منها ؛ وكيف تمازُجُها وتَزاوُجُها ، وكيف تَنافرُها وتَسايُرُها ؛ وإلى أين تَسْرِى قُواها ، وعلى أى شىء يَقف مُنتهاها .

ولا فيها حديثُ المهندسِ الباحثِ عن مقادير الأشياء ونُقَطِها وخطوطِها وسُطوحِها وأجسامِها وأضلاعِها وزواياها ومقاطِعها ، وما الكُرة ؟ وما الدائرة ؟ وما المُستقيم ؟ وما المُنحنى ؟

ولا فيها حديثُ المنطقيِّ الباحثِ عن مراتب الأقوال ، ومَناسِب الأسماء والحروف والأفعال ؛ وكيف ارتباطُ بعضها ببعض على موضوع رجل من يونان حتى يَصحّ بزعمه الصدق ، ويُنبَذَ الكَذِب .

وصاحبُ المنطق يرى أنّ الطبيبَ والمنجِّم والمهندِسَ وكل من فاهَ بلفظٍ وأَمَّ غرضاً فقراء إليه ، محتاجون إلى ما فى يديه .

قال : فعَلَى هذا كيف يَسُوغ لإخوان الصّفاء أن ينصبوا من تِلقاء أنفسهم دعوةً تَجمع حقائقَ الفلسفة فى طريق الشريعة ؟

على أن وراء هذه الطوائف جماعة أيضاً لهم مآخذُ من هذه الأغراض ، كصاحب العزيمة وصاحب الطِلَّسْم وعابرِ الرؤيا ومدَّعِي السِّحْر وصاحبِ الكيمياء ومستعمِلِ الوَهْم .

قال : ولو كانت هذه جائزةً وممكنةً لكان الله تعالى نبَّه عليها ، وكان صاحبُ الشريعة يُقوِّم شريعتَه بها ، ويكمِّلها باستعمالها ، ويتلافى نقصَها بهذه الزيادة التى يجدها فى غيرِها ، أو يحضّ المتفلسفين على إيضاحها [بها] ويتقدم إليهم بإتمامها ، ويَفرِض عليهم القيامَ بكل ما يُذَبّ به عنها حسبَ طاقتهم فيها ، ولم يفعل ذلك بنفسه ، ولا وَكَله إلى غيره من خلفائه والقائمين بدينه ؛ بل نهى عن الخوْض فى هذه الأشياء ، وكرَّه إلى الناس ذِكرَها ، وتوعَّدَهم عليها ، وقال : من أتى عرّافاً أوطارقاً [1] أو حازياً [2] أو كاهناً أو منجِّماً يطلب غيب الله منه فقد حارب الله ، ومن حارب الله حُرِب ، ومن غالَبه غُلِب ، حتى قال :

« لو أنّ الله حَبَسَ عن الناس القَطْرَ سبعَ سنينَ ثم أرسله لأصبحتْ طائفةٌ به كافرين » .

(١) الطارق : الذى يطرق الحصى مستخبرا إياه عن الغيب .

(٢) الحازى : الذى ينظر فى الأعضاء وفى خيلان الوجه يتكهن . ومنه قولهم : على الخازى وقعت ، أى على الخبير ؛ والحازى أيضاً : الذى يزجر الطير .

ويقولون : مُطرنا بنوء المِجْدَح ، فهذا كما ترى ، والمِجْدَحُ : الدَّبَران .

ثم قال : ولقد اختلفت الأمّةُ ضروباً من الاختلاف فى الأصول والفروع ، وتنازَعوا فيها فنوناً من التنازع فى الواضح والمُشكل من الأحكام ، والحلالِ والحرام ، والتفسير والتأويل ، والعِيان والخبر ، والعادةِ والاصطلاح ؛ فما فزعوا فى شىء من ذلك إلى منجّمٍ ولا طبيب ولا منطقىٍّ ولا مُهَنْدِسٍ ولا مُوسيقىّ ولا صاحب عزيمةٍ وشَعْبَذة وسِحْرٍ وكِيمِياء ، لأن الله تعالى تمّم الدين بنبيه صلّى الله عليه وسلم ، ولم يُحْوِجْه بعد البيان الوارد بالوَحْى إلى بيانٍ موضوعٍ بالرأى .

قال : وكما لم نجد فى هذه الأمَّة من فَزِعَ إلى أصحاب الفلسفة فى شىء من دِينها ، فكذلك أمّة عيسى عليه السلام وهى النصارى ، وكذلك المجوس .

قال : ومما يَزِيدك وُضوحاً ويُرِيك عجباً أنّ الأمّة اختلفتْ فى آرائها ومذاهِبها ومقالاتها فصارت أصْنافاً فيها وفِرَقاً ؛ كالمُرْجِئة والمعتزلة والشِّيعة والسُّنِّيّة والخوارِج ، فما فزعتْ طائفةٌ من هذه الطوائف إلى الفلاسفة ، ولا حَقَّقتْ مَقالتها بشواهدهم وشهادتهم ، ولا اشتغلَتْ بطريقتهم ، ولا وَجَدَتْ عندهم ما لم يكن عندها بكتاب ربِّها وأثر نبيِّها .

وهكذا الفقهاء الذين اختلفوا فى الأحكام من الحلال والحرامِ منذ أيَّامِ الصَّدْر الأوّل إلى يوْمِنا هذا لم نَجِدْهم تَظاهروا بالفَلاسفة فاستنْصَروهم ، ولا قالوا لهم : أعينونا بما عندكم ؛ واشهدوا لنا أو علينا بما قِبَلَكُمْ .

قال : فأين الدِّينُ من الفلسفة ؟ وأين الشىء المأخوذُ بالوَحْيِ النَّازل ، من الشىء المأخوذِ بالرّأى الزائل ؟

فإذ أَدَلُّوا بالعقل فالعقل مَوْهِبَةٌ من الله جلّ وعزّ لكلّ عبد ، ولكن بقدْرِ

ما يُدْركَ به ما يَعلوه ، كما لا يَخْفى به عليه ما يَتْلوه ، وليس كذلك الوحى ، فإنه على نوره المنتشِر ، و بيانِه الميسَّر .

قال : و بالجملة ، النّبيُّ فَوْقَ الفَيْلَسُوف ، والفَيْلَسُوفُ دون النبيّ ؛ وعلى الفَيْلسوف أن يتّبع النبيّ ، وليس على النبيّ أن يَتّبع الفيْلَسُوف ، لأنّ النبيّ مبعوث ، والفيلسوفَ مبعوثٌ إليه .

قال : ولو كان العقلُ يُكتَفى به لم يكن للوحْى فائدةٌ ولا غَناء ، على أن منازِل الناسِ متفاوتةٌ فى العقل ، وأنْصِباؤهم مختلفةٌ فيه ؛ فلو كنّا نَسْتَغْنى عن الوحى بالعَقْل كيف كنّا نَصْنَع ، وليس العَقْل بأسْرِه لواحدٍ منّا ، و إنما هو لجميع الناس ، فإن قال قائل بالعبث والجهل : كلُّ عاقل مَوْكُولٌ إلى قَدْرِ عَقلِه ، وليس عليه أن يَسْتَفيد الزيادة مِنْ غيْرِه ، لأنّه مَكْفِيٌّ به ، وغيرُ مُطالَبٍ بما زاد عليه .

قيل له : كفاكَ تمادِيا فى هذا الرأى أنه ليس لك فيه موافِق ، ولا عليه مُطابِق ؛ ولو استقلّ إنسانٌ واحدٌ بعقله فى جميع حالاته فى دينه ودنياه لاستقلّ أيضاً بقوته فى جميع حاجاته فى دينه ودنياه ، ولَكان وَحْدَه يفى بجميع الصِّناعات والمعارف ، وكان لا يحتاج إلى أحدٍ من نوعه وجِنْسه ؛ وهذا قَوْلٌ مَرْذول ورأىٌ مَخْذول .

قال البخارىّ : وقد اختلفَتْ أيضاً دَرجاتُ النبوة بالوَحْى ، و إذا ساغ هذا الاختلاف فى الوَحْى ولم يكن ذلك ثالماً له ، ساغ أيضاً فى العَقل ولم يكن مؤثِّراً فيه .

فقال : يا هٰذا ، اختلافُ درجاتِ أصحاب الوَحْى لم يُخْرِجْهُمْ عن الثِّقة والطّمأنينة بمن اصطفاهم بالوَحْى ، وخصَّهُمْ بالمناجاة ، واجتباهم للرسالة ، وأكملَهم بما ألْبَسَهُمْ من شِعار النبوة ؛ وهذه الثِّقةُ والطّمأنينة مفقُودتان فى الناظرين بالعقول المختلفة ،

لأنهم على بُعْدٍ من الثِّقة والطُّمأْنينة إلاّ فى الشىء القليل والنَّزْرِ اليَسير؛ وعَوارُ هٰذا الكلامِ ظاهِر، وخَطَلُ هٰذا المتكلِّم بَيِّن.

قال الوزير: أفما سمعَ شيئاً من هذا المقدسىّ؟ قلتُ: بَلَى قد أَلْقيْتُ إليه هٰذا وما أشْبهه بالزِّيادة والنقصان، والتقديم والتأخير، فى أوقات كثيرة بحَضْرَةِ حَمْزَةَ الورّاق فى الورّاقين، فسَكتَ، وما رآنى أهلًا للجواب؛ لٰكن الحريرىّ غلام ابن (٤) طَرّارة هَيَّجه يوما فى الورّاقين بمثْل هٰذا الكلام، فاندفع فقال: الشريعة طِبُّ المَرضَى، والفلْسفةُ طِبّ الأصحّاء، والأنبياء يُطِبّون للمَرْضَى حتى لا يتزايَد مَرَضُهُمْ، وحتى يزولَ المرضُ بالعافية فقط. فأما الفلاسفة فإنهم يَحفظون الصّحةَ على أصْحابِها حتى لا يَعْتَرِيَهمْ مَرَضٌ أَصْلًا، فبين مدبّرِ المريض ومدبّرِ الصحيحِ فَرْقٌ ظاهر وأمْرٌ مكْشُوف، لأن غاية مدبِّر المريض أن يَنْتَقل به إلى الصحة، هذا إذا كان الدواء ناجعاً، والطَّبْعُ قابلا، والطبيب ناصحاً. وغايةُ مدبِّر الصحيحِ أن يحفظ الصحّة، وإذا حفِظَ الصحّة فقد أفادَهُ كَسْبَ الفضائل، وفرّغه لها، وعَرَّضَه لاقتنائها؛ وصاحبُ هذه الحال فائزٌ بالسعادة العُظْمى، ومتبوِّئ الدرجةَ العُليا؛ وقد صار مستحقّا للحياة الإلٰهيّة؛ والحياةُ الإلٰهيةُ من الخلودِ والدَّيْمومةِ والسَّرْمَدية.

فإنْ كَسَبَ من بَرأ من المرضِ بطبِّ صاحِبه الفضائلَ أيضاً؛ فليست[١] تلك الفضائلُ من جِنْس هذه الفضائل، لأنّ إحداهما تقليديّة، والأخرى برهانيّة؛ وهذه مظْنونة، وهذه مستيقَنة[٢]، وهذه رُوحانيّة، وهذه جسميّة، وهذه دَهْريّة، وهذه زَمانيّة.

---

(١) فى ب «قلت»؛ وهو تحريف.
(٢) فى ب «مستقمه»؛ وهو تحريف.

وقال أيضاً : إنما جَمَعْنا بين الفلسفة والشَّريعة لأن الفلسفة معْتَرِفَةٌ بالشريعة ، وإن كانت الشريعةُ جاحدةً لها ؛ وإنما جَمَعْنا أيضاً بينهما لأنّ الشريعة عامة ، والفلسفةَ خاصّة ، والعامّةُ قِوامُها بالخاصّة ، كما أن الخاصّةَ تمامُها بالعامّة ؛ وهما متطابِقتان إحداهما على الأخرى ، لأنهما كالطِّهارة التى لا بدّ لها من البِطانة ، وكالبِطانة الّتى لا بدّ لها من الظِّهارة .

فقال له الحَرِيرىّ : أمّا قَوْلُك طِبُّ المَرْضَى وطبُّ الأصحّاء وما نَسَّقْتَ عليه كلامَكَ فمَثَلٌ لا يعبِّر به غيرُك[١] ومن كان فى مُشْكل ، لأنّ الطبيب عندنا الحاذقَ فى طِبّه هو الذى يَجمع بين الأمْرَيْن ، أعنى أنّه يُبرِئُ المريضَ من مَرَضه ، ويَحفظ الصَّحيحَ على صحّته ؛ فأما أن يكون هاهنا طبيبان يعالج أحدُهما الصحيح ، والآخَرُ يعالج المريض ، فهذا ما لم نَعْهَدْه نحن ولا أنت ؛ وهو شىءٌ خارجٌ عن العادة ، فمَثَلُك مردودٌ عليك ، وتسبيعُك فاضحٌ لك ، وكلٌّ أحد يَعلَمُ أن التدبير فى حفظ الصحّة ودَفْعِ المرض — وإن كان بينهما فَرْق — واحد ، فالطِّبّ يجمعهما ، والطبيب الواحدُ يقوم بهما وبشرائطهما .

وأمّا قَوْلك فى الفصل الثانى : إنّ إحدى الفصيلتين تقليدية ، والأخرى برهانيّة ، فكلامٌ مدخول ، لأنّك غلطتَ على نفسك : ألا تعلم أن البرهانية هى الواردة بالوحى ، الناظمة للرُّشْد ، الداعيةُ إلى الخير ، الواعدةُ بحسْن المآب ؛ وأنّ التقليديّة هى المأخوذة من المقدِّمةِ والنتيجة ، والدعوى التى يُرْجَع فيها إلى من ليس بحجّة ، وإنما هو رجلٌ قال شيئاً فوافقَه آخَرُ وخالَفَه آخَر ، فلا الموافِقُ له يَرجِعُ إلى الوَحْى ، ولا المخالف له يَستنِد إلى حَقّ ؛ والعَجَب أنّك جعلتَ الشريعةَ من باب الظنّ ، وهى بالوَحْى ، وجَعلتَ الفلسفةَ من باب اليقين ، وهى من الرأى .

---

(١) فى (ا) « عليه » .

وأمّا قولك : هذه رُوحانيّة — تَعْنِي الفلسفة — وهـذه جسميّة — تَعنِي الشريعة — وزَخرفة لا تستَحِقّ الجواب ، ولمثل هذا فَلْيعْمل المُزخرِفون ؛ على أنا لو قُلْنَا : بل الشريعة هى الرُّوحانية ، لأنها صَوْتُ الوحى ، والوحى من الله عزَّ وجل ، والفلسفة هى الجسميّة ، لأنها برزَتْ من جهة رجل باُعتبار الأجسام والأعراض ، وما هذا شأنُه فهو بالجِسْم أشْبَه ، وعن لُطْفِ الرُّوحِ أَبعَد [لما أَبعَـدْنا] .

وأما قولُك : الفلسفة خاصةٌ والشريعةُ عامة ، فكلام ساقط لا نُورَ عليه ، لأنّك تشير به إلى أن الشريعة يعتقدها قوم — وهم العامّة — والفلسفة يَنْتَحِلُها قوم — وهم الخاصة — فلِمَ جَمَعْتم رسائلَ إخوان الصفاء ودعوتم الناسَ إلى الشريعة وهى لا تَلزم إلا للعامَّة ، ولِمَ تقولوا للناس : مَن أحبَّ أن يكون من العامة فليَتَحلّ بالشريعة ، فقد ناقضتُم ، لأنكم حَشَوْتُم مقَالتكم بآياتٍ من كتاب الله تزعمون بها أن الفلسفة مدلولٌ عليها بالشريعة ، ثم الشريعةَ مدلولٌ عليها بالمعرفة ، ثم هأنت تذكر أن هٰذه للخاصّة ؛ وتلك للعامّة ؛ فلِمَ جَمَعتُمْ بين مفترقَيْنِ ، ومزّقتُم بين مجتمِعَين ؛ هذا والله الجهْلُ المُبين ، والخُرْق المشِين .

وأمّا قولك : إنّا[1] جمعنا بين الفلسفة والشريعة[2] لأنّ الفلسفة معترفةٌ بالشريعة ، وإن كانت الشريعة جاحِدَةً للفلسفة ، فهذه مناقَضة أخرى[3] ، وإنى أظُن أنّ حسّك كليل ، وعقْلَك عَليل ، لأنّك قد أَوْضَحْتَ عُذْرَ أصحاب الشريعة ، إذ جَحَدوا الفلسفة ، وذلك أن الشّريعة لا تَذْكرها ، ولا تحضّ على الدَّيْنُونة[4]

(١) فى (ا) « إذا » وهو تحريف .
(٢) ورد بعد قوله : الشريعة فى (ا) « وما » وهى زيادة من الناسخ لا معنى لها .
(٣) فى (ا) « للأخرى » وهذان اللامان زيادة من الناسخ .
(٤) « النوبة » .

بها ؛ ومع ذلك فليس لهم علمٌ بأنّ الفلسفة قد حَثَّتْ على قبول الشريعة ، ونهت عن مخالفتها ، وسمّتها بالناموس الحافظ لصلاح العالم (١)

ثم قال الحريريّ : حدِّثنى أيها الشّيخُ : على أىّ شريعةٍ دلّت الفلسفة ؟ أَعَلى اليهوديّة ، أم على النصرانية ، أم على المجوسيّة ، أم على الإسلام ، أم ماعليه الصائبون ؟ فإنّ ها هنا من يتفلسف وهو نصرانىّ كابن زُرْعة وابنِ الخمّار وأمثالِهما ، وها هنا من يتفلسف وهو يهودىّ ، كأبى الخير بن يعش ، وها هنا من يتفلسف وهو مسلِم ، كأبى سليمان والنُونجانىّ وغيرِهما ، أفنقول إن الفلسفة أباحت لكل طائفة من هذه الطّوائف أن (٢) تدين بذلك الدين الذى نشأت عليه ؟ ودع هذا ليُخاطَبَ غيرُكَ ، فإنّك من أهْل الإسلام بالهَدْى والجِبِلّة والمَنشإِ والوِراثة ؛ فما بالُنا لا نَرى واحدا منكم يقوم بأركان الدِّين ، ويتقيَّد بالكتاب والسنّة يُراعى مَعالِمَ الفريضة ووظائفَ النافلة ؟ وأين كان الصَّدْر الأوّلُ من الفلسفة ؟ أعنى الصَّحابة ، وأين كان التابِعُون منها ؟ ولِمَ خَفِيَ هذا الأمرالعظيم — مع (٣) ما فيه من النورِ والنعيم — على الجماعة الأولى والثانية والثالثة إلى يومنا هذا وفيهم الفُقَهاء والزُّهّادُ والعُبّادُ وأصحابُ الوَرَع والتّقَى ، والناظرون فى الدّقيق ودقيق الدقيق وكلٌّ ما عاد بخَيْرٍ عاجل وثوابٍ آجِل ، هيهات (٤) لقد أسْرَرْتم الحَسْوَ فى الارتغاء (٥) واُستقيتم بلا دَلْو ولا رِشاء ، وَدَلَلْتُم على قُسولَتِكم وضعْفِ مُنّتِكم

(١) ورد فى (ا) بعد قوله : « العالم » قوله : « قبله » ولا معنى لها هنا .
(٢) فى (ا) « لمن تدين » ؛ وهو تحريف .
(٣) فى (ا) « على مع ما فيه » ؛ وقوله : « على » زيادة من الناسخ .
(٤) فى (ا) « ها ها هيهات » ؛ وقوله : ها ها زيادة من الناسخ .
(٥) الارتغاء : أخذ الرّغوة ، وهذا مثل يضرب لمن يظهر أمراً وهو يريد خلافه ، أو لمن يظهر طلب القليل وهو يريد الكثير ، وقد سئل الشعبى فى رجل قبل أم امرأته فقال : يُسِرّ حسواً فى ارتغاء ، وقد حرمت عليه امرأته .

أردتم أن نقيموا ما وَضَعه الله ، وتضعوا ما رفَعه الله ، والله لا يُغالَب ؛ بل هو غالبٌ على أمره ، فعَّال لما يُريد .

قد حاول هذا الكَيد خَلقٌ فى القديم والحديث ، فنكصوا على أعقابهم خائبين ، وكُبّوا لوجوههم خاسرين ؛ منهم أبو زيد البَلخيّ ؛ فإنه أدَّعى أنّ الفلسفة مُقاوِدَة[1] للشّريعة ، والشريعةَ مشاكلة للفلسفة ، وأن إحداهما أُمٌّ الأخرى ظِئْر ، وأَظْهرَ مَذْهَبَ الزَّيْدِيَّة ، وانْقاد لأمير خراسان الذى كتب له أن عمل فى نشْر الفَلسفة بشفاعة الشريعة ، ويدعو الناسَ إليها باللُّطْف والشفقة والرَّغْبَة ، فشتَّت اللهُ كلمتَه ، وفوَّض دِعامَنَه ، وحال بينه و بين إرادته ، ووَكَله إلى حَوْله وقوّته ، فلم تتمّ له من ذلك شىء .

وكذلك رامَ[2] أبو تمام النَّيْسابُوريّ ، وخدَم الطائفةَ المعروفة بالشِّيعيَّة لجأ إلى مطرِّف بن محمد وزير مرداويج[3] الجِيلى ليكونَ له به قوَّة ، ويَنطقَ بها فى نَفْسِه من هذه الجملة ، فما زادته إلا صِغراً فى قَدْره ، ومَهانةً فى نَفْسه ، تَوارياً فى بيته ؛ وهذا بعينِه قَصَدَ العامرىُّ فما زال مَطْروداً من صُقْع إلى صُقْع يُنْذَرُ دَمُه ويُرْصَدُ قتلُه ، فمرّةً يتحصّن بفِناء ابنِ العميد ، ومرّةً يَلجأُ إلى صاحب الجيْشِ بنيسابور ، ومرّةً يتقرَّبُ إلى العامَّةِ بكُتُبٍ يصنِّفُها فى نُصْرَة الإسلام ، وهو على ذلك يُتَّهم ويُقْرَف بالإلحاد ؛ وبقِدم العالَم والكلامِ فى الهَيُولَى والصّورة والزّمانِ والمكان ، وما أشبه هذا من ضروب الهَذَيان الّتى

(١) مقاودة للشريعة ، أى مساوقة لها ؛ يريد أنها تسير معها فى قود واحد . وفى ب : « مقارنة » .

(٢) فى (ا) « أم »

(٣) فى كلتا النسختين : « ابن أحمر وزير مرداج » ؛ وهو تحريف .

ما أنزَل الله بها كتابَه ، ولا دعا إليها رَسولُه ، ولا أفاضتْ فيها أُمَّتُه .

ومع ذلك يُناغى صاحبَ كلِّ بدعة ؛ ويجلِسُ إليه كلٌّ منهم ؛ ويُلقِى كلامَه إلى كلٍّ من أدّعى باطناً للظاهرِ وظاهراً للباطن .

وما عندى أنَّ الأئمّة الذين[1] يأخُذ عنهم ويقتبِس منهم ، كأرسْطوطاليس وسُقْراط وأفلاطون ، رَهْطِ الكُفر ذَكروا فى كُتبهم حديثَ الظّاهرِ والباطن ، وإنما هٰذا من نَسْج القَدّاحين فى الإسلام ، السّاترِين على أنفسهم ماهمْ فيه من التُّهم ؛ وهذا بعَيْنِه دبَّرَه الهَجَرِيُّون[2] بالأمس ، وبهذا دَندَنَ[3] الناجمون بقَزْوِين وبَثُّوا الدُّعاةَ فى أطراف الأرض ، وبَذلوا الرغائب وفتَنُوا[4] النفوس .

وقد سَمِعنا تأويلات هذه الطوائفِ لآيات القرآن فى قولِه عزّ وجلّ : (انْطَلِقوا إلَى ظِلٍّ ذِى ثَلَاثِ شُعَبٍ) وفى قوله تعالى : (بَاطِنُهُ فيهِ الرَّحْمَةُ وظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ العَذابُ) وفى قولِه تعالى : (عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ) وفى قوله تعالى : (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فى الآفَاقِ وفى أَنْفُسِهِمْ حتّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أنّهُ الْحَقُّ) إلى غير ذلك مما يطول ويَغُول[5] فدَعُونا[6] من التورِية والحِيلة والإيهام والكناية عن شيء لا يتصل [بالإرادة ، والإرادةِ لشيء لا يتّصل] بالصريح . فالناسُ أنقَدُ لأديانهمْ وأحْرَصُ على الظّفَر بغُنيتهم[7] من الصّيارفة لدنانيرِهم ودَراهِمهم .

فلمّا أُشهِرَ المَقْدِسىُّ بما سمع وكاد ينفرى إهابه من الغَيْظ والعَجْز وقِلّة الحيلة

(١) فى كلتا النسختين : « الدين » ، وهو تحريف .

(٢) فى كلتا النسختين « الهجريون » .

(٣) يقال : دندن الذباب : إذا صوت وطنّ . ودندن الرجلُ إذا نغّم ولم يُفهم منه كلام .

(٤) فى كلتا النسختين : « وقتلوا » .

(٥) يغول : من غال الشيء فلاناً إذا ثقل عليه وغلبه وأهمه .

(٦) فى كلتا النسختين : « قد عدونا » ؛ وهو تحريف .

(٧) فى (ا) « بصيبهم » .

قال : الناسُ أعداء ما جَهِلوا ، ونَشْرُ الحِكْمَة فى غير أهْلِها يُورِثُ العَداوة ويطْرَحُ(١) الشحناء ويَقْدَحُ زَنْدَ الفِتْنَة .

ثم كرَّ الحَرِيرىُّ كَرَّ المُدِلِّ وعَطف عِطْفَةَ الواثق بالظفر ، فقال : يا أبا سُلَيْمان ، مَن هٰـذا الذى يُقِرُّ منكم أنَّ عَصَا مُوسَى انقلَبَتْ حَيَّة ، وأن البَحْرَ انْفَلَق ، وأنَّ يَداً خَرَجَتْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُـوء ، وأنَّ بَشَراً خُلِق من تراب ، وأنَّ آخرَ ولَدَته أُنثى من غير ذَكَر ، وأنَّ ناراً مُؤَجَّجةً طُرِح فيها إنسانٌ فصارَتْ له بَرْدًا وسَـلاما ، وأنَّ رَجُلًا ماتَ مائَةَ عامٍ ثم بُعث فنَظَر إلى طعامِه وشرابِه على حالَيْهما لم يتغيَّرا ، وأنَّ قبراً تفَقَّأ عن ميِّتٍ حَيِّ ، وأنَّ طيناً دُبِّر(٢) فنُفِخ فيـه فطار ، وأنَّ قمرا انشَقَّ ، وأنَّ جِذْعًا حَنَّ ، وأنَّ ذئباً تكلَّم ، وأنَّ ماء نَبَعَ من أصابعَ فرَوِى منه جَيْشٌ عظيم ، وأنَّ جَماعةً شَبِعَتْ من ثرِيدةٍ فى قَدْر جِسْم قَطَاة ؟

وعلى هـذا ، إن كنتم تَدْعُون إلى شَرِيعة من الشرائع التى فيهـا هـذه الخوارِق والبَدائع فاعْتَرِفوا بأنَّ هٰذه كلَّها صحيحة ثابِتة كائِنة لا رَيْبَ فيها ولا مِرْية ، من غَيْر تأويل ولا تدليس ، ولا تَعْليـل ولا تَلْبيس ، وأعْطُونا حَظَّكم بأنَّ الطّبائعَ تَفْعَل هذا كلَّه ، والموادَّ تُوَاتِي له ، والله تعالَى يَقْدر عليه ؛ ودَعُوا التَّوْرِيةَ والحِيلة والغِيلة(٣) والظاهرَ والباطن ، فإنّ الفلسفة لَيْسَت من جِنْس الشَّرِيعة ، ولا الشَّرِيعة من فَنِّ الفَلْسَفة ، وبينهما يَرْمى الرَّامى ويَهْمى الهامى ؛ على أنّا ما وَجَدْنا الديّانِين من المُتألِّهين من جميع الأدْيان يَذْكرون

---

(١) يطرح الشحناء ، أى يلقيها فى القلوب .
(٢) دبر ، أى صنع كهيئة الطير .
(٣) الغيلة : الخديعة .

أنَّ أصحاب شرائعهم قد دَعَوْا إلى الفَلْسَفة وأَمروا بطَلَبها واقتِبَاسها من اليُونانيِّين هذا موسى وعيسى و إبراهيم ودَاود وسليمان وزَكريّا و يَحْيى إلى محمد — صلى الله عليه وسلم — لم نَحُقَّ مَن يَعزو إليهم شيئاً من هذا الباب ، و يُعَلِّق عليهم هذا الحديث .

قال الوزير : ما عجبى مِن جميع هذا الكلام إلاّ من أبى سُليمانَ فى هذا الاستِحْقار والتَّغَضب ، والاحتشاد والتعصّب ؛ وهو رَجُل يُعرَف بالمَنْطِقىّ ، وهو من غِلْمان يَحيى بن عَدِىّ النّصْرانى ، ويَقْرأ عليه كُتُب يُونَان ، وتَفْسيرَ دقائِق كُتُبهم بغاية البَيَان .

فقلت : إنَّ أبا سُلَيْمانَ يقول : إن الفلسفة حَقٌّ لـكنّها لست من الشَّرِيعة فى شىء ، والشَّريعة حَقٌّ لـكنّها لَيْسَت من الفلسفة فى شىء ، وصاحبَ الشَّرِيعة مَبْعُوث ، وصاحِب الفَلْسفة مَبْعوث إليه ، وأَحَدَهما مَخْصُوص بالوَحْى ، والآخرَ مَخْصوص ببَحْثه ، والأوّلَ مَكْفِىّ ، والثانىَ كادِح ، وهذا يقول : أُمِرْتُ وعُلّمتُ ، وقيل لى ، وما أقول شيئاً من تِلْقاء نفسى ؛ وهذا يقول : رأيتُ ونَظَرت واستحسنتُ واستقبحت ؛ وهذا يقول : نورُ العقل أَهْتَدِى به ؛ وهذا يقول : معى نور خَالِقِ الخَلْق أَمْشِى بضِيَائه ؛ وهذا يقول : قال الله تعالى ، وقال المَلَك ؛ وهذا يقول : قال أفلاطُن وسُقْراط ؛ و يُسْمَع من هذا ظاهرُ تنزيل ، وسائغُ تأويل ، وتحقيقُ سُنَّة ، واتّفاقُ أُمّة ؛ ويُسمع من الآخر الهَيُولَى والصُّورة والطبيعة والأُسْطُقُسّ والذّاتىّ والعَرَضىّ والأَيْسِىّ واللّيْسِىّ ، وما شاكل هذا مِمّا لا يُسمع من مُسْلِم ولا يَهودىّ ولا نَصْرَانىّ ولا مَجُوسىّ ولا مانَوِىّ .

ويقول أيضاً : من أرَاد أنْ يتَفَلْسَف فيجب عليه أن يُعْرِضَ بنَظَره عن الدِّيَانات ، ومَن اختار التَّدَيُّن فيجب عليه أن يُعَرِّد (١) بعنايته عن الفلسفة

(١) يعرد : ينكب ويحيد .

ويتحلَّى بهما مُفْترقَين فى مكانين على حالين مُخْتَلفين ، ويكونَ بالدِّين مُتَقرِّبا إلى الله تعالى ، على ما أوْضَحه له صاحبُ الشَّريعة عن الله تعالى ، ويكونَ بالحِكْمة مُتَصفِّحًا لقُدْرة الله تعالى فى هذا العالَم الجامِع للزِّينة الباهرة لكل عَين ، المُحَيِّرَة لكلّ عقْل ، ولا يَهْدِم أحَدَهما بالآخَر . أعنى لا يَجْحَد ما أَلْقَى إليه صاحِبُ الشَّرِيعة مُجْمَلًا ومُفَصَّلًا ، ولا يَغْفُل عمّا استَخْزَن الله تعالى هذا الخَلْقَ العظيمَ عَلَى ما ظَهَرَ بقُدْرته ، واُشتَمَل بحكمتِه ، واستَقَام بمشيئتِه ، وانتَظَم بإرادته واستَتَمَّ بعِلمِه ؛ ولا يعْتَرِض عَلَى ما يَبْعُدُ فى عَقْله ورأْيه من الشَّرِيعة ، وبدائع آيات النُّبوّة بأحكام الفلسفة ، فإنَّ الفَلْسَفة مأْخُوذَة من العَقْل المقصور عَلَى الغاية ، والدِّيانةَ مأْخُوذة من الوَحْى الوارد من العِلم[(١)] بالقُدْرَة .

قال : ولَعَمْرِى إنَّ هذا صعْب ، ولكنه جِمَاعُ الكلام ، وأَخْذُ المُستطاع ، وغايةُ ما عَرَض له الإنسانُ المؤَيَّد باللَّطائف ، المُزَاح بالعلل وبضُرُوب التّكاليف .

قال : ومن فضل نعمةِ الله تعالى عَلَى هذا الخلْقِ أنه نَهَجَ لهم سبِيلين ونصَبَ لهم عَلَمين ، وأبانَ لهم نَجْدَين[(٢)] ليَصلوا إلى دار رِضوانه إما بسلوكهما وإما بسلوك أحدهما .

فقال له البخارى : فهلاّ دَلّ الله على الطريقين اللذَين رسمتَهما فى هذا المكان ؟ قال : دَلَّ وبَيَّن ، ولكنك عَمٍ ، أما قال : (وَمَا يَعْقِلُها إلّا الْعَالِمون) ؟ وفى فَحْوَى هذا وما يعلَمها إلّا العاقلون ؟ فقد وصَل العقلَ بالعلم ، كما وصلَ العِلْمَ بالعَقل ، لأنّ كمال الإنسان بهما ، ألا ترى أن العاقل متى عُرِّىَ من العِلْم قلّ انتفاعُه بعقله ؟ كذلك العالِم متى خُلِّىَ من العقل بَطَل انتفاعُه بعلمه ، أما قال : (وَمَا يَتذَكَّرُ

(١) فى كلتا النسختين : « العقل » .
(٢) يشير بالسبيلين والعلمين والنجدين إلى العقل والعلم .

إلا أُولُوا الْأَلْبَابِ) ؟ أَمَا قال : (فَاعْتَبِرُوا يا أُولِى الْأَبْصَارِ)؟ أَمَا قال : (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآن) ؟ أَمَا ذَمَّ قومًا حين قال : (يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ) ؟ أفما قال : (أَوَمَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاس كَمَنْ مَثَلُهُ فى الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا) ! أَمَا قال : (وكَأَيِّنْ مِنْ آيةٍ فى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنها مُعْرِضونَ) ؟ أَمَا قال : (إِنَّ فى ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ) ؟ وكتاب الله عزّ وجل مُحيطٌ بهذا كلّه ، وإنما تقاد إلى طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم بعد هذا فيما لا يناله عَقْلُك ، ولا يَبْلغُهُ ذهْنُكَ ، ولَا يَعْلُو إلَيْه فِكرك ، فأمرك باتّباعه والتَّسليم لهُ ، وإنما دخلت الآفةُ من قومٍ دَهْرِيِّين مُلْحِدينَ رَكبُوا مطية الجْدلِ وَالْجهل ، ومالوا إلى الشَّغْبِ بالتعصُّب ، وقابلوا الأمور بتحسينهم وتقبيحهم وتهجينهم ، وجهلوا أَنَّ وراء ذلك ما يَفوت ذَرْعَهُمْ ، ويتخلَّف عن لحافه رأيُهم ونظَرُهم ، ويَعْمى دونَ كُنْهِ ذلك بَصَرُهم ؛ وهذه الطائفة معروفة ، منهم صالح بن عبد القدّوس ، وابن أبى العوجاء ، ومطرُ بن أبى الغيث ، وابن الرَّاوَنْدِى ، والحصرىّ ، فإن هؤلاء طاحُوا فى أَوْدِية الضَّلالة ، واسْتَجرُّوا إلى جهْلهم أصحابَ الخلاعَةِ والمجانة .

فقال البخارىّ : فما الذى تركتَ بهذا الوصف للّذِين جمعوا بين الفلْسَفَة والديانة ؛ ووصلوا هذه بهذه على طريق الظاهر والباطن ، والخفىّ والجلىّ ، والبادى والمكتوم ؟ قال : تركتُ لهم الطَّويل العريض ، القومُ زعموا أن الفلْسَفة مُواطئةٌ للشَّريعَة ، والشَّريعةَ مُوافِقَةٌ للفلْسَفَة ؛ ولا فَرْق بين قول القائل : قال النبىّ ، وقال الحكيم ، وأَنَّ أَفلاطُن ما وضعَ كِتابَ النَّواميس إلا لنَعْلم كيف نَقول ؟ وبأىّ

شيء نبحث ، وما الذى نُقَدِّم و نُؤخِّر ، وأن النُّبوة فرعٌ من فروع الفلسفة ، وأن الفلسفة أصلُ علم العالم ، وأنَّ النبيَّ محتاجٌ إلى تَتْميم ما يأتى به من جهة الحكيم ، والحكيمَ غنيٌّ عنه ؛ هذا وما أشبهه ؛ وأنَّ صاحبَ الدِّين له أن يُعَيِّنَ ويورِّىَ ويُشيرَ ويُكَنِّىَ حتّى تتمّ المصلحةُ ، وننتظمَ الكلمة ، وتتفقَ الجماعة ، وتثبتَ السُّنَّة ، وتحلوَ المعيشة ، وحتى قال قائل منهم : « أوائل الشريعة أمورٌ مُبْتَدعه ، ووسائطها سُنَنٌ مُتَّبَعه ، وأواخرها حُقُوقٌ منتزعه » وإنَّ هذا النَّعت من قولى : « إنَّ الشريعةَ إلٰهية ، والفلسفه بشرية » ، أعنى أنَّ تلك بالوحى ، وهذه بالعَقْل ، وأنّ تلك موثوقٌ بها ومُطمأنٌّ إليها ، وهذه مشكوكٌ فيها مضْطَرَبٌ عليها .

قال له البخارىّ : فلِمَ لَمْ ينهج صاحبُ الشّريعة هذه الطريق ، وكان يزول هذا الخصام ، وينتفى هذا الظن ، وتكسدُ هذه السّوق ؟ فقال : إن صاحبَ الشّريعة مسْتَغْرِقٌ بالنور الإلٰهىّ ، فهو مخْصوص على ما يراه ويُبْصرُه ، ويجدُه وينظره ، لأنّه مأخوذ بما تَشْهدَه بالعِيَان وأدْركه بالحِسِّ وناله بوديعَة الصَّدر عن كل ما عداه ، فلهذا يدعو إلى اقتباس كماله الذى حصَل له ، ولا يسْعَد بدعوته إلا من وُفِّق لإجابته ، وأذْعَن لطاعته ، واهْتدى بكلمته ، والفلسفة كمال بشرىّ ، والدينُ كمالٌ إلٰهىّ ، والكمال الإلٰهىّ غنيٌّ عن الكمال البَشَرِىّ ، والكمال البشرى فقيرٌ إلى الكمال الإلٰهىّ ، فهذا هذا ، وما أمَر الله عزّ وجلّ بالاعتبار ، ولا حَثَّ على التدبّر ، ولا حَرّكَ القلوب إلى الاستِنْبَاط ، ولا حَبّبَ إلى القلوب البحثَ فى طَلَب المكنونات ، إلا ليكُونَ عِبادُه حُكماءَ ألِبّاءَ أتْقياءَ أذْكِياء ، ولا أَمَرَ بالتّسليم ولا حظَرَ الغُلُوَّ والإفْراطَ فى التَّعمُّق إلا ليكونَ عِبادُه لاجئين إليه مُتَوَكِّلين عَلَيْه ، مُعْتَصِمين به ، خائفين مِنْه ، رَاجِينَ له ، يدعُونَه خَوْفا وطمعاً ،

وَيَعْبُدُونَهُ رَغَبا ورَهَبا ، فبَيَّن مابيَّن حرصا على معْرفته وعِبادَته ، وطاعته وخدمته ، وأَخْفَى ما أَخْفَى لتَدُوم حاجتُهم إليْه ، ولا يَقَع الْغِنَى عنه ، وبالحاجَة يَقَعُ الخضُوعُ والتجرُّد ، وبالاستِغْناء يَعْرِضُ التَّجبُّر والتمرُّد ؛ وهذه أُمُورٌ جارِيةٌ بالعادة ، وثابتة بالسِّيرة الجائرة والعادلة ؛ ولا سبِيل إلى دفعها وَرَفْعِها وإنكارِها وجَحْدِها ، فلهذا لزم كلَّ من أدرَكَ بعقله شيئاً أن يتمِّمَ نقصه بما يجِدُه عِنْـدَ من أدركَ مَا أَدرَكَ بِوَحْيٍ من رَبِّه .

وقال أيضاً : مما يُؤَكِّدُ هـذه الجملة أنَّ الشَّريعةَ قدْ أَتَتْ عَلَى مَعْقُولٍ كثير ، بنورِ الوحْى المنير ، ولم تأتِ الفَلسفَةُ على شَىء من الوحى لا كثيرٍ ولا قليل :

قال : ولَيْسَ ليونانَ نَبِىٌّ يُعرفُ ، ولا رسولٌ من قِبَل الله صادق ، وإنما كانوا يَفزَعون إلى حُكمائهم فى وضْع ناموسٍ يجمَع مصالحَ حياتهم ونظام عيْشهم ومنافعَ أحْوالهم فى عاجِلتهم ، وكانت ملوكهم تُحِبُّ الحـكمة وتؤثرأهلها ، وتقدِّم من تَحلّى بجزء من أجْزائها ، وكان ذلك الناموس يُعْمَلُ به ويُرْجَع إليه ، حتى إذا أبلاه الزمان ، وأخْلَقه الليْـلُ والنهار ، عادوا فوضعوا ناموسا آخرَ جديدا بزيادة شيء على ما تقدّم أو نقصان ، على حسب الأحوالِ الغالبة على الناس . والمغلوبة بين الناس ، ولهذا لا يُقال : إن الإسكندر فى أيام مُلـكه حين سار من المغرب إلى المشرق كانت شريعته كذا وكذا ، وكان يذكر نبيا يُقال له : فلان ، أو قال : أنا نبىّ ، ولقـد واقعَ دَارًا وغَيره من الملوك على طريق الغَلبة فى طلب المُلك ، وحيازةِ الديارِ وحماية الأموال والسّبْى والغارة ، ولو كان للنبوة ذِكرٌ وللنبىّ حديثٌ لـكان ذلك مشْهورا مذكورا ، ومؤرَّخا معروفا .

(٦) قال الوزير : هذا كلامٌ عجيبٌ ما سمعتُ مثلَه على هذا الشرح والتفصيل ، قلتُ :

إنّ شيخَنا أبا سُليمانَ غزيرُ البحر ، واسع الصدر ، لا يُغلَقُ عليه فى الأمور الرُّوحانية والأنباء الإلٰهية والأسرار الغيبيّة ، وهو طويلُ الفكرة ، كثير الوحدة ، وقد أوتى مزاجا حسن الاعتدال ، وخاطراً بعيدَ المَنَال ، ولسانا فسيح المجال ، وطريقَتُه هذه التى اُجتباها مكتنَفةٌ بمعارَضاتٍ واسعة ، وعليها مَداخل لخصمائه ، وليس يفى كلُّ أحدٍ بتلخيصه لها ، لأنه قد أفْرَزَ الشّريعةَ من الفلسفة ، ثم حثّ على انتحالهما معا ، وهذا شبيهٌ بالمناقَضَة . وقد رأيتُ صاحبا لمحمد بن زكرياء فى هـذه الأيام ورد من الرّىّ يقال له : أبو غانم الطبيب يُشادُّه فى هذا الموضع ويُضايقُه ، ويُلزمُه القولَ بمـا يُنكِره على الخصم ، وإذا أَذِنتَ رَسَمْتُ كلامَهما فى ورقات . فقال الوزير : قد بان الغرضُ الذى رمى إليه ، وتقليبُه بالجدل لا يزيدُه إلا إغلاقا ، والقصدُ معروف ، والوقوفُ عليه كافٍ ، ومع هـذا فليتَ حظَّنا منه كان يتوفر بالتلاقى والاجتماع ، لا بالرواية والسماع ، هاتِ فائدة الوداع ، فقد بلغتَ فى المؤانسة غايةَ الإمتاع .

(٧) قلت : أكره أن أختمَ مثلَ هذه الفِقَر الشريفة بما يشبه الهزلَ وينافى الجِدّ ، فإن أذِنتَ روَيتُ ما يكون أساسا ودِعامة لمـا تقدّم . قال : هاتِ ما أحببتَ ، فما عَهِدنا من رِوايتك إلا ما يشوّقنا إلى رؤيتك .

قلت : قال ابن المقفّع : عَملُ الرّجلِ بمـا يَعْلمُ أنه خطأٌ هوًى ، والهوى آفةُ العفاف ، وتركُهُ العملَ بما يَعلَمُ أنّه صوابٌ تهاوُن ، والتّهاوُن آفةُ الدِّين ، وإقدامُه على ما لا يَعلَمُ أصوابٌ هو أم خطأٌ لجَاج ، واللَّجاجُ آفةُ الرّأى .

فقال — حَرَس الله نفسَه — : ما أكثَرَ رَوْنَقَ هـذا الكلام ! وما أعلى رُتبتَه فى كُنْه العقل ! اُكتُبْه لنا ، بل اُجْمع لى جُزْءا لطيفاً من هـذه الفِقَر ، فإنّها تُرَوِّحُ العقـلَ فى الفَيْنَة بعد الفَيْنة ، فإنَّ نورَ العقل ليس يَشِـعُّ فى كلِّ

وقت ؛ بل يَشِعُّ مرّةً ويَبرُق مرّةً ، فإذا شَعَّ عَمَّ نفعُه ، وإذا برَق خَصَّ نفعُه وإذا خَفِيَ بَطَلَ نفعُه . قلت : أفعلُ . فقال : إن كان معك شىء آخَرُ فاذكُرْه ،

(٨) فإنَّ الحديثَ الحَسَنَ لا يُمَلّ ، وما أَحْسَنَ ما قال خالدُ بنُ صَفْوان ، فإنّه قيل له : أتَمَلُّ الحَديث ؟ قال : إنّما يُمَلُّ العَتيق . قال : صدق خالد : إنَّ الحديث لا يُمَلُّ من الزّمان[1] إلا فيما يليه[2] ، وإلّا فكيف يُمَلُّ فى أوّل زمانه وفاتحةِ أوانِه ، وإنّما المَلَلُ يَعرِضُ بتكرُّر الزّمان وضَجَرِ الحِسِّ ونِزاعِ الطّبع إلى الجديد ، ولهذا قيل : لكلِّ جديدٍ لَذّة .

(٩) حُكِيتُ أنّه لمّا تقلّد كِسرى أنوشِرْوَان مملكتَه عكَفَ عَلَى الصَّبوح والغَبوق ، فكتب إليه وزيرُه رُقعةً يقول فيها : إنّ فى إدمان المَلِك ضرراً على الرّعيّة ، والوجهُ تخفيفُ ذلك والنّظرُ فى أُمور المملكة . فوقّع على ظهر الرُّقعة بالفارسيّة بما ترجمتُه : يا هذا ، إذا كانت سُبُلُنا آمِنة ، وسيرتُنا عادلة ، والدُّنْيا باستقامتنا عامِرة ، وعُمّالُنا بالحق عاملة ، فلِمَ نمنعُ فرحةَ عاجلة ؟ .

قال : من حَدّثك بهذا ؟ قلت : أبو سليمان شيخنا ، قال : فكيف كان رِضاه عن هذا المَلِك فى هذا القول ؟ فقلت : أعترِض فقال : أخطأَ من وجوه ، أحدُها أن الإدمانَ إفراط ، والإفراطُ مذموم ؛ والآخَرُ أنه جَهِل أنّ أَمْنَ السّبيل وعَدْلَ السِّيرَة وعمارةَ الدنيا والعملَ بالحقّ متى لم يُوَكّل بها الطّرْفُ السّاهر ولم تُحَطْ بالعناية التامّة ، ولم تُحفَظْ بالاهتمامِ الجالبِ لدوامِ النّظام ، دَبَّ إليها النَّقصُ والنَّقصُ بابٌ للانتقاض ، مُزَعزِعٌ للدِّعامة ، والآخَرُ أنّ الزّمان أعزُّ من أن

(١) من الزمان ، أى فى وقت من الزمان .

(٢) فى نسخة فاتحته . وفى نسخة ما تحته ؛ وهو تحريف فى كلتيهما ؛ وسياق الكلام الآتى بعد يقتضى ما أثبتنا .

يُبْـذل فى الأَكْل والشّرْب والتلذّذِ والتمّتّع ، فإن فى تكميل النفس الناطقةِ باكتساب الرّشدِ لها و إبعادِ الغَىِّ عنها ما يَسْتَوْعِب أضعافَ العمر ، فكيف إذا كان العُمُر قصيراً ، وكان مايدعو إليه الهوى كبيرا ؟! والآخَرُ أنّه ذهب عليه أنّ الخاصَّـة والعامَّة إذا وقفتْ على استهتار المَلِك باللَّذّات ، وانهماكه فى طلب الشهوات ، ازْدَرَتْه واستهانتْ به ، وحدَّثتْ عنه بأخلاقِ الخنازيرِ وعاداتِ الحَمير واستهانةُ الخاصَّـةِ والعامَّةِ بالنّاظرِ فى أمرها والقيِّم بشأنها متى تكرّرتْ عَلَى القلوب تَطَرّقَتْ إلى اللسان ، وانتشرتْ فى المحافل ، والتَفتَ بها بعضُهم إلى بعض وهذه مَـكْسَرةٌ للهيبة ، وقلّةُ الهيبة رافعةٌ للحشمة ، وارتفاعُ الحشمةِ باعثٌ على الوَثْبة ، والوَثْبةُ غيرُ مأمونةٍ من الهلكة ؛ وما خلا المَلِكُ من طامعٍ راصدٍ قطّ ولس ينبغى للملِك الحازم أنْ يظنَّ أنَّه لا ضِدَّ له ولا مُنازع ، وقد يَنْجُم الصـدّ والمنازع من حيث لايحتسب ، وما أكثرَ حجَلَ الواثق ! وما أقلَّ حَزْمَ الوامق ! وما أقلَّ يَقظة المـائق[1] !

ثم قال : وعلى الضِّدِّ متى كان السائسُ ذا تحفّظٍ وبحثٍ ، وتتبُّعٍ وحرمٍ وإكبابٍ على لَمِّ الشَّعَثِ وتقويم الأوَدِ وسَدِّ الخلَلِ وتعرُّفِ المجهولِ وتحقُّقِ المعلوم ورفعِ المنكر وبثِّ المعروفِ ، احترستْ منه العامّة والخاصّة ، واستَشْعَرت الهيبةَ ، والتزمَتْ بينها النَّصَفَة ، وكُفِيتْ كثيرا من مُعاناتها ومراعاتها ، وإن كان للدّولة راصدٌ للغِرة يئسَ من نُفوذِ الحيلة فيهـا ، لأنّ اللّصّ إذا رأى مكانا حصينا وعَهِد عليه حُرّاسا لم يحدِّث نفسه بالتعرضِ له ، وإنما يقصد قَصْرا فيه ثُلْمة ، وبابا إليه طريق ، والأعراض بالاسباب ، وإذا ضَعف السّبب ضَعُف العَرَض ، وإذا انقطع السّبب انقطع العَرَض .

---

(١) المـائق : الأحمق العرّ . وفى كلتا النسختين [illegible] ؛ وهو تحريف .

فقال — أدام الله أيامه — : هذا كلامٌ كافٍ شافٍ . وقال بعد ذلك : حدِّثنى عما تسمعُ من العامة فى حديثنا .

(١٠) قلتُ : سمعتُ (بباب الطّاقِ) قوما يقولون : اجتمع الناس اليومَ على الشّطّ ، فلما نزل الوزير ليركبَ المركبَ صاحوا وضجوا وذكروا غلاء القوت وعوزَ الطعام وتعذرَ الكسبِ وغلَبَةَ الفقرِ وتهتُّكَ صاحبِ العِيال ، وأنّه أجابهم بجوابٍ مرٍّ مع قُطوب الوجه وإظهارِ التبرمِ بالاستغاثة : بعدُ لم تأكلوا النُّخالة .

فقال : والله ما قلتُ هذا ، ولا خطَرَ لى على بال ، ولم أُقابِل عامّةً جاهلةً ضعيفةً جائعةً بمثلِ هذه الكلمةِ الخَشْناء ، وهذا يقولُه من طرح[1] الشَّرَّ وأحبَّ الفسادَ وقَصَدَ التَّشنيعَ عَلَىَّ والإيحاشَ منّى ، وهو هذا العدوُّ الكلب ، « يعنى ابنَ يوسف » كفانى الله شرَّه ، وشغَله بنفسه ، ونكّسَ كيدَه على رأْسه ؛ واللهِ لأنظرنَّ لها وللفقراء بمالٍ أُطلِقُه من الخِزانة ، وأرسمُ بيعِ الخبزِ ثمانيةً بدرهم ، ويصلُ ذلك إلى الفقراء فى كل محَالّةٍ على ما يذكرُ شيخُها ، ويبيع المأمون على السِّعرِ الذى يقُوِّم لهم ، ويشتريه الغنىُّ الواجِد ؛ ففعل ذلك — أحْسَنَ الله جزاءَهُ — على ما عرفتُ وشاهدتُ ، وأبلغْته نشرَ الدعاء له فى الجوامعِ والمجامعِ بطولِ البقاء ودوامِ العَلاء وكَبْتِ الأعداء ونصرِ الأولياء . ثم كتبتُ جزءا من الفقر على ما رَسَمَ من قبل . فلمّا أوصلتُه إليهِ قال لى : اقرأ ، فقرأته عليه ، فقال : صِلْ هذا الجزءَ بجزءٍ آخرَ من حديثِ النبىِّ — صلى الله عليه وسلم — والصحابة وبجزءٍ من الشِّعرِ ، وبشىءٍ من معانى القرآن ، فإنه مقدَّمٌ على كلِّ شىء بحسبِ ما رفعَ اللهُ من خطره ، وأحوجَ إلى فهمه ، وندَبَ إلى العملِ به ، وأثاب على التفكُّرِ فيه والتعجُّبِ منه .

(١) «طرح الشر» أى ألقاه فى القلوب ، وهذا تعبير قد سبق للمؤلف مثله فى صفحة ١٧ سطر ٢ ، مريدا به هذا المعنى .

(١١) وَعَظَ[١] رجلٌ من (جُهَينةَ) (عمرو بن ألعاص) فى قصَّة ألحكومة ، فقال عمرو له : ما أنت وذاكَ يا تيسَ جُهينة ؟ فوالله ما ينفعُك الحق ، ولا يضرُّك الباطل ، فاسكت فإنَّ الظِّلفَ لا يجرى مع الخفّ .

وقال بعض الحكماء : إنَّ المُدُن تُبنى على الماء والمرعَى والمُحتَطَبِ والحَصانة .

وقال الشاعر :

لاح سُهيلٌ فى ألظلامِ ألدَّامِس كأنَّه نارٌ بكفِّ القابِسِ

قال ربيعةُ بن عامرِ بن مالك فى عمرو بن الإطنابة — حين دَفَعَ أُخته وأَخَذَ أخاه وكان أسيراً فى قومه ، وجَعَلَ دفعَ أخيهِ إليه صداقَ أُخته ، وهو ألذى تسمِّيه العربُ ألمساهاةَ[٢] — : فقَدَ حَزْمى ألذى هُدِيتُ له ، وعَزْمى الذى أُرْشِدتُ إليه . وقال الشاعر :

وساهَى بها عمروٌ وراعَى إفالَهُ[٣] فزُبْدٌ وتمْرٌ بعدَ ذاكَ كثيرُ

وكانت دِيَةُ العربىّ مائةَ وَسْقٍ ، ودِيةُ الهجين خمسين وَسْقاً ، وديةُ ألمولى عشرةَ أوسُق ؛ وكانت العربُ تجعلُ ديةَ المُعِمِّ ألمُخوِلِ مائةَ بعيرٍ ، وَديَةَ ألموْلى خمسةً وعشرين بعيراً .

---

(١) يلوح لنا أن هذه الفقر الآتيه قد قرأها المؤلف على الوزير فى ليلة أخرى غير الليله السابعه عشرة السابقه وإن لم يرد فى الأصول ما يدلّ على ذلك ؛ وإذن فتكون هذه هى الليلة الثامنة عشرة ، والليله الآتيه بعد هى الليله التاسعة عشرة ، إذ لا يعقل أن يطلب الوزير إلى المؤلف كتابة هذه الفقر فى ليلة فيكتبها ثم يقرؤها فى نفس الليلة أو لعله كتبها واكتفى بإرسالها إلى الوزير .

(٢) لعلهم سموا هذا النكاح بالمساهاة لما فيه من معنى المساهاة وهى المسامحة وترك الاستقصاء فى المعاشرة .

(٣) « الإفال » : صغار الإبل ، الواحد أفيل .

وقال جرير :

رأيتُ بنى نَبْهانَ أذنابَ طَيِّئٍ … ولِلنّاسِ أذنابٌ تُرَى وصدورُ

ترى شَرَطَ[1] المِعْزَى مُهورَ نسائهم … وفى شَرَطِ المِعزَى لهُنَّ مُهورُ

وقال خالدُ بنُ جعفرِ بن كِلاب[2] :

بل كيف تَكفرنى (هَوازنُ) بعدما … أَعْتَقْتُهُمْ فتوالَدوا أحرارا

وقتلتُ رَبَّهُمُ زُهَيْراً بعدما … جَدَعَ الأُنوفَ وأكثرَ الأوتارا

وجَعلْتُ مَهْرَ نسائهم ودياتِهِمْ … عُقَلَ[3] الملوكِ هَجائناً وبِكارا

وقال جندلُ بنُ صَخْرٍ ، وكان عبدا :

وما فكَّ رِقّى ذاتُ دَلٍّ خَدَلَّجٌ … ولا ساقَ مالى صَدْقَةً وعُقولُ[4]

ولكن نَمانِى كلُّ أبيضَ حضرمٍ[5] … فأصبحتُ أدرى اليومَ كيف أقولُ

وقَتَلَ الكلابيُّ عبدَ الله بنَ الجَوشَن الغَطفانيَّ بقتلِه ابنه الجرّاحَ بن عبد الله (روّاد) ، وكانوا عرضوا عليه الدِّيَةَ ، فقال :

شَفَيْتُ بِرَوّادٍ غَليلاً وجدتُهُ … على القلبِ منه مُسْتَسِرٌّ وظاهرُ

---

(١) « شرط المعزى » : صغارها .

(٢) كان من حديث هذا الشعر أن هوازن كانت لا ترى زهير بن جذيمة إلا ربا ، وكان يعشرهم فإذا كانت سوق عكاظ أتاها زهير بن جذيمة وأتته هوازن بالإتاوة ، فأتته عجوز مرة بنحى فيه سمن ، فذاقه فلم يرض طعمه ، فدفعها بقوس كانت فى يده ، فسقطت على الأرض ، فانكشفت ، فغضب قومها . وآلى خالد بن جعفر أن يقتله ، فلم يزل يعد لذلك عدته حتى أمكنته الفرصة فقتله . فى حديث طويل ليس هنا موضع ذكره (انظره فى بلوغ الأرب ج ١) .

(٣) العقل : جمع عقال . وهى الناقة الفتية الحسنة . والهجائن من الإبل : البيض الكرائم .

(٤) الخدلج : المرأة الممتلئة الذراعين والساقين . والصدقة : المهر . والعقول : الديات ، واحده عقل .

(٥) «الحضرم» : السيد .

ألا ليتَ قبراً بين أُدمَى(١) وَمُطرِقٍ يُحَدِّثه عنى الأحاديثَ خابرُ
وقالوا نَديه من أبيه ونفتدى فقلتُ : كريمٌ ما تَديه الأباعر
ألم تر أنَّ المالَ يذهبُ دَثْرُه(٢) وتَغْبُرُ أقوالٌ وتَبقى المَعايِرُ

أُدمَى وَمُطرِق غَديران(٣) بين فَدَكَ و بلاد طيِّء .

سئلت ابنةُ الخُسِّ هل يَلقَح البازِل ؟ قالت : نعمْ وهو رازِم ، أى وإن كان لا يقدِر على القيام من الضَّعف والهُزال . يقال : جملٌ بازلٌ(٤) وناقةٌ بازلٌ ، ويقال : ضرَبه فبَرَكَعَه إذا أبْرَكَهُ ، وتَبَرْكَعَ ، ويقال : شِمْ لى هذه الإبلَ ، أى انظرْ لى خبرَها .

و يقال لوَلدِ كلِّ بهيمةٍ إذا ساء غِذاؤه : جَحِنٌ ومُحْثَلٌ وجَذِعٌ ، وكلُّ ما غُذِّىَ بغير أُمِّه يقال له : عَجِىٌّ ، وكذلك الجَحِن(٥) والوَغِلُ والسَّغِلُ كلّه السَّيِّئُ الغِذاء .

سئل النبيُّ صلى الله عليه وسلم عن ضالّة الإبلِ ، فقال : مالَكَ ولها ؟ معها حذاؤها(٦) وسِقاؤها تَرِدُ الماءَ وتأكلُ من الشَّجر حتى يأتيَها «ربُّها» .

سئل — عليه السّلام — عن ضَالّة الغنم ، فقال : هى لك أو لأخيكَ أو للذِّئب .

قيل له عليه السلام : فاللُّقَطَةُ ؟ قال : «تعرِّفُها سنة وتحصى وِكاءها ووِعاءها

---

(١) أدمى « بضم الهمزة وفتح الدال ، وسكنت للشعر » .

(٢) « المال الدثر » : الكثير الوافر و « تعبر أقوال » ، أى تبقى .

(٣) فى اللسان أن أدمى : أرض بظاهر اليمامة . وذكر ياقوت أقوالا كثيرة فى تعيين هذا الموضع منها ما يوافق ماورد فى اللسان . ومطرق : باليمامة أيضا .

(٤) البازل : الذى فطر نابه ، أى انشق بدخوله فى السنة التاسعة .

(٥) يلاحظ أن هذه الكلمة قد ذكرت فيما سبق .

(٦) يشير بقوله « معها حذاؤها » إلى أنها بعيدة المذهب قوية على المشى وقطع الأرض . تشبيها لها بالمسافر الذى معه حذاؤه وسقاؤه .

وعِفَاصها[١] وعَدَدَها ؛ فإن جاء صاحبها فأدِّها إليه» .

وقال أُبَيُّ بنُ كعبٍ : أصبتُ مائةَ دينارٍ على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : «احفظ عِفَاصَها ووِكاءَها وعَدَدَها فإن جاء صاحبُها فأَخْبَرَكَ بعددها وعِفاصِها ووكائها فأدِّها إليه وإلا عرِّفها سنة ، ثم استَمتِــع بها» .

قال عليّ بن الحسن : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان بقُفّ النخلتين[٢] قال له الأنصار : يا رسول الله ، هل لك فى السباق ؟ قال : نعم وهو يومئذ على النَّواضح[٣] — وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسير فى أُخْرَيات الناس ، وأُسامةُ بنُ زيدٍ على العَضْباء ناقةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو فى أوّلِ الناس — فقال : أين أُسامة ؟ فتنادى الناسُ حتى بلغ أُسامةَ الصَّوتُ ، فوَضَعَ السَّوطَ فى الناقة فأقبلتْ ، فلما دَنَتْ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنّ إخواننا من الأنصارِ قد أرادوا السّباق فأَنِخْ ناقتك حتى نرعو ، ثم علِّق الخِطامَ ثم سابقْهم ؛ ففعلَ واستبقوا ، فسبقتْ ناقةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجعل أسامةُ يكبّر ويقول : سبق رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، ورسولُ الله يقول : سَبَقَ أُسامةُ ، فلمّا أكثرَ من ذلك قال له : أقصِرْ يا أُسامةُ ، فإنّ إخواننا من الأنصار فيهم حياءٌ وحَفيظة .

(١٢) قال : وليس لشىء من الحيوانِ سَنامٌ إلا البعير ، ولبعضِ البَخاتِىّ سَنامانِ ، ولبعضِ البقرِ شىءٌ صغيرٌ على موضعِ الكاهِلِ . والجمل يبول إلى خلفٍ ،

(١) العفاص : وعاء من جلد يضع فيه المسافر نفقته .

(٢) القف : ما ارتفع من الأرض . ولم نجده مضافا إلى النخلتين فيما راجعناه من الكتب فلعل فى هذا الاسم تحريفا .

(٣) النواضح : الإبل التى يستقى عليها .

وكذلك الأسد . وقضيبُ الجمل من عَصَبٍ ، وقضيبُ الإنسانِ من لحمٍ وغُضروفٍ ، وقضيبُ الذّئبِ والثعلبِ من عظمٍ ، وقضيبُ ذَكَرِ الأرانب مِن عظمٍ على صورة الثُّقْب كأنّه نصفُ أُنبوبةٍ مشقوقة . وفى قلبِ الثّورِ عَظْم ، وربما وُجِد فى قلبِ الجملِ . والمرأةُ تَلِدُ من قُبُل ، والنّاقةُ من خَلْف . وزمانُ نَزْوِ الجمالِ فى (شَباط) . والإناثُ من الإبلِ تَحْمِلُ اثنىْ عشر شهراً وتَضَعُ واحداً وتَلْقَحُ إذا بلغتْ ثلاثَ سِنين ، وكذلك الذَّكَر ، ثم نُقيم الأنثى سَنةً ثم يُنزَى عليها .

وزعمَ صاحبُ المنطِق أنّ الجملَ لا يَنزو على أُمِّه ، وإن اضْطُرَّ كرِهه .

قال : وقد كان رجلٌ فى الدّهرِ السَّالفِ سَتَرَ الأمَّ بثوبٍ ثم أرسَلَ بَكْراً عليها ، فلما عرَفَ ذلك لم يُتِمَّ وقطع ، وحَقَد على الجَمّالِ فقتَله .

قال : وقد كان لملِكٍ فرَسٌ أنثى ، وكان لهـا أفلاء[1] ، فأراد أن تَحْمِلَ من أكرمِها ، فصَدَّ عنها وكرِهها ، فلمّا سُتِرت وَثَبَ فركِبها ، فلمّا رُفِعَ الثَّوبُ ورآها هرب ومرّ حُضْرًا[2] حتى ألقى نفسَه فى بعض الأوْدِيةِ فهلك ... ...[3]

هذا كلامُ أميرِ المؤمنين علىٍّ بن أبى طالبٍ كرَّم الله وجهه .

قال حُذيفةُ : كُن فى الفتنةِ كابنِ اللّبون ، لا ظَهْرَ فيُرْكَب ، ولا لبنَ فيُحلَب .

(١٣) قال ديوجانس : إنَّ المرأةَ تَلَقَّنُ الشَّرَّ من المرأة ، كما أنّ الأفعَى تأخذ السمَّ من الأصِلّة .

---

(١) الأفلاء : جمع فلو بكسر الفاء ، وهو المهر الذى لم يبلغ الفطام .

(٢) الحضر بالضم : سرعة العدو .

(٣) ورد فى « ب » مكتوبا على هامشها عند موضع هذه النقط ما يفيد أنه قد سقط من النسخة ثلاث ورقات .

وقال ڤيثاغورس : إنّ كثيراً من النّاسِ يرَون ٱلعمى ٱلذى يَعرضُ لِعينِ ٱلبدنِ فتأباه أنفسُهم ، فأمّا عمَى عينِ ٱلنّفسِ فإنهم لا يرَونه ولا تأباه أنفسُهم ، فلذلك لا يستحيون .

وقال أيضاً : كما أنّ ٱلذى يسلُك طريقاً لا يعرِفهُ لا يدرِى إلى أىّ موضعٍ يؤدّيه ، كذلك ٱلذى يسمع كلاما لا يعرِف ٱلغرضَ فيه لا يَربح منه إلّا التعب .

قيل لديوجانس : أيهما أوْلى ، طَلَبُ ٱلغِنَى ، أم طلَبُ ٱلحكمة ؟ فقال : للدّنيا الغِنَى، وللآخرة ٱلحكمة .

وقيل له : متى تَطِيب ٱلدّنيا ؟ قال : إذا تفلسَف ملوكُها ومَلَك فلاسِفتُها .

(١٤) فقال الوزير — أسعده الله — عندى أنّ هذا الكلامَ مدخول ، لأن ٱلفلسفة لا تصحّ إلا لمنْ رَفضَ ٱلدّنيا وفرّغ نفسَه للدارِ الآخرة ، فكيف يكونُ ٱلملِكُ رافضاً للدّنيا وقاليا لها ، وهو محتاجٌ إلى سياسةِ أهلِها والقيامِ عليها باجتلابِ مصالحِها ونفى مفاسدِها ، وله أولياء يحتاج إلى تدبيرهم وإقامةِ أبنيتِهم والتّوسعةِ عليهم ومُوا كلتِهم ومشارَبتِهم ومداراتِهم والإشرافِ على سرِّهم وعلانيتِهم ، والملِكُ أتعبُ من ٱلطبيبِ الذى يجمعُ معالجةً كثيرةً بضروبِ ٱلأدويةِ المختلفةِ والأغذيةِ المتباينة : هذا والطبيبُ فقيرٌ إلى تقديمِ ٱلنظَرِ فى نفسِه وبدنِه ، وفى ٱلأمراض والأعراض عن ظاهرِه وباطنِه ، ومن كان هكذا ومن هو أكثرُ منه وأشدّ حاجةً وعَلاقةً كيف يستطيع أن يكون مَلِكا وحكيما ؟ ! ولعلّ قائلا يظنّ هذا ممكنا ، ويكون المَلِكُ واعيًا فى ٱلحكمة بالدّعوى ، وقائما بالمُلْك على طريقِ الأوْلى ، وهذا إلى ٱلتباث ٱلأمر واختلاله واختلاطه فى المُلك والفلسفةِ

[أقرَبُ منه إلى إحكامِ الأصلِ وإثباتِ الفرع . قال : ولهذا] لم نجد نحن فى الإسلام من نظر فى أمر الأمّة على الزّهد والتّقى وإيثار البرّ والهدَى إلا عدداً قليلا، والمجوسُ تزعمُ أنّ الشريعةَ مُعرَّجةٌ عن المُلك ، أى الذى يأتى بها ليس له أن يُعَرِّج على المُلك ، بل له أن يَكِلَ المُلْكَ إلى من يَقُومُ به على أحكامِ الدِّين ، ولهذا قال مَلِكُنا الفاضل : الدِّين والمُلكُ أَخوان، فالدينُ أسٌّ ، والمُلكُ حارس ، فما لا أُسَّ له فهو مهدوم ، وما لاحارس له فهو ضائع .

فقلت له : هذا باب إن توزّع[1] القولُ فيه طال ، وإنْ رُمِىَ بالقصدِ جاز ، وللأئمة كلامٌ كثيرٌ فى الإمامةِ والخلافةِ وما يجرى مجرَى النّيابةِ عن صاحبِ الديانةِ على فنونٍ مختلفة ، وجُمَل مُتعدِّدة ، إلّا أنّ النّاظرَ فى أحوالِ النّاسِ ينبغى أن يكون قائما بأحكام الشريعةِ ، حاملا للصّغير والكبير ، على طرائقها المعروفة ، لأنّ الشّريعة سياسة الله فى الخلق ، والمُلكَ سياسةُ الناس للنّاس ، على أنّ الشريعة متى خلَتْ من السياسة كانت ناقصة ، والسياسةَ متى عَرِيَتْ من الشريعة كانت ناقصة ، والمَلِك مبعوث ، كما أنَّ صاحبَ الدِّين مبعوث ، إلا أنّ أحدَ البعثَين أخفَى من الآخر ، والثانى أشهرُ من الأوّل[2] . قال — أطال الله بقاءه — كنتُ أُحبُّ أن أَعلمَ من أين قلتَ : إن المَلِك مبعوث أيضا ؟ فإن هذه الكلمةَ ما ثبتتْ فى أذنى قطّ ، ولا خطرتْ لى على بال ؛ قلتُ : قال الله عز وجل فى تنزيله : (إنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً) . فعَجِبَ وقال : كأنّى لم أسمع بهذا قطّ .

(١٥) ذُكِر للإسكندَر سوءُ أحوالِ رؤساءِ مذهبِه لمّا كانَ أبوه احتاز أموالهم وسَلَبَ أحوالهم . فقال : يجب للآباء على الأبناء إزالةُ الذمّ عنهم ، [ومحوُ الإثم،

(١) فى (ا) «تنوزع» .
(٢) فى كلتا النسختين : «والأول أشهر من الثانى» .

وٱستعطافُ ٱلقلوبِ عليهم ، ونشرُ المحامدِ عنهم ؛ وأَمرَ بردِّ أموالهم عليهم ، وزاد فى الإِحسان إليهم . وقال : قد بَلَغَ من فَرْطِ شفقةِ ٱلآباء على ٱلأبناء أن يُسيئوا إلى أنفسهم لتكون ٱلإِساءةُ سبباً للإِحسان إلى أولادهم ، لأنّهم يرون أولادَهم كأنفسهم لأنهم من أنفُسِهم .

فقلت : أيها الوزير ، إنّى لأعجبُ من الإسكندرِ فى ٱلفعلِ ٱلرَّشيد وٱلقولِ السّديد ، فهذا ٱلمنصورُ أبو جعفر صاحبُ الشهامةِ والصَّرامةِ أَخَذَ من وجوهِ ٱلعراقِ أموالا بخواتيمِ أصحابها وأفقرَهم ، وجعلَها فى خزائنه بعد أن كتبَ على تلك ٱلخرائطِ والظّروفِ أسماء أهلِها ، ثمّ وصّى المهديَّ بردِّها على أصحابها بعد موته ، ووكَّد ذلك عليه ، وقال : يا بُنيَّ ، إنما أريدُ بهذا أن أُحبِّبَك إلى ٱلناس ، ففعل ٱلمهديُّ ذلك ؛ فانتشرَ له ٱلصِّيتُ وكثرَ ٱلدعاء وعَجَّت الأصوات ، وقال الناس : هذا هو ٱلمهديّ ٱلذى ورد فى الأثر . فقال : هذا عجَب .

وقال سُقرَاط : ينبغى لمن علم أَنَّ البدَنَ هو شىء جُعِلَ نافعاً للنفس مثلَ الآلة للصانع أنْ يطلُبَ كلَّ ما يصير البدنُ به أنفعَ وأوْفقَ لأفعال النفس التى هى فيه ، وأنْ يهرُبَ من كل ما يُصيِّرُ البدنَ غيرَ نافعٍ ولا موافق لاستعمال النفس له .

قال أُوميرُوس : لا ينبغى لك أن تؤثرَ عِلمَ شىء إذا عُيِّرْتَ به غَضِبْتَ ، فإنك إذا فعلتَ هذا كنتَ أنت القاذف لنفسك .

وقال دِيوجانِس : مِن القبيح أَن نتحرى فى أغذيةِ البدَن ما يصلُح له ولا يكون ضارًّا ، ولا نتحرَّى فى غِداء النَّفْس الذى هو العِلم لئلاّ يكون ضارًّا

وقال أيضاً : من القبيح أن يكونَ الملاّح لا يُطْلِقُ سفينته فى كلِّ ريح ، ونحن نُطلقُ أنفسَنا فى غير بحث ولا ٱختبار .

ذكر لنا أبو سليمان أن فيلسوفًا وَرَدَ مدينةً فيها فيلسوف، فوجَّه إليه المدَنىُّ كأسا مَلآى، يُشير بها إلى أن الاستغناء عنه واقعٌ عنده، فطرَح القادمُ فى الكأسِ إبرةً، يُعلمه أن معرفتَه تنفذُ فى معرفتِه.

وقال فيلسوفٌ يونانىّ: التقلُّبُ فى الأمصار، والتوسُّطُ فى المحامع[1]، والتصرُّفُ فى الصِّناعاتِ، واستماعُ فنونِ الأقوال، مما يزيد الإنسانَ بصيرةً وحكمةً وتجربةً وبقظةً ومعرفةً وعلمًا.

قال الوزير: ما البصيرة؟ قلتُ: لَحْظُ النفس الأمورَ. قال: فما الحكمة؟ قلت: بُلوغُ القاصية من ذلك اللحظ. قال: فما التجربة؟ قلتُ: كمالُ النفسِ بلِحاظ مالَها. قال: هذا حسن.

قال أنكساغورس: كما أن الإناء إذا امتلأ بما يسعُه من الماء ثم تُجْعل فيه زيادة على ذلك فاض وانصبّ، ولعله أن يَخْرُج معه شىء آخر؛ كذلك الذهنُ ما أمكنه أن يَضبطه فإنه يَضْبطُه، وإن طُلِبَ [منه] ضبطُ شىء آخر أكثرَ من وُسْعِه تَحَيّر، ولعلّ ذلك يُضيّعُ عليه شيئًا مما كان الذهن ضابطًا له، وهذا كلام صحيح، وإنّى لأتعجَّب من أصحابنا إذ ظنّوا وقالوا: إنّ الإنسانَ يستطيعُ حِفظ جميع فنونِ العلمِ والقيامَ بها والإبقاء عليها، ولو كان هذا مقدوراً عليه [لوُجد، و] لو وُجِد لعُرِف، ولو عُرِف لذُكِر، وكيف يجوز هذا وقلبُ الإنسانِ مُضغة، وقوّتُه مقصورةٌ، وانبساطُه مُتناهٍ، واقتباسُه وحفظُه وتصوّره وذكرُه محدودٌ؟ ولقد حدّثنى علىُّ بنُ المهدىّ الطبرىّ قال: قلتُ ببغداد لأبى بِشْر: لو نظرتَ فى شىء من الفقهِ مع هذه البراعةِ التى لك فى الكلام، ومع هذا

(١) فى كلتا النسختين: «والتوسط الجامع».

اللسان الذى تحيّر فيه كلّ خصم . قال : أفعلُ ، قال . فكنتُ أقرأ عليه بالنهار مع المختلفةِ الكلامَ ، وكان يقرأ علىّ بالليل شيئاً من الفقهِ ، فلمّا كان بعد قليل أقصرَ عن ذلك ، فقلت له : ما السّبب ؟ قال : والله ما أحفظُ مسئلةً جليلةً فى الفقهِ إلاَّ وأنسَى مَسئلةً دقيقةً فى الكلام ، ولا حاجةَ لى فى زيادةِ شىء يكونُ سبباً لِنقُصانِ شىء آخرَ منّى .

وسأل رجُلٌ آخرَ أن يُقرِضَه مالا ، فوعده ثمّ غدر به ، فلامهُ النّاسُ ، فقال : لأنْ يحمرَّ وجهى مرّةً أحبُّ إلىّ من أن يصفرّ مراراً كثيرة .

ووَلِىَ أريوس وِلايةً فقال له أصدقاؤه : الآن يظهرُ فضلُك . فقال : ليست الوِلايةُ تُظهرُ الرّجلَ ، بل الرّجلُ يُظهرِ الولاية .

وقال دِيُوجانِس . الدّنيا سوقُ المسافر ، فليس ينبغى للعاقِلِ أن يشترىَ منها شيئاً فوق الكفاف .

وقيل لاسطفانُس: مَنْ صَديقك ؟ قال : الذى إذا صِرْتُ إليه فى حاجةٍ وجدتُه أشَدَّ مُسارعةً إلى قضائها منّى إلى طلبها .

وقال أفلاطون : إن للنفس لذّتين : لذّةً لها مُجرّدَةً عن الجسد ، ولَذّةً مشارِكةً للجسد ، فأما التى تنفرد بها النفس فهى العِلمُ والحِكمة ، وأما التى تُشارك فيها البدنَ فالطعام والشراب وغيرُ ذلك .

وقيل لسُقْراط : كيف ينبغى أن تكون الدنيا عندنا ؟ قال : لا تستقبلوها بتمَنٍّ لها ، ولا تُتْبعوها بتأسّف عليها ؛ فلا ذلك مُجْدٍ عليكم ، ولاهذا راجعٌ إليكم .

وقال سُقْراط : القُنْيَةَ[1] مخدومة ، ومن خدم غيرَ نفسِه فليس [بحرّ] .

---

(١) فى كلتا النسختين : « القينة » ؛ وهو تحريف ؛ والقنية : ما يقتنى

وقال بعض ندماء الإسكندر له : إن فلاناً يسيء الثناء عليك ، فقال : أنا أعلم أن فلاناً ليس بشرِّير ، فينبغي أن يُنْظر هل ناله من ناحيتنا أمرٌ دعاه إلى ذلك ، فبَحَثَ عن حالِه فوجدَها رَثَّةً ، فأمر له بصلةٍ سنيَّة ، فبلغه بعد ذلك أنه يبسُط لسانه بالثناء عليه في المحافل ؛ فقال : أما ترون أن الأمر إلينا أن يقال فينا خيرٌ أو شرٌّ .

قيل لطيماثاوُس : لم صِرْتَ تسيء القول في الناس ؟ قال : لأنه ليس يمكنني أن أسيء إليهم بالفعل . وكان مرّة في صحراء ، فقال له إنسان : ما أَحسنَ هذه الصحراء ! قال : لو لم تَحْضُرْها أنت .

وقال عالوس : ما وجه الاهتمام بما إن لم يكن[1] أُجْزِئَ فَوْتُه ، وإن كان فالمنفعة به و بحصوره قليلة منقطعة .

وقال سُقْراط : ينبغي إذا وَعَظْتَ ألاّ تتشكَّل بشكل منتقمٍ من عَدُوٍّ ، ولكن بشكل من يَبْعِط أو يَكْوِي بعلاجه داءً بصديق له ، و إذا وُعِظْتَ أيضاً بشيء فيه صلاحُك ، فينبغي أن تتشكّل بشكل المريض للطبيب .

ركب مقاريوس في حاجة ، فمرّ بزِيمُوس وقد تعلّق به رجل يطالبه بمال اختدعه عنه وعليهما جماعةٌ من الناس ، وهو يسأله تنجيم ذلك المال عليه نجوما ليؤدّيه ، ويتضرّعُ أشدَّ التضرُّع . فقال مقاروس : ماطَلِبَتُك عند هذا الرجل ؟ فقال : أتاني يخدعني بالزُّهد والنُسُك عن مالي ، ووعدني أن يملأ بيتي ذهباً من صنعته ، فلم أزل في الاسترسال إلى ظاهره السليم حتى أفقرني باطنه السقيم . فقال له مقاريوس : إنَّ كلَّ مَنْ بَذَلَ شيئاً إنما يَبْذله على قَدْرِ وُسْعِه ؛ وكان زِيمُوس أتاكَ على حالِه التي هو عليها ، ولم يكن ليتّسع لأكْثَرَ مِنْ ذلك القَوْل ؛ وأمّا عَمَلُ الذّهب فبيِّن ظاهر ، لأنَّ فَقْرَهُ يَدُلُّ على عَجْزِه وضَعْفِه عنه ، ومن أَمَّلَ الغِنَى عند الفقير

(١) يلاحظ أن قوله : «يكن» هنا تامّة ، أي إن لم يوجد ؛ وكذلك قوله : «كان» الآتي.

فغايةُ مايُمْكِنُ أن يَبْلُغَه أن يَصيرَ مِثْلَه ؛ وآخِرُ ما يُؤَمَّلُ عند الفقير نَيْلُ الفَقْر . فقد أصَبْتَ ما كُنْتَ تُحِبُّ أن تَجِدَه عند زِيمُوس ؛ وهو حَظٌّ إن تَمَسَّكْتَ به لم يَغْلُ بما تَلِفَ مِنْ مالِك ، ولئن كان وَعَدَكَ أن يُفيدَكَ مالاً باطِلاً فلقد أفادَكَ معدِناً حقّاً ، من غير قصدٍ إلى نفعك . ثم أَقْبَل على زِيمُوس وقال له : ما أبعد شبه مَعْدِنِك من المَعادِنِ الطبيعيّة ! إنّ المعادِنَ تَلفِظُ الذَّهَب ، ومَعْدِنَكَ هذا يَبْتَلع الذهب ؛ ومَنْ جاوَرَ معْدِناً منها أغناه ، ومَنْ جاوَرَ مَعْدِنَك أفْقَرَه ؛ والمَعادِنُ الطّبيعيّة تُثْمِرُ من غير قَوْل ، ومعدِنُك تقول مِنْ غير إثْمار . فقال زِيمُوس : أيُّها الفاضل ، لئن عِبْتَنى فلَسْتُ بأوّلِ حكيمٍ لقِىَ من النّاسِ الأَذَى . فقال له : أجَلْ ، ولا آخِرِهِمْ ولا أوْسَطِهِمْ ، لـكنَّك من الجُهّالِ الّذين لَقِىَ الناسُ مِنْهم الأذَى .

(١٦) فقال — أعْلَى اللهُ قولَه — : فهل لهذا الأمر — أعْنِي الكيمياء — مَرْجوع ؟ وهل له حقيقة ؟ وما تَحْفَظ عن هذه الطائفة ؟

فكان الجواب ، أمّا يَحْيَى بنُ عَدِىّ — وهو أُستاذ هذه الجماعة — فكان فِى إصْبَعِه خاتَمٌ من فِضّةٍ يَزْعُمُ أنّ فِضّتَه عُمِلَتْ بين يديه ، وأنّه شاهَدَ عَمَلَها عِياناً ، وأنه لا يَشُكُّ فى ذلك .

وأمّا أصحابُه كابن زُرْعَة وابن الخمّار ، فذكروا أنّ ذلك تَمّ عليه من فعلٍ لم يَفْطِنْ له من بَعْضِ من اغترّه من هؤلاء المُحْتالِينَ الخَدّاعين .

وأما شيخنا أبو سليمان فحصلتُ من جوابه على أنّه ممكن ، ولم يَذْكر سبب إمكانِه ولا دليلَ حقيقته .

وأما أبو زيد البَلْخِىّ — وهو سيّد أهل المَشْرِق فى أنواع الحكمة —

فذكرَ أنّه مُحالٌ ولا أصْلَ له ، وأنّ حِكْمةَ الله تعالى لا توجبُ صحةَ هذا الأمر ، وأنّ صحّتَهُ مَفْسَدةٌ عامّة ، (وَاللهُ لا يُحِبُّ الفَسَادَ) .

وأمّا مِسْكوَيه — وها هو بين يديك — فيزْعُم أن الأمر حَقٌّ وصحيح ، والطبيعةُ لا تمنع من إعطائه ، ولكنَّ الصناعةَ شاقّة ، والطّريقَ إلى إصابة المِقْدار عَسِرة ، وجمعَ الأسرارِ صَعْبٌ وبعيد ، ولكنه غير مُمْتَنِع ؛ فقد مضى عُمْرُه فى الإكباب على هذا بالرىّ أيام كان بناحية أبى الفضل (١) وأبى الفتح ابنه مع رَجُل يُعْرَفُ بأبى الطَّيّب ، شاهَدْتُه ولم أحمد عَقْله ، فإنه كان صاحبَ وَسْوَاسٍ وكذبٍ وسَقَط ، وكان مخدوعاً فى أوّل أمره ، خادعاً فى آخر عُمره .

وأبيَنُ ما سمعتُه فى هذا الحديث أَنَّ الطبيعة فوق الصناعة ، وأنّ الصناعة دون الطبيعة ، وأن الصّناعة تتشبّه بالطبيعة ولا تكمل ، والطَّبيعةَ لا تتشبّه بالصناعة وتكْمُل ، وأنَّ الطبيعة قوّة إلهيّة ساريةٌ فى الأشياء واصلةٌ إليها ، عاملةٌ فيها بقدر ما للأشياء من القبول والاستحالةِ والانفعال والمواتاةِ ، إما على التّام ، وإما على النقصان . وقيل : إنّ الطبيعة لا تسلك إلى إبراز ما فى المادّة أبْعَدَ الطّرُق ، ولا تترُكُ أقْرَبَ الطُّرُق ، فلما كانت المعادِنُ هى التى تُعطى هذه الجواهرَ على قَدْرِ القابلات العُلويَّة والأشكال السماويّة والموادّ السُّفْلِيّة والكائنات الأرضيَّة ، لم يَجزْ أن تكون الصِّناعة مُساويةً لها ، كما لم يَجُزْ أن تكون مُستعليةً عليها ، لأن الصناعة بشريَّةٌ مستخرَجةٌ من الطبيعة التى هى إلهيَّة ، ولا سبيلَ لقُوَّةٍ بَشَريَّةٍ أن تنالَ قُوَّةً إلهيَّةً بالمساواة ؛ فأما بالتشبيه والتقريب والتَّلبيس ، فيُمكن أن يكون بالصِّناعة شىء كأنَّهُ ذَهَبٌ أو فضّة ، وليس هو فى

(١) يريد أبا الفضل بن العميد .

الحقيقة ، لا ذَهَبٌ ولا فِضَّة ؛ وإذا كان ظُهور القُطن بالطَّبيعة وظهورُ الثوْبِ بالصِّناعة فليس لهذه أن تَعْرِض لهذه ، [ولا لهذه أن تَعرِض لهذه] ؛ والأمور مَوْزُونة[1] ، والصناعات متناهية ؛ فإن ادُّعِيَ فى شئ من الصناعة مايزيد عليها حتى تكونَ كأنها الطبيعة ، احتيج إلى بُرْهانٍ واضح ، وإلى عِيان مصرِّح ، لأنَّا نعلم أنَّه ما من صناعةٍ ولا علمٍ ولا سياسةٍ ولانِحْلَةٍ ولا حالٍ إلا وقد حُمِل عليها ، وزِيدَ فيها وكُذِبَ من أجلها بما إذا طَلَبْتَ صحّته بالبرهان لم تَجِد ، أو بالعِيان لم تقدِر .

(١٧) فأما أصحابُ النُّسُك ومن عُرِف بالعبادة والصَّلاح ؛ فقد ادُّعِيَ لهم أن الصُّفر يُصيَّر لهم ذهباً ، وشيئاً آخر يصيرَّ فضة ، وأن الله عزَّ وجلَّ يُزَلْزِلُ لهم الجبل ويُنْزِل لهم القَطْر ، ويُنبت لهم الأرض ، وغيرُ ذلك مما هو كالآيات للأنبياء الذين يأتون من قِبَل الله بالكُتُب والوصايا والأحكام والمواعظ والنصائح ، وربما يسمِّى كثيرٌ من الناس ما يَظهرُ للزُّهَّاد والعُبَّاد من هذا الضرب كَرامات ولا يسمِّيها معجزات ، والحقائق لا تَنْقَلِبُ بالأسماء ، فإن المسمَّى بالكرامةِ هو المسمَّى بالمعجزة والآية .

والخَوضُ فى هذا الطَّرَفِ قديم ، وفَصْله فى الحقِّ شاقٌّ ، والتنازُعُ فيه قائم ، والظَّنّ يَعملُ عملَه ، واليقين غيرُ مظفور به ، ولا موصولٍ إليه ؛ والطبيعةُ قد أوْلعت الناسَ بادِّعاء الغرائب ، وبَعَثَتْهُمْ على نُصْرَتها بالوَفْق والخَرْق ، والتسهيل واللَّجاج ، والمواتاة والمَحْك ، ولله فى طىِّ هذا العالَمِ العُلوىّ أسرارٌ وخفايا وغيوبٌ ومَكامنُ لا قوّة لأحد من البَشَر بالحِسِّ ولا بالعقل أن يحوم حولها ، أو يبلغَ عُمْقَها ، أو يُدْرِكَ كُنْهَها ، ومن تَصَرَّفَ عَرَف ، ومن عَرَفَ سَلِمَ ، والسلام .

(١) كذا وردت هذه الكلمة فى كلتا النسختين .

(١٨) وحكى لنا أبوسليمان أنَّ أرِسطوطاليس كتب إلى رجل لم يُشَفِّعْه[1] فى رَجُل سأله الكلامَ له فى حاجة : إن كنتَ أرَدْتَ ولم تَقْدِرْ فمعذور ، وإن كنتَ قَدَرْتَ ولم تُرِدْ فسوف يجىء وقتٌ تريد ولا تَقْدر .

وقال بعض الحكماء : لا تُرَفِّهوا السِّفْلة فيعتادوا الكسَلَ والراحة ، ولا تجرِّئوهم فيَطلُبوا السَّرَفَ والشَّغَبَ ، ولا تأذنوا لأولادِهم فى تعلُّمَ الأدب فيكونوا لرداءة أصولهم أذْهَنَ[2] وأغْوَصَ ، وعلى التعلّم أصبَر ؛ ولا جرم فإنهم إذا سادُوا[3] فى آخر الأمر خرَّبوا بُيُوتَ العِلْيَةِ أهل الفضائل .

(١٩) وقال فيلسوف : للنفس خَمْسُ قُوًى : الحسّ والوَهم والذِّهْن والاُختبار والفكر .

فأما الحِسُ فلَحاقُ الأشياء بلا فحص ، ولا يُحتاج فى ذلك اللَّحاقِ إلى شىء آخر ، إلا أن يكون ممنوعاً بمانع ، وذلك إذا وجد شيئاً أبيض حَكم بأنه أبيض بلا فِكْر ولا قياس .

وأما الوهم ، فإنه يقع على الأشياء بتوسُّط الحسِّ .

وأما الاُختبار فيوافق الفكر ، كقولك : النفسُ لا تموت ، فهذا قولٌ اختبارِىٌّ بعد الفكْر ، وإن كان هذا هكذا فالاختبار ليس بقياس ، ولكنه أُفُقُ القياس.

وأما الذِّهن فإنه لا يهجم على أوائل الأشياء .

وقال آخر شبيهاً بهذا الكلام ، ولا بأسَ أن يكون مضموماً إليه ، ليكون شمل الفائدة أكثرَ نظاماً وأقرَبَ مَراماً .

---

(١) يشفعه : يقبل شفاعته

(٢) أذهن ، أى أجود ذهناً ، وفى (ا) « أدهى » ، وفى ب « أذهب » ، وهو تصحيف فى كلتيهما .

(٣) فى كلتا النسختين : « صاروا » .

قال : ليس للحَواسِّ والحركات فِعْلٌ دون أن تبعثَها القوّة المميِّزة ، فلذلك لا يُحسُّ السَّكْرَان ولا النائم ، وكذلك أيضاً البهائم فإنها لا تصيحُ إلا بعد أن يَعْرِض فى فِكْرها شىء ، ولا تتحرَّكُ إلا بأنبعاث القوّة المميّزة .

ولكل واحد من الحيوان ثلاثةُ أرواحٍ فى ثلاثة أعضاء رئيسَة : نفسيّةٌ فى الدماغ ، وحيوانيّة فى القلب ، وطبيعيّة فى الكبد .

وفى كل واحد منها قوّةٌ مميِّزةٌ بها يتم عَمَلُه ، فالتى فى الدِّماغ هى العقل المميِّز الحارس للبدن ، ومنه يَنبعث الحِسُّ والحركة ، [والتى] فى القلب تنبعث منها الحرارة الغريزية فى جميع البدن ؛ وزعموا أن تلك الحرارة هى الرُّوح ؛ والَّتى فى الكبد هى موضع الهَضْم والنضج ، وهى التى تنضج الطعام وتغيّره وتحيله دماً وتوزِّعُ فى كلِّ عضو ما هو ملائمٌ له ، وبالجاذبة تَجْذِبُ ، وبالحابسة تَحبِس ، وبالهاضمة تَهضِم ، وبالدَّافعة تدفع .

فأما الدِّماغ فينقسم ثلاثة أقسام يَحْجُز بينها أَغْشِيَة ، أحدُها فى مقدَّمِ الرأس مَوْضع التخيُّل ، والثانى فى وسط الرأس مَوْضع العقْلِ والفِكْرِ والتمييز ، والثالث فى مؤخَّر الرأس موضعُ الحفظِ والذِّكر والقبول : فكلٌّ واحد مما ذكرنا يخدمُ الآخر ، وإن ضَعُفَ أحدُها ضَعُف لضَعْفه الآخَر ، وباعتدالهنَّ وسلامَتِهنّ قِوامُ البدَنِ والنَّفْس .

ولكلٍّ واحدٍ منها آلةٌ بها يستعين على خِدْمةِ الآخر .

قال : فكما أن الرَّحَى إذا نقصتَ شيئاً منها أو زدتَ أُفسِد الطحن ؛ إمّا بزيادة أو نقصان ، كذلك سائرُ خَدَمه وآلاته .

وقال : الدِّماغ مَسكَن العَقْل ، وخَدَمُه الحسُّ والحركة ؛ والقلب مَسْكن

الحرارَة الغريزية ، وخَدَمُهُ العُروق الضَّوارِب ؛ والـكَبِد مَسكن النُّضْج والهضم ، وخَدَمُها العُروقُ غيرُ الضَّوارب .

وقال : النار تُحرِق ، فإذا كانت موجودةً فالدُّخان والرَّماد موجودان ، والدُّخان رَمادٌ لطيف ، والرَّمادُ دخانٌ كثيف .

وقال أبو سليمان : ذكر بعضُ البحّاثين عن الإنسان أنَّه جامعٌ لكلِّ ما تفرَّقَ فى جميع الحيوان ، ثم زاد عليها وفُضِّل بثلاثِ خِصالٍ : بالعقل والنظر فى الأمور النافعة والضَّارّة ، وبالمنطق لإبراز ما استفاد من العقل بوساطة النظر ، وبالأيدى لإقامة الصِّناعاتِ وإبْرَازِ الصُّوَر فيها مماثِلةً لما فى الطبيعة بقوّة النفس .

ولمَّا انتظَم له هـذا كلُّه حَمعَ الحِيَلَ والطَّلَبَ والهَرَب والمَكايدَ والحذَر ، وهدا بَدَل السُّرْعة والخِفّة التى فى الحيوان ، واتخذ بيده السلاح مكان الناب والمِخْلَب والقَرْنِ ، واتّخذ الجُنَن لتكون وقايةً من الآفات ، والعَقْلُ يَنْبُوع العلم ، والطبيعة ينْبُوع الصّناعات ، والفِـكْرُ بينهما قابِلٌ منهما ، مُؤدٍّ من بعض إلى بعض ، فصوابُ بَديهة الفِـكْر من صِحَّة العقل ، وصوابُ رَوّية الفِكر من صِحّة الطباع .

(٢٠) وقال أبو العباس : الناسُ فى العِلم على ثلاثِ درجات ، فواحد يُلهَم فيُعَلَّمُ فيصير مَبْدأ ، والآخر يتعلّم ولا يُلهَم فهو يؤدِّى ماقد حَفِظ ، والآخَر يُجمع له بين أن يُلهَم وأن يتعلَّم . فيكون بقليل ما يتعلّم مُـكثِراً بقوّة ما يُلهَمُ .

وقال: الإنسان بين طبيعته — وهىَ عليه — ونفسِه — وهى له — منقَسِمٌ ؛ فإن اقتبَسَ من العَقْل قوّى نُورُه ما هو له من النَّفْس ، وأَضْعَفَ ما هو عليه من الطبيعة ، فإن لم يكن يَقْتَبِس بقِىَ حيرانَ أو مُتهوِّراً .

وقال سُقراط : الكلام اللطيفُ ، ينْبُو عن الفَهم الكثيف .

وحَكَى لنا أبو سليمان قال : قيل لفيلسوف : مابالُ المريض إذا داوَاهُ الطبيبُ ودَخل عليه فَرِح به وقَبِل منه وكافأه على ذلك ، والجاهلُ لا يفعَل ذلك بالعالم إذا عَلّمه وبَيَّنَ له ؟ فقال : لأنَّ المريضَ عالِمٌ بما عند الطبيب ، وليس الجاهِل كذلك ، لأنَّه لا يَعْلمُ ما عند العالم .

وقال دِيوجانس لصاحبه : أما [نعْلَمَ] أنَّ الحمامَ إذا كان سَمائيًّا كان أغْلى ثمناً ، وإذا كان أرْضِيًّا كان أقلَّ ثمناً[1] .

قال — أبقاه الله — هذا مَثَلٌ فى غاية الحُسْن والوُضوح .

[وقال ديوجانس[2] : المأكُول للبدن ، والموْهوب للمعاد ، والمحفوظُ للعدوّ .

وقال فيلسوف : التهاونُ بالسير أساسٌ للوُقوع فى الكثير .

وقال أفلاطون : مَثَلُ الحكيم كَمثَل النملة تجمَع فى الصيف للشتاء ، وهو يجمع فى الدنيا للآخرة .

وقال فيلسوف : من يصف الحكمةَ بلسانه ولم ينَحلَّ بها فى سرّه وجهره فهو فى المثَل كرَجُل رُزِق ثوباً فأخذ بطرَفه ولم يَلبَسه .

وقال السيد المسيح : إن استطعتَ أن تجعلَ كنزَك حيث لا أكله السُّوس ، ولا تدركه اللّصوص ، فافعل .]

قال فيلسوف : إذا نازعك إنسانُ فلا تُجِبْه ، فإنّ الكلمة الأولى أُنْثى وإجابتَها فَحْلُها ، وإن تركتَ إجابتَها بَترْتَها وقَطَعْتَ نَسْلَها ، وإن أجَبْتَها

(١) يلوح لنا أن فى هذه الفقرة نقصاً سقط من الناسخ فى كلتا النسختين .

(٢) آخر هذه الزيادة التى نقلناها عن ب بعض كلمات مطموسة لم نستطع تمييزها ، فلم نثبتها ، فانظرها فى هامش الورقة رقم ٢٠٤ من هذه النسخة .

أَلْقَحَتْها ؛ فكم من وَلَدٍ يَنْمُو بينهما فى بطنٍ واحد .

وقال فيلسوف : إنَّ البعوضةَ تَحْيا ما جاعت وإذا شَبِعَتْ ماتت .

وقال ديوجانس : إن تَكُنْ مِلْحًا يُصْلِح ، فلا تكن ذُبابا يُفْسِد .

وقيل لديوجانس : مِن أين تأكل ؟ فقال : مِنْ حيث يأكلُ عبدٌ له رَبٌّ .

وقال ديوجانس : كن كالعروس تُرِيد البيتَ خاليا .

قيل لأَرِسْطوطاليس : إنَّ فلاناً عاقِلٌ . قال : إذاً لا يفرح بالدنيا .

وقيل لفيثاغورس : ما أَمْلكَ فلانا لنفسه ! قال : إذاً لا تَصْرَعُهُ شهوَتُه ، ولا تَخْدَعُه لَذَّتُه .

وقيل لأسقلبيوس : فلانٌ له همَّة . قال إذاً لا يَرْضى لنَفْسه بدون القَدْر .

ومَدَح رجل ثيُودوروس على زُهْده فى المال قال : وما حاجتى إلى شىء البَخت يأتى به ، واللؤْمُ يحفَظُه ، والنفقةُ تُبَدِّدُه ، إنْ قلَّ غَلَبَك الهمُّ بتكثيره ، وإن كثُر تقَسَّمكَ فى حِفْظِه ، يَحْسُدُكَ من فاتَه ما عندَك ، ويَخْدَعُكَ عنه من يَطْمَع فيه منك .

وقال سُقراط : ما احِبُّ أن تكون النفسُ عالمةً بكل ما اعِدَّ لها ؛ قيل : ولِمَ ؟ قال : لأنها لو عَلِمتْ طارت فَرَحاً ولم يُنْتَفَعْ بها .

وقال ديوجانس : القلبُ ذو لطافة ، والجسمُ ذو كَثافة ، والكثيفُ يَحفَظُ اللطيفَ كضَوْءِ المِصْباح فى القِنْديل .

وقال افلاطون : العِلمُ مِصباحُ النفس ، ينْفى عنها ظُلْمةَ الجهل ، فما أمْكنك أن تُضِيف إلى مِصباحِك مصباحَ غيرك فافْعلْ .

قال أبو سليمان : ما أحسَنَ المِصباح إذا كان زجاجُه نقيًّا ، وضوءه ذكيًّا ، وزَيْتُه قوِيًّا ، وذُبالُه سَوِيًّا .

قيل لسقراط : ما أَحْسَنُ بالمرء أن يتعلّمه فى صِغره ؟ قال : ما لا يَسعُه أن يَجْهَلَه فى كِبَرِه .

قال أبو سليمان : ومن هاهنا أَخَذَ مَنْ قال : يَحْسُن بالمرء التعلُّمُ ما حَسُنَتْ به الحيـاة .

قيل لهوميروس : ما أَصْبَرَكَ على عَيْبِ الناسِ لك ! قال : لأنّا اُستوَيْنا فى العَيْب ، فأنا عندهم مِثْلُهم عِنْدِى .

وقيل للإسكندر : أىّ شىء أنتَ به أسَرُّ ؟ . قال : قُوَّتى على مكافأة من أَحْسَنَ إلىّ بأَحْسَنَ مِن إحسانه .

[وقال ديوجانس : إنّ إقبالك بالحديث على مَن لا يَفهم عنك بمنزلةِ من وَضع المائدةَ على مَقْبَرةٍ] .

ورأى دَيُوجانِس رجلاً يأكل ويتذرّع[1] ويُكْثِرُ ، فقال له : يا هذا ، ليست زيادة القوّة بكثرة الأَكْل ، وربمـا وَرَدَ على بَدنك من ذلك الضررُ العظيم ، ولـكنَّ الزيادَة فى القوّة بجودة ما يقبل بدنُك منه على الملاءمة .

وقال ديوجانس : الذهبُ والفضّة فى الدار بمنزلة الشّمس والقمر فى العالَم .

قال أبو سليمان : هذا مليح ، ولـكن ينبغى أن تَبْقَى الشمس والقمر فإنهما يُكسفان فيكونان سبباً لفسادٍ كثير ، ويذوبان[2] ويُحْمَيان فيكونان ضارَّيْن .

وقال أفلاطون : موت الرؤساء أصلحُ من رآسة السِّفْلة .

وقال : إذا بخل المَلِكُ بالمـال كثر الإرجاف به .

وقال سولون : العلمُ صغيرٌ فى الـكَمِّيَّة ، كبيرٌ فى الـكيفيّة .

---

(١) يتذرع ، يكثر ويفرط . (٢) ويذوبان ، أى الذهب والفضة .

وقال أبو سليمان : يعنى أن القليل منه إذا استعملتَه على وجهه كان له إتاء ونفع فائض وَدَرٌّ سائحٌ ، وغايةٌ محمودةٌ ، وأثَرٌ باق . وهذه كلُّها كيفيّاتٌ من تلك الكَمّيّة .

وقال أفلاطون : لا يَسُوسُ النفوسَ الكثيرةَ على الحقِّ والواجبِ من لا يُمْكِنُه أن يَسُوسَ نفسَه الواحدة .

وقال سُقْراط : النَّفْس الفاضِلَةُ لا تَطغَى بالفَرَح، ولا تجزعُ من التَرَح ، لأنها تنظر فى كلِّ شىء كما هو ، لا تسلُبُه ما هوَ له ولا تُضِيفُ إليه ما ليس منه ؛ والفرَحُ بالشىءِ إنما يكون بالنَّظَر فى محاسِنِ الشىء دون مساوئه ، والتَّرَحُ إنما يكون بالنظر فى مساوئ الشىءِ دون محاسِنه ؛ فإذا خَلَصَ النظرُ من شَوْبِ الغلط فيما يُنْظَر فيه انتفى الطُّغْيَان والجزع ، وحَصَلَ النظامُ وربع[(١)] .

قال دِيُوجانس : ينبغى للإنسان أن يَنْظُر فى المرآة ، فإن كان وَجْهه حَسَناً اُستَقْبَحَ أن يُضِيفَ إليه فِعلاً قبيحاً ، وإن كان وجهه قبيحاً اُمْتَعَضَ أن يضيف قبيحاً إلى قبيح حتّى يتضاعَفَ القُبْح .

وقال إبقراط : منزلة لطافة القَلْب فى الأبدانِ بمنزلة لطافة الناظر فى الأجفان.

وقال : للقَلْب آفتان : وهما الغمُّ والهمُّ ، فالغمُّ يَعْرِض منه النَّوْم ، والهمّ يعرض منه السَّهَر ، وذلك أن الهمَّ فيه فكرٌ فى الخوْفِ مما سيكون ، فمنه يَغْلِبُ السَّهر ؛ والغمَّ لا فكرَ فيه ، لأنّه إنما يحدُث لما قد مضى وكان .

وقال أفلاطون : من يصحب السلْطانَ فلا يَجْزَعْ من قسوته ، كما لا يَجْزَع الغوّاصُ من مُلُوحة البَحْر .

قال أبو سليمان : هذا كلامٌ ضرُّه أكثرُ مِنْ نَفْعه ، وإنّما نفَّقه صاحبُه

(١) ربع ، أى ثبت ودام .

بالمِثال ، والمِثالُ يَسْتَجيب للحقِّ كما يَسْتَجيب للباطل ، والمعوَّل على ما ثَبَت بالدّليل ، لا على ما يُدَّعَى بالتَّمثيل ، وقد يَجبُ أن يُجْتَنَبَ جانبُ السُّلطان بغاية لاُستطاعة والإمكان ، إلا إذا كان الدهرُ سليما من الآفات الغالبة . فقال له الأندلسيّ : وما صورةُ الزمان الخالى من الآفات ؟ فقال : أن يكون الدينُ طَرِيًّا[1] ، الدولة مقبلة ، والخصْبُ عامًّا ، والعِلْم مطلوبا ، والحكمة مَرْغوبا فيها ، والأخلاق طاهرة ، والدعوة شاملة ، والقلوبُ سليمة ، والمعامَلات متكافئة ، والسياسة مغروسة ، والبصائر متقاربة . فقال . هذا لو صَحَّ لاُرتَفعَ الكونُ والفساد اللذان وهما سوسُ هذا المكان ، فقال : غلطت يا أبا عبد الله ، فإن الكونَ والفسادَ يكونان على حاليهما ، ولكنّهما يقعان على مَعْلومَيْن للصورة الثابتة ، والسياسة العامّة الغالبة ، كأنك لا تحس بالفرق بين زمان خِصْب الأرض وجَدْبها ؛ وكما أنَّ للأرض خِصْبا وجَدْبا ؛ كذلك للأحوال والأديان وللدُّوَل صلاحٌ وفساد ، وإقبالٌ وإدبار ، وزيادةٌ ونُقْصان ؛ ولو كان ما خِلْتَه لازما ، لكنّا لا نَتَمَنَّى مَلِكا عادلا ، ولا سائساً فاضلا ، ولا ناظراً ناظما ، ولا مدبِّراً عالماً ؛ وكان هذا لا يُعْرَف ولا يُعْهَد ، ويكون فى عُرْضِ المُحال كَوْنُه ووِجْدانُه ؛ وليس الأمر هكذا فقد عَهِدْنا مِثْلَ أبى جَعْفر بسجستان ، وكان والله بَصيراً خبيراً ، عالماً حكيما ، يَقِظًا حَذِراً ، يَخْلُقُ ويَفْرِى ، ويَرِيشُ ويَبْرِى ، ويَكْسو ويُعْرِى ، ويُمْرِضُ ويُبْرِى ، وهكذا مِثْلُ أبى جَعْفَر بالأمْسِ مَلِك العِراق فى حَزامَتِه وصَرامَتِه وقيامِه فى جميع أُمورِه ، بنَظَرِه وتدبيره ؛ وكذلك قد عهِد الناس قبلَنا مِثْلَ هذا ، فلِمَ يَقع التعَجُّبُ مِنْ شىء عليه مَدارُ الليل والنهار .

وقال ديوجانس لصاحب له : اُطْلُب فى حياتِكَ هذه العلمَ والمالَ تَمْلِكْ بهما

(١) طريا : يريد غضًّا ناصرا .

الناس ، لأنك بين الخاصّة والعامّة ، فالخاصّة تعظِّمك لفضْلِك ، والعامّة تعظِّمك لمالِك[١] .

وقال أفلاطون : إنَّ الله تعالى بقَدْر ما يُعْطِى من الحِكْمَة يَمْنَع الرِّزْقَ ؛ قال أبو سليمان : لأنَّ العِلْمَ والمالَ كضرَّتيْن قلَّما يَجْتَمِعان ويَصْطَلِحان ، ولأنَّ حَظَّ الإنْسَان من المال إنما هو مِنْ قَبيل النَّفْس الشَّهَوِيَّة والسَّبُعيّة ، وحَظَّه من العِلْمِ إنما هو من قَبيل النَّفْسِ العاقِلة ، وهٰذان الحَظّان كالمتعانِدَيْن والضِّدَّين . قال : فيجب على الحصيف والمميِّز أن يعلم بأن العالِم أشرَفُ فى سِنْخِه وعُنْصُرِه ، وأوّلِه وآخِرِه ، وسَفَرِه وحَضَرِه ، وشهادَتِه [ومَغيبه[٢]] من ذى المال ؛ فإذا وُهِبَ له العِلْمُ فلا تأْسَ على [المال الذى يُجْزِئُ منه اليسير ، ولا يُلْهِبْ نفسه على] فوْتِه حَسْرَةً وأسَفاً ؛ فالعِلْمُ مُدبِّر ، والمالُ مُدبَّر ؛ والعِلْمُ نَفْسِىّ ، والمالُ جَسَدِىّ ، والعِلْمُ أكثرُ خُصوصيّةً بالإنسان من المال ، وآفات صاحب المال كثيرةٌ وسريعة ، لأنّك لا ترَى عالماً سُرِق عِلْمُه وتُرِك فقيراً منه ؛ وقد رأيتَ جماعةً سُرِقَتْ أموالُهم ونُهِبتْ وأُخِذَتْ ، وبَقِىَ أصحابُها مُحتاجين لا حيلةَ لهم ؛ والعِلْمُ يزْكو على الإنفاق ، ويَصْحَب صاحبَه على الإمْلاق ؛ ويَهْدِى إلى القَناعة ، ويُسْبِلُ السِّتْرَ على الفاقة ؛ وما هكذا المال .

(١) عبارة « ب » فالخاصة تفضلك بما تعلم ، والعامة تعظمك بما تملك .
(٢) لم ترد هذه الكلمة فى كلا الأصلين .

الليلة الثامنة عشرة(١)

وقال مرّةً : تعالَ حتَّى نجْعَلَ ليلَتنا هذه مُجونيّة ، ونأخذَ من الهَزْلِ بنصيب وافر ، فإنَّ الجِدَّ قد كَدَّنا ، ونالَ مِن قُوانا ، وملأَنا قَبضاً وكَرْباً ، هاتِ ماعِنْدَكَ ؛

قلتُ : قال حَسْنونُ المَجْنون بالكوفة يوماً — وقد اجتمع إليه المُجّان يَصف كلُّ واحد منهم لذَّات الدُّنيا — فقال : أمّا أنا فأصِفُ ماجَرَّبْتُه ؛ فقالوا : هات ؛ فقال الأمْنُ والعافية ، وصَفْعُ الصُّلْع الزُّرْق ، وحَكُّ الجَرَب ، وأكلُ الرُّمان فى الصَّيف والطِّلاء فى كلِّ شهرين ، وإتيان النِّساءِ الرُّعْن والصبيانِ الزُّعْر(٢) ، والمَشْى بلا سَراويل بين يَدَىْ من لا تَحْتَشِمُه ، والعَرْبَدَة على الثقيل ، وقلّة خِلاف من تحبُّهُ ، [والتَّمَرُّسُ(٣) بالحُمَق] ومؤاخاةُ ذَوِى الوفاء ، وتركُ معاشرة السِّفْلة وقال الشاعر :

أَصْبَحْتُ من سُفْلِ الأنامِ إذ بِعْتُ عِرْضِى بالطَّعامِ
أَصْبَحتُ صَفْعاناً(٤) لَئِيـ مَ النَّفسِ من قومٍ لئامِ
فِى أُسْتِ أُمِّ رَبَّاتِ الحِيا مِ ومن يَحِنُّ إلى الحِيـامِ

(١) هذا العد حسبما هو وارد فى (١) وقد سبق لنا استظهار غير ذلك فى الحاشية رقم من صفحة ٢٧ فانظرها . ويلاحظ أن المؤلف قد أتى فى هذه الليلة ببعض من المجون السا والنوادر المبتذلة ، ولولا الأمانة العلمية والإخلاص للتاريخ لحذفنا أكثرها واكتفينا بما لط ورق ولم ينب عنه الذوق . على أن المؤلف قد اعتذر عن ذلك فى آخر الليلة ص ٦٠ مستـ إلى أقوال بعض الصحابة

(٢) الزعر : جمع أزعر ، وهو الذى لا شعر له .

(٣) فى الأصل « والتمرى » ؛ وهو تحريف إذ لا يناسب معناه سياق ما يأتى بعـ والتمرس بالحمق الاحتكاك بهم لإظهار ما عندهم من الحماقة تفكها بهم .

(٤) صفعاناً ، أى يصفع من الناس لذلته وخسته .

نفسى تحن إلى الهلا م[١] الموت من دون الهُلام

مِن لَحْمِ جَدْىٍ راضِعٍ رَخْصٍ[٢] المفاصِلِ والعِظامِ

هــذا لأولاد الخَطا يا والبَغـايا والحَرامِ

حَىٍّ القُــدورَ الرَّاسِيا تِ وإن صَمَمْنَ عن الكَلامِ

وقِصاعَهُنَّ[٣] إذا أتيـ نَكَ طافحاتٍ بالسَّلامِ

لَهْفِى على سِكْبَاجَةٍ[٤] تَشْفِى القُلوبَ من السَّقامِ

يا عاذلى أسْرَفْتَ فى عَذْلِ الخَليعِ المُستَهامِ

رَجُـلٌ يَعَضُّ إذا نَصحـ تَ له على فأسِ اللِّجامِ[٥]

دَعْ عَذْلَ من يَعْصِى العَذُو لَ ولا يُصيخُ إلى المَلامِ

خَلَعَ العِـذارَ وراحَ فى ثوب المَعاصِى والأثامِ

شَيْخٌ يُصَـلِّى قاعِدًا ويَنيكُ عَشْراً مِن قِيامِ

ويَعافُ نَيْكَ الغانِيا تِ ويَشْتَهِى نَيْكَ الغُلامِ

وتَراهُ يُرْعَدُ حين يُذ كَرُ عنده شَهْرُ الصِّيامِ

خوفاً من الشَّهْرِ المعـذِّ بِ نَفْسَه فى كلِّ عامِ

سَلِسُ القِيـادِ إلى التَّصا بى والمَلاهِى والحَرامِ

مَن للمُروءةِ والفُتُـوَّة بعد مَوْتِى والنِّدامِ

مَن للسَّماحِ وللرِّما حِ لَدَى الهَزاهِزِ والحُسامِ

---

(١) الهلام : مرق السكباج يبرَّد ويصفَّى من الدهن .

(٢) رخص المفاصل : ليّنها .

(٣) جعل ما فى القصاع من الثريد واللحم كأنه تحية وتسليم على من تقبل عليه .

(٤) السكباجة : مرق يعمل من اللحم والخل ؛ وهو فارسى معرب .

(٥) فأس اللجام : الحديدة القائمة فى حنك الدابة .

مَن لِلِّواط وللحُلا قِ(١) وللمُلِمّات العِظام

كان محمّدُ بنُ الحسن الجُرْجانىّ متقعّرا فى كلامه ، فدخَلَ الحمّامَ يوماً ، فقال للقيّم : أين الجُلَيْدَة التى تسلخُ بها الصَّويطةَ(٢) من الإخْقيق ؟ قال : فصفع القيّمُ قفاه بجلدة النَّوْرة وخرج هارباً ، فلما خرج من الحمّام وَجّه إلى صاحبِ الشُّرْطة ، فأخذ القيِّمَ وحَبَسَه ، فلما كان عِشاءُ ذلك اليوم كَتبَ إليه القيِّمُ رُقْعَةً يقول فيها : قد أَبْرَمَنِى المَحْبوسون بالمَسْئلةِ عن السَّبَبِ الذى حُبِسْتُ له ، فإمّا خَلّيْتَنِى وإما عرّفْتَهم . فوَجّهَ مَنْ أَطْلَقَه ، واُتصل الخبرُ بالفتح ، فحدّثَ المتوكّلَ ، فقال : ينْبغى أن يُغْنَى هـذا القَيِّمُ عن الخِدْمَةِ فى الحَمّام . وأمَرَ له بمـائتى دينار .

قال(٣) : وكان بالبصرة مخنّثٌ يَجْمَعُ(٤) ويَعْشَق بعضَ المهَالِبة ، فلم يزل المخنّثُ به حتى أَوْقَعه ، قال : فلَقِيتُه من غَدٍ فقلت له : كيف [كانت وقعة الجُفْرةِ(٥) عندكم البارحة ؟ فقال : لمّا تدانت] الأشخاص ، ورَقّ الكلام ، والتفّت الساقُ بالساق ،

(١) الحلاق : قله شبع الأتان والمرأة من إتيانهما .

(٢) الضويطة : الحمأة فى أصل الحوض . والإخقيق : الشق فى الأرض . فلعله أراد الجليدة التى يزال بها الوسخ من الجسد (مجازا) . وفى كلتا النسختين « الطوطة من الاحقيق » ؛ وهو تصحيف ؛ إذ لم نجد له معنى يناسب السياق ؛ فلعل الصواب ما أثبتنا .

(٣) يلاحظ أنه قد سقط من الناسخ اسم القائل هنا إذ لم يسبق له ذكر .

(٤) أى يجمع بين المتعاشقين .

(٥) الجفرة : موضع بالبصرة كانت به وقعة سنة سبعين بين عبد الملك بن مروان ومصعب ابن الزبير ، وكان على جيش عبد الملك خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد ، وخليفة مصعب بن الزبير على البصرة عبد الله بن عبيد الله بن معمر التيمى ، ودامت هذه الوقعة أربعين يوماً ، وكان النصر فيها لأهل البصرة . وفى كلتا النسختين « الحفرانة » ؛ وهو تحريف . وفى الكلام تورية كما لا يخفى .

ولُطِّخ باطنُها بالبُزاق ، وقُرِعَ البَيْضُ[1] بالذُّكور ، وجَعلَت الرِّماح تمُور[2] ؛ صَبَرالـكريمُ فلم يجْزَع ، وسَلَّمَ طائعاً فلم يُخْدَع ؛ ثم انصرف القومُ على سِلْمٍ ، بأَفْضَلِ غُنْمٍ ؛ وشُفِيَت الصدور ، وسكنت حَرارةُ النفوس ، ومات كلُّ وَجْد ، وأُصيبَ مَقْتَلُ كلِّ هَجْر ، وأُتّصل الحَبل ، وانعَقَدَ الوَصْل . قال : فلو كان أعَدَّ هذا الكلام لِمَسْئَلتى قبل ذلك بدهر لكان قد أَجاد .

وقال أبو فرعون الشاشيّ :

أنا أبو فِرْعَوْنَ فاُعْرِفْ كُنْيَتى ... حَلَّ أبو عَمْرَةَ وَسْطَ حُجْرَتِي

وحَلَّ نَسْجُ العنكبوتِ بُرْمَتِي ... أَعْشَبَ تَنُّوري وقَلَّتْ حِنْطَتِي

وحالَفَ القَمْلُ زَماناً لِحْيَتى ... وضَعُفَتْ مِن الهُزالِ ضَرْطتى

وصار تُبَّاني[3] كَفافَ خُصْيَتى ... أيرُ حِمـــارٍ فى حِرِ أُمِّ عِيشَتِي

[أَبُو عَمْرَة : صاحبُ شُرْطة المختارِ بنِ عُبَيْد ، كان لا ينزل بقوم إلا اجْتاحهُمْ ، فصار مثلا لكلِّ شُــؤم وشَرّ . ويقال أيضاً : إنّ أبا عَمْرة اُسمُ الجُوع ، هكذا حدّثنى به أبو الحَسَن البَصريّ] .

وأَنْشَدَ بِشْرُ بنُ هارُونَ فى أبى طاهر :

أبا عَبْدِ الإلٰه وأنتَ حُرٌّ ... من الأحْرارِ مَنْزُوعُ القِلادَهْ

---

(١) يشير إلى قول مهلهل بن ربيعة :

ولولا الريح أسمع من بحجر ... صليل البيض تقرع بالذكور

يريد الشاعر بالذكور : السيوف ، وبالبيض : التى تلبس على الرأس فى الحرب . وفى الكلام هنا ورية لا تخفى على ذى فهم .

(٢) تمور ، أى تضطرب .

(٣) التبّان : سراويل صغير يستر العورة المغلّظة . وكفاف الشىء : مثله . يقول : إن سراويله بمقدار خصيتيه ، يشير إلى فقره وقلة مقدرته على توسيع سراويله .

سَــأَلْتُكَ بالإلهِ لتُخْبِرَنّى أَجَهْلُكَ مُستَفادٌ أَمْ وِلادَهْ ؟
فإن يَكُ فيك مولوداً فعُــذْرٌ وإن يك حادِثاً لك باُستِفادَهْ
فوا عجباً يزيدُ النــاسُ فضْلًا وأنتَ تزيدُ نَقْصًا بالزِّيادَهْ !

حَكى الصُّولى : حدَّثَنا ميمون بنُ مِهْرانَ قال : كان مَعنا مخنَّثٌ يلقَّب مِشْمِشَة — وكان أُمِّيًا — فكَتب بحَضْرته رجُلٌ إلى صَديق له كتاباً ، فقال المخنّث : اُكتب إليه : مِشْمشةُ يقْرأ عليك السلام ؛ فقال : قد فعلتُ — وما كان فعَــل — فقال : أرِنى ؛ فقال : هذا اُسمُك ؛ فقال : هيهات ، اسمى فى الكتاب شِبْهُ داخلِ الأُذُن ، فعجِبْنا مِنْ جَوْدة تشْبيهه .

قال نضلة : مرَرْت بكنَّاسيْنِ أحدُهما فى البئرِ والآخرُ على رأسِ البئر ، وإذا ضَجَّة ، فقال الذى فى البئر : ما الخبر ؟ فقال : قُبِضَ على علىِّ بن عيسى ؟ فقال : مَنْ أقعَدوا بدَله ؟ قال : ابنَ الفُرات ؛ قال : قاتلهم الله ، أخذوا المصْحفَ ووَضَعوا بدلَه الطَّنْبور .

[كتب أبو العيناء إلى ابن مكرّم : قد أصبْتُ لك غلاماً من بنى ناعظ ، ثم من بنى ناشِرَة ، ثم من بنى نَهْد . فكتب إليه : ائْتِنا بما تعدنا إن كنتَ من الصادقين .

وقَدِمَ رجلٌ مع امرأة إلى القاضى ومعها طِفلٌ ، فقالت : هذا اُبنهُ ، فقال الرجل : أعزّ الله القاضىَ ما أعرِفه ؛ فقال القاضى : اِتَّقِ الله فإنَّ النبىَّ صلّى الله عليه وسلّم يقول : الولَدُ للفِراش ، وللعاهِرِ الحَجَر ، فهذا وأمُّه على فراشك ؛ قال الرجل : ما تَنايَكْنا إلّا فى الأُست ، فمِن أين لى وَلَد ؟ فقالت المرأة :

أعزّ الله القاضى ؛ قل له : ما رأيتَ ؟ يعرِّفه[١] ؛ فكفّ الرّجُلُ ، وأخذَ بيدِ ولدِه وانصرَف[٢]] .

قال : وسمعتُ آخرَ يقول لشاطر[٣] : اُسْكُتْ ، فإنّ نهراً جرى فيه الماء لا بدّ أنْ يعودَ إليه . فقال له الآخر : حتى يعود إليه الماء [تكون] قد ماتَتْ ضَفادِعُه .

ومن كلام الشُّطّار : أنا البَغْلُ الحَرُون ، والجَمَل الهائج ، أنا الفيل المُغْتَلِم لو كلّمنى عدُوِّى لعَقدْتُ شَعْر أنْفِه إلى شعْرِ اُستِه حتى يَشَمّ فُساءه ، كأنّه القُنْفُذَة .

وقال بعضُ القُصّاص : فى النّبيذ شىء من الجنّة (الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ) والنبيذ يُذْهِبُ الحزَن .

قال[٤] وسمعتْ ماجنةً تقول : ضُرّ وسُرّ ، وقُدْ وارْقُدْ ، واطِّرِحْ واقترِحْ .

قال ابن أبى طاهر : دعا مُرَّةُ قوماً وأمر جاريته أن تبخِّرَهم ، فأدخلتْ يدها فى ثوب بعضهم فوجدتْ أيْرَه قائماً ، فجعلت تَمرُسُه وتلعَبُ به وأطالت ؛ فقال مولاها : أيْشِ آخرُ هذا العُود ؟ أما اُحترَق ؟ قالت : يا مولاى ، هو عُقْدَة .

قال مَزيَد : كان الرجل فيما مضى إذا عَشِقَ الجارية راسَلَها سنةً ، ثم رضِيَ أنْ يَمْضَغَ العِلْكَ الّذى تَمْضَغُه ، ثم إذا تلاقَيا تحدَّثا وتَناشَدا الأشعار ، فصار الرجلُ اليومَ إذا عشِقَ الجارية لم يكن له همٌّ إلا أنْ يرْفعَ رِجلَها كأنّه أشهدَ على نِكاحِها أبا هُرَيْرة .

---

(١) يعرفه ، أى يعرف ما رأى ، أى يذكر العلامات التى رآها فى هذا الموضع .

(٢) يلاحظ أن آخر هذه القصة وكثيراً من ألفاظها مطموس الحروف فى نسخة (ب) ؛ وهى التى وردت فيها وحدها ، فلتراجع فى هامش ورقة ٢١٠ من هذه النسخة .

(٣) الشاطر ، هو من أعيا أهله خبثا .

(٤) يلاحظ أنه لم يذكر هنا اسم القائل ؛ فلعله سقط من الناسخ إذ لم يتبينه

قال ابن سيرين : كانوا يَعشَقون من غير ريبة ، فكان لا يُستَنكَرُ مِن الرَّجُل أن يجيء فيحدِّثَ أهْلَ البيت ثم يذْهَب . قال هشام : ولكنهم لا يَرْضونَ اليَوْمَ إلاّ بالمواقعة .

قال الأصمعيّ : قلتُ لأعرابيّ : هل تعرفون العشقَ بالبادية ؟ قال : نعم ، أيكون أحدٌ لا يعْرفه . قلتُ : فما هو عندكم ؟ قال : القُبْلَة والضَّمّة والشَّمّة ، قلت : ليس هو هكذا عندنا . قال : وكيف هو ؟ قلت : أن يتفخَّذَ الرَّجُلُ المرْأَةَ فيُباضِعَها . فقال : قد خرَجَ إلى طَلَب الوَلد .

قال بِشْرُ بنُ هارون :

إن أبا مُوسَى لَه لِحيَةٌ تَدْخُلُ فى الجُحْرِ بلا إذْنِ
وصورةٌ فى العين مِثلُ القذَى ونَغمةٌ كالوَقْرِ فى الاذْن
كم صَفْعَةٍ صاحَتْ إلى صافِعٍ بالنّعل مِنْ أَخْدَعِه : خُذْنِى

وقال لنا أبو يوسف : قال جحظة : حضرتُ مجلساً فيه جماعةٌ من وُجوه الكتّاب ، وعندنا قَيْنَةٌ مُحْسِنَةٌ حاضرَةُ النادرة ، فقال لها بعضُهم : بحياتى عليك غَنِّى لى :

لستَ مِنِّى ولستُ مِنْكَ فَدَعْنِى وأمْضِ عَنِّى مُصاحَبًا بِسَلَامِ

فقالت : أهكذا كان أبُوكَ يغنِّيك ؟ فأخْجَلَتْه .

اشترى مَدينىٌّ رُطَباً ، فأخْرَج صاحِبُ الرُّطَب كَيْلَجَةً صغيرةً ليَكِيلَ بها ، فقال المدينىّ : واللهِ لو كِلْتَ بها حَسَناتٍ ما قَبِلْتُها .

سئل أبو عُمارةَ قاضى الكوفة : أىُّ بنيك أثقل ؟ قال : ما فيهم بَعدَ الكبيرِ أثقَلُ من الصَّغير إلاّ الأَوْسَط .

اجتَمَعَ جماعةٌ عند جامعٍ الصَّيْدَنانىّ ، فقال أحدهم : ليس للمخمور أنفعُ من سَلْحِه ، فقال جامع : أخذتَها واللهِ مِنْ فَمِى .

قال رجل لرؤبة : أتَهمِزُ الخُرْءَ ؟ قال : بإصْبَعِكَ يا بن الخبيثة .

وقفَ أعْرَابىٌّ على قوم يُسائِلهم ، فقال لأحَدِهِم : ما أسْمُك ؟ قال : مانع ؛ وقال للآخَر : ما أسمُك ؟ قال : مُحْرِز ؛ وقال للآخَر : ما أسمُك ؟ قال : حافظ ؛ قال : قبَّحكم الله ، ما أظن الأقفال إلا من أسمائِكمْ .

[من كلام العامّة : « مَنارةُ الإسكندريّة عندك خَشْخاشة فارغة] ......(١)

قال جَحْظة : قرأتُ على فصٍّ ماجِنَةٍ : ليلة عُرْسِى ؛ ثقبوا بالأيْرِ كُسِّى . وعلى فصٍّ ماجِنَةٍ أخرى ؛ السَّحْقُ أَخفَى والنَّيْكُ أَشْفى .

وقال جُحا لأبى مسلم صاحب الدعوة : إنى نذَرْتُ إنْ رأيتُك أن آخُذَ منك ألفَ دِرهم . فقال : رأيت أصحاب النذور يُعطون لا يأْخُذون ، وأمرَ له بها(٢) .

قال السَّرِىّ : رأيت المُخنَّث الّذى يعرف بالغريب(٣) ، وإنسانٌ من العامة قد آذاه وطال ذلك ، فالتفتَ إليه وقال له : يا مشقوق ؛ نَعْلُك زائفة ، وقميصُك مَقْرُون الحاجبين ، وإزارُك صَدَفٌ أزرق ، وأنت تَتَلاهَى بأولاد الملوك والأمراء . قال السَّرِىّ : فخجل العامّىّ ومرّ ، فقلت له : فَسِّرْ لى هذا الغَريب . فقال : اِمْضِ إلى ثَعلَب . فقلت : ليس هذا من عَمَله ؛ فسِّرْهُ لى . قال : النعل الزائفة(٤) [التى

---

(١) موضع هذه النقط فى « ب » كلام مطموس لم نستطع قراءته . فليراجع فى هامش ورقة ٢١١ من النسخة المذكورة .

(٢) فى « ب » : ألف درهم .

(٣) بالعريب ، أى بالغريب من الألفاظ . هذا مايظهر لنا من سياق القصة ، أو لعله لقبه .

(٤) لعل ذلك مأخوذ من زافت الحمامة تزوف إذا سحبت ذنبها على الأرض ونشرت جناحيها . والذى فى كلتا النسختين : النعل الرافه ؛ ولم نجد له معنى فيما راجعناه من الكتب ؛ فلعل الصواب ما أثبتنا .

تجرُف الترابَ جَرْفاً ، والقميص المقرون ، هو الخلَقَ] الذى فى كَتِفيه رقعتان أجوَدُ منه ، فهما تفصحانِ بَياناً ، والإزار صدفٌ أزرق ، أى مخرَّقٌ مُفتَّت . فقلتُ : فقولك : يامشقوق ؟ قال : قَطيعُ الظَّهْر .

قيل للشَّعبيّ : أيجوز أن يصلّى فى البِيعة ؟ قال : نعم . و يجوز أن يُخْرَأَ فيها .

وقال سعيد بنُ جُبَيْر : القُبْلَة رسولُ الجماع .

وقال الرشيد للجمّاز : كيف مائدة محمد بن يحيى ، يَعْنِى البَرْمكىّ . قال : شِبْرٌ فى شِبْر ؛ وصَحْفَتُه من قِشر الخَشْخاش ، و بين الرَّغيف والرغيفِ مَضْرِبُ كُرة ؛ و بينَ اللَّوْن واللَّوْن فَتْرَةُ نَبِىّ قال : فمن يحضُرها ؟ قال : الكِرامُ الكاتِبُون ؛ فضحك وقال : لَحاكَ اللهُ من رَجُل .

قال نَضْلة : دخَلْتُ ساقيةً فى الكَرْخِ فتَوَضَّأتُ ؛ فلما خرجتُ تعلَّق السَّقَّاء بى وقال : هاتِ قطعة ؛ فضَرَطتُ ضَرْطةً وقلتُ : خَلِّ الآنَ سبيلى فقد نقَضْتُ وُضوئى ؛ فضحك وخَلّانى .

وَعدَ رجُلٌ بعضَ إخوانه أن يُهْدِىَ إليه بغلًا ؛ فطالَ مَطْلُهُ ، فأخذ قارورة و بالَ فيها وجاءَ إلى الطَّبيب وقال : انظر إلى هذا الماء ، هل يُهدِى إلىَّ بعضُ إخوانى بغلًا .

حدثنا ابنُ الخَلّال البصرىّ قال : سمعْتُ ابنَ اليعقوبىِّ يقول : رأيتُ على باب المِرْبَد خالداً الكاتِبَ وهو ينادِى : يا مَعشَرَ الظّرفاء ، والمتخلِّقين بالوَفاء ؛ أليس من العَجب العجيب ، والنادر الغريب ، أنّ شِعْرى يُزْنَى به و يُلاطُ منذ أربعين سنةً وأنا أطلب درهما فلا أُعْطَى ، ثم أنشأ يقول :

أُحْرَمُ منكمْ بمـا أَقولُ وقد ... نالَ به العاشقونَ مَنْ عَشِقوا
صِرْتُ كأنِّى ذُبالَةٌ نُصِبَتْ ... تُضِىءُ للنَّاس وهى تَحْتَرِقُ

وسمعتُ الماجِنَ المعروفَ بالغُراب يقول : ويلكَ أيْش فى ذا ؟ لا تختلِط الحِنْطةُ بالشَّعير ، أو يُصْنَعُ الباذنجان قرْعاً ، أو يتحوَّل الفُجْلُ إلى الباقِلاء ، ويصير الخرْنوب إلى الآرَنْدَج[١] .

وسمعتُ دَجاجةَ المخنَّثَ يقول لآخَر : إنما أنتَ بيتٌ بلا باب ، وقدَمٌ بلا ساق ، وأعْمى بلا عصا ، ونارٌ بلا حَطَب ، ونهرٌ بلا معْبَر، وحائطٌ بلا سَقْف .

وشتَم آخرَ فقال : يارأْسَ الأفعى ، وياعَصا المُكارِى ، ويابُرْنُسَ الجاثَلِيق[٢] ، يا كوْدَنَ[٣] القَصَّار ، يا بَيْرَمَ[٤] النجَّار : يا ناقوسَ النصارَى ؛ ياذَرور العيْن ، يا تَخْتَ[٥] الثياب ، يا طعْنَ الرُّمْحِ فى التُّرْس ؛ يا مغْرفَةَ القُدور ، ومِكْنَسةَ الدُّور ؛ لا تُبالِى أينَ وُضِعْت ؟ ولا أىَّ جُحْرٍ دخَلْت ؟ ولا فى أىِّ خانٍ نزَلْت ، ولا فى أىِّ حمّام عَمِلت ؛ إن لم تكن فى الكُوَّة مِترَساً فتَح اللصوصُ البابَ ؛ يا رَحًى على رَحى ؛ ووِعاءً فى وِعاء ، وغِطاءً على غِطاء ، وداءً بلا دواء ؛ وعمًى على عَمى ؛ ويا جُهْدَ البَلاء ؛ وياسَطْحًا بلا ميزاب ، وياعوداً بلا مِضْراب ، ويافماً بلا ناب ، ويا سِكِّيناً بلا نِصاب ، ويا رَعْداً بلا سَحاب ، ويا كُوَّةً بلا باب ؛ ويا قميصاً بلا مِئْزَر ، ويا جسْرًا بلا نَهَر ، ويا قُرًّا على قُرّ ؛ ويا شطَّ الصَّراة[٦]

---

(١) هذه الكلمة مهملة الحروف من النقط فى الأصل ؛ وقد أثبتناها على هذا الوجه لاتفاق الخرنوب والأرندج فى اللون . والأرندج : الجلد الأسود ؛ وهو معرّب .

(٢) الجاثليق : من رؤساء النصارى ، معروف .

(٣) الكودن : البغل .

(٤) بيرم النجار : عتلته .

(٥) تخت الثياب : ما تصان فيه .

(٦) الصراة : نهر بالعراق .

ويا قَصْرًا بلا مِسْناه[١] ويا وَرَق الكَماه[٢] ، يا مَطْبخاً[٣] بلا أفواه[٤] ؛ يا ذَنَب الفار ، يا قِدْرًا بلا أبْزار ، يا رَأْسَ الطُّومار ، يا رسولا بلا أخْبَار ؛ يا خَيْطَ البَوَارِى[٥] ؛ يا رَحًى فى صَحارِى ، يا طاقاتٍ بلا سَوارِى .

دخل أبو نواس على عِنانَ جاريةِ الناطِفِىِّ فقال لها :

لو رَأى فى البَيْتِ جُحرًا لنَزَا حتى يموتا[٦]
أو رَأى فى البيْت ثَقْبًا لَتحوَّلْ[٧] عَنْكبوتا

فأجابتْه :

زَوِّجوا هذا بألفٍ وأظُنُّ الأَلْفَ قُوتَا
قَبْلَ أَنْ يَنْقَلِبَ الدَّا ءُ فلا يَأْتِى ويُؤتَى

فقال — أدام اللهُ دَوْلَتَه ، و بَسَطَ لَدَيْهِ نِعْمَتَه — قَدِّم هذا الفَنَّ على غيره ، وما ظننتُ أنّ هذا يَطَّرِد فى مجلسٍ واحد ، ورُبما عِيبَ هذا النَّمَطُ كلَّ العَيْب ، وذلِك ظُلْم ، لأن النفس تَحْتاج إلى بِشْر . وقد بَلغنى أنَّ ابْنَ عبّاس كان يقول فى مجلسه بعد الخَوْضِ فى الكتاب والسُّنّة والفقه والمسائل : أحْمِضُوا ، وما أراه أراد بذلك إلا لتعديل النفس لئلاّ يَلْحَقَها كَلالُ الجدّ ، ولتَقْتَبِسَ نشاطًا فى المُسْتأْنَف ، ولتستعِدَّ لقَبُول ما يَرِدُ عليها فتَسمعَ ؛ والسلام .

---

(١) المسناة : المرقاة ، من السناء بالمد ، وهو العلوّ والرفعة .
(٢) الكماة مخففة : الكمأة بالهمز .
(٣) فى الأصل . « مصرحا » ؛ وهو تحريف .
(٤) الأفواه : التوابل .
(٥) البوارىّ بتشديد الياء : ضرب من الحصر تعمل من البردى معروفة بمصر إلى اليوم .
(٦) فى كتاب أخبار أبى نواس لابن منظور : اجتمع أبو نواس مع عنان فأقبل عليها وقال :
لو رأى فى السقف صدعا لنزا حتى يموتا
(٧) كذا وردت هذه الكلمة فى الأصل . ولا يخفى أن تسكين الفعل لضرورة الشعر .

الليلة التاسعة عشرة

ورَسَم بجَمع كلماتٍ بَوارِع ، قِصارٍ جَوامع ، فكتبتُ إليه أشياءَ كنتُ أسمعُها من أفواه أهل العلم والأدب على مَرِّ الأيام فى السَّفَرِ والحَضَر ، وفيها قَرْعٌ للحِسّ ، وتنبيهٌ للعقْل ، وإمْتاعٌ للرُّوح ، ومعونةٌ على استفادَة اليَقَظة ، وانتفاعٌ فى المقامات المختلفة ، وتمثُّلٌ للتجارب المحَلّمة ؛ وامتثالٌ للأحوالِ المُسْتأْنفَة .

من ذلك :

« الحمد لله » مِفْتاحُ المذاهب . البِرُّ يَسْتَعْبد الحُرّ . القَناعَةُ عِزُّ المُعْسِر . الصَّدَقَةُ كَنزُ المُوسِر . ما انقضَتْ ساعَةٌ مِنْ أَمْسِك إلاّ ببَضْعَةٍ مِن نَفْسِك . دِرْهَمٌ ينفع خيرٌ من دِينارٍ يضرّ . من سَرّه الفَساد ، ساءه المَعاد . الشقىُّ مَنْ جَمع لغَيْره فضَنَّ على نَفسه بخَيْره . زِدْ مِن طُولِ أَمَلِك فى قِصَرِ عَمَلِك . لا يَغُرَّنَّكَ صِحَّةُ نَفْسِك ، وسلامَةُ أَمْسِك ، فَمُدَّةُ العمر قليلة ، وصحةُ النَّفْس مستحيلة . من لم يَعْتَبِر بالأيَّام ، لم يَنْزَجِرْ بالمَلام . من اُسْتَغْنَى بالله عن الناس ، أَمِنَ مِنْ عَوارِض الإفلاس . مَنْ ذَكَرَ المَنِيَّة ، نَسِيَ الأُمْنِيّة . البخيلُ حارسُ نِعْمَته ، وخازِنُ وَرثِته . لكلِّ امرئٍ مِنْ دُنْياه ، ما يُعينهُ على عِمارَةِ أُخْراه . مَن اُرْتَدَى بالكَفاف ، اكتَسَى بالعَفاف . لا تَخْدَعَنَّكَ الدّنيا بخَدائِعها ، ولا تَفْتِنَنَّكَ بوَدائعها . رُبَّ حُجَّة ، تأتى على مُهْجَة ؛ ورُبَّ فُرْصَة ، تُؤدِّى إلى غُصّة . كم مِنْ دَم ، سَفَكَه فَم . كم إنسان ، أهلَكَه لِسان . رُبَّ حَرْف ، أَدّى إلى حَتْف . لا تُفرِط ، فتَسْقُط . اِلزَم الصَّمْت ، وأَخْفِ الصَّوْت . مَن حَسُنَتْ مَساعِيه ، طابَتْ مَراعيه . مَن أَعَزَّ فَلْسه ، أَذَلَّ نَفْسَه . مَن طال

عُدْوَانُه ، زال سُلْطانُه . مَنْ لَمْ يَسْتَظْهر باليَقَظَة ، لم يَنْتَفِع بالحَفَظة . مَن استَهْدى الأَعْمَى عَمِيَ عن الهُدَى . من اغْتَرَّ بِمحالِه ، قَصَّرَ فى احتياله . زوال الدُّوَل ، باصطناع السَّفَل . من تَرَكَ ما يَعْنيه ، دُفِعَ إلى ما لاَ يَعْنيه . ظُلْمُ العُمّال ، مِن ظُلْمَةَ الأعْمَال . مَن استشار الجاهل ضَلّ ، وَمَنْ جَهِلَ مَوْضِعَ قَدَمِهِ زَلّ . لا يَغُرَّنَّكَ طُولُ القامَة ، مع قِصَر الاستقامة ، فإنّ الذَّرَّةَ مع صِغَرها ، أنفَع من الصَّخْرَة على كِبَرها . تَجَرَّعْ مِنْ عَدُوِّكَ الغُصَّة ، إن لم تَنَلْ منه الفُرْصة ، فإذا وجدتَها فانتهِزْها قبل أن يَفوتك الدَّرَك ، أو يصيبَك الفَلَك ، فإنّ الدّنيا دُوَلٌ تَبْنيها الأَقْدار ، ويَهْدِمُها الليلُ والنّهار . من زَرَعَ الإِحَن ، حَصَدَ المِحَن . من بَعُدَ مَطْمَعُه ، قرُب مَصْرَعُه . الثَّعْلَبُ فى إقْبال جَدِّه ، يَغْلِبُ الأسَدَ فى استقبال شَدِّه . رُبَّ عَطَب ، تحتَ طَلَب . اللِّسان ، رِقُّ الإنسان . من ثمرة الإحسان ، كَثْرَةُ الإخوان ، من سأل ما لاَ يَجِب ، أُجيب بما لا يُحِبّ ، وأنشدتُ :

وليس لنا عَيْبٌ سِوَى أنَّ جُودَنا ... أضَرَّ بنا والبأسَ من كل جانِبِ
فأَفْنَى النَّدَى أموالَنا غيرَ ظالمٍ ... وأَفْنَى الرَّدَى أعمارَنا غيرَ عائبِ
أبُونَا أَبٌ لو كان للنَّاس كُلِّهمْ ... أَبٌ مِثْلُهُ أغْنَاهُمُ بالمَناقب

(٢) قال حميد بن الصَّيْمَرِيّ لابنه : اِصحَب السُّلطانَ بشدَّة التَّوَقِّى كما تَصْحَب السَّبُعَ الضَّارِيَ والفيلَ المُغْتَلِمَ والأفعى القاتِلة ؛ واُصحَب الصَّديق بلين الجانب والتواضُع ؛ واُصحَب العدوَّ بالإعذارِ إليه والحجّةِ فيما بينَك وبينه ؛ واُصحب العامّة بالبِرِّ والبِشْر واللطفِ باللِّسان .

وَقَّع عبدُ الحميد الكاتبُ على ظهرِ كتاب : يا هـذا ، لو جعلتَ ما تحمله القراطيس مِن الكلام مالاً حَوَيت جَمالًا وحُزتَ كمالًا .

ووقَّع السَّفّاحُ مرّة : ما أقبحَ بنا أن تكون الدنيا لنا وحاشيتنا خارجون منها ، فعجِّل أرزاقَهم ، وزِد فيها على قَدْرِ كلِّ رجُل منهم إن شاء الله .

قال الحسنُ بنُ عليّ : عُنوانُ الشرَف ، حُسنُ الخَلَف .

وقال جعفر بن محمد — عليهما السلام — : إن لم تَجْفُ ، فَقَلّما تَصْفو .

وقال أعرابي : النخلة جِذْعُها نَمـاء(١) ، وليفُها رِشاء ، وكَرَبُها(٢) صِلاء ، وسَعَفُها ضِياء(٣) ، وحَمْلُها غِذاء .

وقال الأصمعى : سمعتُ كَسَّاحاً(٤) يقول لغلام له : ألم أضَعْ إزارَك ، ألم أصنَعْ عُودَ مِجْرَفَتِك ؟ ألم أجعَلْك كَسَّاحاً على حِمارَين ؟

وُجِدَ كتابٌ باليمن فيه : أنا فلانةُ بنتُ فلان التُّبَّعيّ ، كنتُ آكُل البَقل الرَّطْب من الهند وأنا باليمن ، ثم جُعْنا حتى اشتَرَيْنا مَكُّوكَ(٥) بُرٍّ بمَكّوكِ دُرّ ، مِنْ يوسفَ بنِ يعقوبَ بمصر ، فمن رآنا فلا يغترّ بالدُّنيا .

وقال عليُّ بنُ أبى طالب — كرّم الله وجهه — لرجل من بنى تغْلِبَ يومَ صِفِّين : أآثَرْتُم مُعاوِية ؟ فقال : ما آثَرْناه ، ولكنّا آثَرْنا القَسْبَ(٦) الأصفر ، والبُرَّ الأحمر ، والزَّيتَ الأخضر .

---

(١) فى الأصل : «ماء» ؛ والنون ساقطة من الناسخ .

(٢) الكرب : أصول السعف الغلاظ العراض .

(٣) يريد أن نار السعف يعلو لهيبها ويسطع ، فهى صالحة للاستضاءة دون الاصطلاء .

(٤) الكسّاح : الكنّاس ؛ ومن ينظف البئر والنهر ونحوهما

(٥) المكّوك : مكيال يسع صاعا ونصفاً أو نصف رطل إلى ثمان أواقى .

(٦) القسب : التمر اليابس .

قيل للحسن بن علىّ — رضى الله عنه — لمّا صالح مُعاوية : ياعارَ المؤمنين . فقال : العارُ خيرٌ من النارِ .

نظر الحَجَّاجُ يوْماً على المائدة إلى رجُل وَجَأَ عُنُقَ رجُل آخر ، فدعا بهما ، فقال للواجيء: عَلامَ صنَعْتَ ؟ فقال : غَصَّ بعَظْمٍ فخِفْتُ أن يقْتُلَه ، فوجأتُ عنقه فألقاه ؛ فسأل الآخرَ فقال : صدَق ؛ فدعا بالطبّاخ فقال له : أتدَع العِظامَ فى طعامك حتى يغَصَّ بها ؟ فقال : إنَّ الطعام كثير ، وربما وَقع العَظْمُ فى المَرَق فلا يُزال . قال : تَصُب المَرَق على المَناخل . فكان يَفعل[١] .

قال سَلَمة بنُ المُحبِّق[٢] : شهدتُ فتحَ الأُبُلَّة ، فوقع فى سَهْمِى قِدْرُ نحاس ، فَنَظرْتُ فإذا هى ذهبٌ فيها ثمانون ألف مثقال ، فكتبتُ فى ذلك إلى عُمَر ، فأجابَ بأن يُحلَّف سلَمَةُ بأنه أخذها يومَ أَخَذَها وهى عنده ، فإن حلَف سُلِّمتْ إليه ، وإلا قُسِمتْ بين المسلمين ، قال : فحلفتُ فسُلِّمتْ إلىَّ ، فأصول أموالِنا اليومَ منها .

قال بعض الحكماء : لا يَصْبِر على المُروءَةِ إلّا ذو طبيعةٍ كريمة .

(٣) . . . .

أصابَ عبدُ الرحمن بن مدين — وكان رجُلَ صِدْق بخراسان — مالًا عظيما فجَهَّر سبعين مملوكا بدَوابِّهم وأسلِحتهم إلى هشام بنِ عبد الملك ، ثم أصبحوا معه

(١) عبارة الأصل : « بصيب المرق على المتاحر فكان بعلك » . وفيها تحريف ظاهر . والصواب ما أثبتنا .

(٢) فى الأصل : « سلمة بن المحى » . وهو تحريف . والتصويب عن الإصابة والقاموس . وضبط فى القاموس بكسر الباء المشددة ، وفى الإصابة بفتحها .

(٣) موضع هـذه النقط عبارة لابن السماك مهملة أكثر حروفها من النقط ، فلم نستطع تحقيق ألفاظها ، ونحن نثبتها هنا كما وردت فى النسخة المأخوذة بالتصوير الشمسى المحفوظة بدار الكتب المصرية (تحت رقم ١١٢١٥ر) فى ص٣٨٧ ونصها : « وقال ابن السماك لوخرج رجل فى طلب السمان إلى الكوفة للدنه والدار فى لعدوسه بقاياه كان خفيما على إخوانه لعرسه » .

يومَ الرَّحيل ، فلما استوى بهم الطريقُ نظرَ إليهم فقال : ما ينْبغى لرجُل أن يتقرَّب بهؤلاء إلى غير الله . ثم قال : اذهَبوا أنتمْ أحرارٌ ، وما معكم لكم .

وقال أعرابىّ : مَنْ قَبِلَ صِلتَك فقد باعَك مُروءَته ، وأذلَّ لقَدْرِك عِزَّه .

كتبَ زِيادُ بنُ عبدِ الله الحارِثىّ إلى المهدِىّ :

أنا ناديتُ عَفْوَكَ من قريبٍ كما نادَيْتُ سُخْطَكَ مِنْ بعيدِ
وإنْ عاقبْتَنى فلسوءِ فِعلى وما ظَلَمَتْ عُقوبةُ مُستَقيدِ
وإن تَصْفَحْ فإحسانٌ جَديدٌ عَطفْتَ به على شُكرٍ جَديد

وقال رجل لمحمد بن بحرير : أوْصِنى ؛ فقال : اسْمَع ولا تتكلّم ، واعرِف ولا تعرَّف ، واجلسْ إلى غيْرِكَ ولا تُجْلِسْه إليك .

(٣) وقال رجل لابن أسيد[1] القاضى : إنّ أمّى تريد أن توصِىَ فتَحضُرَ وتكتُبَ ؛ فقال : وهل بلغَتْ مَبْلَغَ النِّساء ؟

ودخل صاحب المَظالِمِ بالبَصرَة على رجُلٍ مُبَرْسَمٍ[2] وعنده طبيبٌ يداويه ، فأقبَلَ على الطبيب وأهلِ المريض ، وقال : ليس دواءُ المُبَرْسَم إلا الموتُ حتى يَقِلَّ حرارَةُ صَدْره ، ثم حينئذ يعالَج بالأدوية الباردة حتى يَسْتَبِلَّ .

واجتازَ به بائعُ دُرّاجٍ فقال : بكم تَبيعُ الدُّرّاجَة ؟ فقال : بدرْهم ؛ فقال له : أَحسِنْ . قال : كذا بعْتُ . قال : نأخذُ منْك اثنتين بثلاثة . قال : هما لك . قال : يا غلامُ خُذْ منه ، فإنه يُسَهِّلُ البَيْع .

ودخل حَجّاج بنُ هارون على نجاحٍ الكاتب ، فذهب ليُقبِّل رأسَه ؛ فقال

(١) يلاحظ أن هذه الطرفة والست التى بعدها كان أليق بها جميعا باب المجون السابق .
(٢) مبرسم ، أى به برسام ، وهو علّة يهذى فيها .

له : لا تفعل ، فإن رأسى مملوء بالدُّهن ، فقال : والله لو أنَّ عليه ألفَ رِطْ
خَراء لقَبَّلْتُه .

قُدِّم لابن الحَسْحاس سِكْباجةٌ[1] فقال لصديق له : كلْ فإنها أُمُّ القِرى

وعَزَّى ابنُ الحَسْحاس صديقاً له ماتت ابنَتُه ، فقال : من أنتَ ح
لا تموتَ ابنَتُك البَظْراء ! قد ماتَتْ عائشةُ بنتُ[2] النبيِّ صلى الله عليه وسلم .

أخذ يعقوبُ بنُ الليثيِّ فى أوَّل أمره رجلًا فاستَصْفاه ، ثم رآه بعدَ زمان
فقال له : أبا فلان ، كيف أنتَ الساعة ؟ قال له : كما كنتَ أنتَ قديماً .
وكيفَ كنتُ أنا ؟ قال : كما أنا الساعة ؛ فأمر له بعشَرة آلاف دِرْهم .

(٤) قال ابن المُبارَك : إذا وُضِعَ الطعامُ فقد أُذِن للآكِل .

وقال عمرُ بنُ الخطّاب — رضى الله عنه — إنّ العرب لا تَصْلح د
لا تَصْلح بها الإبلُ .

وقال إبراهيم بن السِّنْدِيّ : نظر رجلٌ من قُرَيش إلى صاحب له قد نا
غَداةٍ مِنْ غَدوات الصَّيْف طيِّبَةِ النسيم ، فرَكَضه برجله وقال : ما لَكَ
عن الدُّنيا فى أطيب وَقتها ، نَمْ عنها فى أخبَثِ حالاتها ، نَمْ فى نِصْف النهار لبُ
عن الليلة الماضية والآتية ، ولأنها راحةٌ لما قبلَها من التَّعب ، وجِمامٌ لما بعدَه
العمَل ، نِمْتَ فى وقت الحوائج ، وتنَبَّهتَ فى وَقت رُجوع الناس ؛ وقد جاء : "
فإنَّ الشَّياطين لا تَقِيل" .

---

(١) السكباجة : مرق يعمل من اللحم والخل .

(٢) يلاحظ أن قوله : « بنت النبى صلى الله عليه وسلم » هو موضع التفكهة بج
القائل وغفلته .

وقال إبراهيم بنُ السِّنْدِى أيقَظَتْ أعرابيّــةٌ أولاداً لها صِغاراً قبْل الفَجر فى غَدَوات الرَّبيع وقالت : تنَسَّموا هــذه الأرْواح ، واُستنشِقوا هذا النسيم ، وتفهَّموا هذا النعيم ، فإنه يَشُدُّ من مُنَّتِكم .

ويقال فى الوَصْف : كأنه مِحْراكُ نار ، وكأنه الجأْمُ[1] صَدًى .

وإذا وَصَفوه بالقِصَر قالوا : كأنه عُقْدَةُ رِشاَ ، وأُبْنَةُ عَصَا . وإذا كان ضعيفاً قالوا : كأنَّهُ قطْعةُ زُبْد ، والمولّدون يقولون : كأنه أُسْكُرُّجة[2] .

(٥) قال بعض السَّلَفِ فى دُعائه : اللّهم لا أُحِيطُ بنِعَمكَ على فَأَعُدَّها ، ولا أَبْلُغُ كُنْهَ واحدةٍ منها فأحُدَّها .

دَعا عطاءُ السِّندىّ فقال : أعوذُ بك من عذابك الواقع ، الّذى ليس له دافع ، وأسألُكَ من خيرك الواسع ، الّذى ليس له مانع .

ودعا بعض السلف : اللّهم إنَّ قَلْبِى وناصِيَتِى بيدكَ لم تُمَلِّكنى منهما شيئاً ، وإذْ فَعلْتَ ذلك فكنْ أَنْتَ وليَّهما ، فاُهدنا سواء السَّبيل .

ودعا بعضُ الصّالحين : اللّهم ما كان لى من خَيْرٍ فإنَّكَ قَضَيْتَه وَيسَّرْتَه وهَدَيْتَه ، فلا حمْدَ لى عليه ؛ وما كان منِّى من سوء فإنّكَ وَعَظْتَ وزَجَرْتَ ونَهَيْتَ فلا عُذْر لى فيه ولا حجَّة .

ودعا آخرُ : اللهمَّ إنى أعوذُ بك من سُلطان جائر ، ونديمٍ فاجر ، وصديق غادر ، وغَرِيم ماكر ، وقريب مُناكر[3] ، وشَريكٍ خائن ، وحليفٍ

(١) الجأم : إناء من فضة .
(٢) اسكرجة : صحفة صغيرة يوضع فيها الكامخ ، وهى فارسية .
(٣) مناكر ، أى محارب .

مائن ، وولدٍ جافٍ ، وخادم هافٍ ، وحاسد مُلافظ ، وجارٍ مُلاحِظ ، ورفيقٍ كَسْلان ، وخليلٍ وَسْنان ، و (١) ضعيف ، ومَرْكُوبٍ قطوف(٢) ، وزوجةٍ مبذِّرة ، ودارٍ ضيِّقة .

قال المدائنىّ : قال بعض السَّلف لابنه : اِشْحَذْ طَبْعَكَ بالعُيُونِ والفِقَر(٣) وإن قَلَّتْ ، فإن الشجرة لا يَشينُها قِلَّةُ الحَمْل إذا كان ثمرُها نافعاً ، وأُكْلُها ناجعاً .

(٦) وقيل للأَوْزاعى : ما كرامة الضيف ؟ قال : طلاقة الوجه .

قال مجاهد فى قول الله تعالى : (ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ) قال : قِيامُه عليهم بنفسه .

وقال عمر بن عبد العزيز : ليس من المُروءة أن تَسْتَخْدِمَ الضّيف .

وقال إبراهيم بنُ الجُنيد : كان يقال : أربَعٌ للشّريف لا يَنْبَغى أن يَأْنَف منهن وإن كان أميراً : قيامُه من مجلسه لأبيه ، وخِدْمَتُه لضَيْفه ، وخدْمَتُه للعالم يتعلمُ منه ، وإن سُئِلَ عمَّا لا يَعلم أن يقولَ : لا أعْلَمَ .

حاتم كان يقول : العَجَلة من الشّيطان إلا فى خمسة أشياء ، فإنّها مِن السنَّة : إطعام الضّيف إذا حَلَّ ، وتجهيزُ الميِّت ، وتَزْوِيج البِكْرِ(٤) ، وقضاء الدَّيْن ، والتوبةُ من الذَّنْب .

---

(١) هنا بياض بالأصل .
(٢) المركوب القطوف : الضيق الخطو .
(٣) أى بعيون الكلام البليغ وفقره .
(٤) فى رواية : « الكفء » .

وقال : من أطْعَمَ الضَّيْفَ لحماً وخُبْزَ حِنْطَة وماءً بارداً فقد تمَّ الضيافة .

وقال حاتم : المُزَوِّر المرَائى إذا ضاف إنْساناً حدَّثه بِسخاوَة إبراهيم الخليل ، و إذا ضافه إنسانٌ حَدَّثه بزُهد عيسى بنِ مريم .

وقال ميمون بن ميمون : من ضافَ البخيلَ صامَت دابَّتُه ، واستغنى عن الـكَنيف ، وأَمِنَ التُّخَمة .

وقال بعض السلف الصالح : لأن أَجْمَعَ إخوانى على صاعٍ من طَعامٍ أحَبُّ إلىَّ من عِتْقِ رَقَبة .

قال الأعمش : كان الربيعُ بنُ خَيْثم يَصْنَع لنا الخبيص[1] ويقدِّمه ويقول : اللهم اغفِر لأطْيَبِهِمْ نفساً ، وأحسَنِهم خُلُقاً ، وأرْحَمِهُمْ جميعاً .

وقال أنَسُ بنُ مالِك : كل بيت لا يدخله الضَّيْفُ لا تدْخُلُه الملائكة .

ولمَّا قرأتُه على الوزير — بلَّغه الله آماله ، وزكَّى أعمالَه ، وخفَّفَ عن قلْبِه أثقالَه — قال : ما علِمتُ أن مثْلَ هذا الحَجْمِ يَحْوِى هذه الوَصايا والمُلَح ؛ وهذه الكلماتُ الغُرَر ما فيها ما لا يجبُ أن يُحْفَظ ، والله لكأنها بستان فى زمان الخريف ، لكل عَيْنٍ فيه منْظَر ، ولكل يَدٍ منه مَقْطَف ، ولكل فمٍ منه مَذاق . إذا فرغتَ فأضِفْ لى جزءاً أو جزءَين أو ما ساعَدَك عليه النشاط ، فإن موْقِعَها يَحْسُن ، وذِكْرَها يَجْمُل ، وأثرَها يَبْقى ، وفائِدَتَها تُرْوَى ، وعاقبتَها تُحمَد .

فقلتُ : السمعَ والطاعةَ .

(٢) الخبيص : طعام كان يصنع من التمر والسمن .

الليلة العشرون[١]

وقال لى مرّة [أخرى] : أُكتب لى جزءاً من الأحاديث الفصيحة المفيدَة . فكتبتُ : قال مالكُ بنُ عُمارةَ اللَّخْمِىّ . كنتُ أُجالِسُ فى ظِلِّ الكَعْبَة أيامَ المَوْسِمِ عبدَ الملك بنَ مرْوان وقَبيصةَ بنَ ذُؤَيْب وعُرْوَةَ بنَ الزُّبير ، وكنا نَخوضُ فى الفِقْهِ مرّةً ، وفى الذِّكْرِ مرّةً ؛ وفى أشعار العرَبِ وآثارِ الناس مرّةً ؛ فكنتُ لا أجِدُ عند أحدٍ منهم ما أجِدُه عنْد عبد الملك بنِ مرْوان من الاتساع فى المعرفة والتصرُّفِ فى فُنون العلم والفصاحة والبلاغة ، وحُسْن استماعِه إذا حُدِّثَ ، وحلاوَةِ لَفْظه إذا حَدَّث ؛ فخلوتُ معه ذاتَ ليلة فقلتُ: والله إنى لمَسْرورٌ بك لما أُشاهِدُه من كثْرة تصرُّفك وحُسن حَديثك ، وإقبالك على جَليسك ؛ فقال : إنك إن تَعِش قليلا فستَرَى العيُونَ طامحة إلىّ والأعناقَ قاصدةً نحوى ، فلا عليك أن تُعمِل إلىَّ رِكابَك . فلما أَفْضَت إليه الخلافة شخَصْتُ أريدُه ، فوافيتُه يومَ جُمُعة وهو يَخْطُب الناس ، فتصدَّيت له ، فلما وَقَعَتْ عينُه علىَّ بَسَر[٢] فى وجهى ، وأعرَضَ عنِّى ، فقلت : لم يُثْبِتْنى معرفةً ولو[٣] عرَفنى ما أظهر نُكرَة . لكنّنى لم أَبْرَح مكانى حتى قُضِيَت الصلاة ودخل ، فلم أَلبَث أن خرَج الحاجِبُ إلىَّ فقال : مالك بن عُمارة ، فقمت ، فأَخذ بيَدى وأَدْخلنى عليه ، فلما رآنى مدّ يدَه إلىَّ وقال : إنَّك تراءيْتَ لى فى موضع لم يَجُزْ فيه إلا ما رأيتَ من الإعراض والانقباض ؛ فمرحباً وأهْلاً [وسهْلاً] ،

(١) انظر الحاشية رقم ١ ص ٢٧ من هذا الجزء .

(٢) فى (ا) « كشر » .

(٣) عبارة (ب) « أو عرفنى وأظهر » الخ .

كيف كنتَ بعْدَنا ؟ وكيف كان مَسيرُك ؟ قلتُ : بخير ، وعَلَى ما يحبُّه أميرُ المؤمنين . قال : أتذكرُ ما كنتُ قلتُ لك ؟ قلتُ : نعم ، وهو الذى أعملَنى إليك ؛ فقال : واللهِ ما هو بميراثٍ ادَّعَيْناه ، [ولا أثَرٍ وَعَيْناه] ، ولكنى أُخبرُك عن نفسى خِصالا سَمَتْ بها نفسى إلى الموضع الذى تَرَى ، ما لاحَيْتُ ذا وُدٍّ ولا ذا قَرَابة قطّ ، ولا شَمِتُّ بمصيبةِ عَدُوّ قَطّ ، ولا أعرَضْتُ عن محدِّثٍ حتى يَنْتهى ، ولا قصدتُ كبيرةً من محارِمِ اللهِ متلذِّذًا بها وواثباً عليها ، وكنتُ من قُرَيش فى بَيْتها ، ومنْ بَيْتها فى وَسَطه ، فكنتُ آمُلُ أنْ يرْفع اللهُ منى ، وقد فعَل ؛ يا غلام ، بَوِّئه منزلاً فى الدار . فأَخذَ الغلامُ بيَدى وقال : انْطَلِق إلى رَحْلك ؛ فكنتُ فى أَخفض حال ، وأنعم بال ؛ وكان يَسْمعُ كلامى وأسمعُ كلامَه ، وإذا حضَرَ عَشاؤه أو غدَاؤه أتانى الغلامُ وقال : إن شئتَ صِرْتَ إلى أمير المؤمنين فإنه جالس ، فأمشى بلا حِذاء ولا رِداء فيَرْفَعُ مَجْلِسى ، ويُقْبِلُ على محادَثتِى ، ويسألنى عن العِراق مرَّة ، وعن الحجاز مرَّة ، حتى مَضَتْ لى عشرون ليلة . فتغدَّيْتُ عنده يوماً ، فلمَّا تفَرّق الناسُ نَهَضْتُ للقيام ، فقال : على رِسْلِكَ أيُّها الرجل ، أىّ الأمرين أَحبُّ إليك : المُقام عندنا ، ولك النَصَفَة فى المعاشَرَة والمجالَسةِ مع المواساة ، أم الشُّخوص ولكَ الحِباء والكَرامة ؟ فقلتُ : فارَقْتُ أهلى ووَلَدى على أَنْ أَزُورَ أميرَ المؤمنين ، فإن أمرَنى اخترْتُ فِناءَه على الأهْل والوَلد ، قال : بل أَرَى لك الرُّجوعَ إليهم ، فإنهم مُتَطلِّعون إلى رؤيتك ، فتجدِّدُ بهم عَهْدًا ويجدِّدون بك مثلَه ، والخِيارُ فى زيارتِنا والمقامِ فيهم إليك ، وقد أَمَرْنا [لك] بعشرين ألفَ دينار ، وكسَوْناك وحَمَلْناك ، أتَرانى مَلأتُ يدَكَ أبا نَصْر ؟ قلتُ : يا أميرَ المؤمنين ، أراك ذاكراً لما رَوَيْت[1] عن نفسك .

---

(١) فى الأصل : « ورثت » .

قال : أجَلْ ، ولا خيرَ فيمن يَنْسى إذا وَعَد ؛ وَدِّعْ إذا شئتَ صَحِبَتْك السلامة .

قال الوزير : ما أَحْلَى هـذا الحديث ! هاتِ ما بعده ، قلتُ : قال يحيى بن أبى يَعلَى : لمّـا قَدِمَ المـالُ من ناحيةِ عمرَ بنِ عبد العزيز — رحمه الله — على أبى بكر بن حَزْم ، قَسَمه بين الناس فى المدينـة ، فأصاب كلُّ إنسان خمسين دينارًا ، فدَعَتْنى فاطمةُ بنت الحسين — عليه السلام — فقالت : اُكتُبْ ، فـكتبْت : بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبدِ الله عمرَ أميرِ المؤمنين من فاطمة بنت الحسين سلامُ [الله] عليك ، فإنّى أَحْمَدُ إليك اللهَ الذى لا إلٰهَ إلاّ هو ، أمّا بعد ، فأَصلَحَ اللهُ أميرَ المؤمنين وأعانَه عَلَى ما تَوَلاّه ، وعَصَمَ به دِينَه ، فإنَّ أميرَ المؤمنـين كتَبَ إلى أبى بكر بن حَزْم أن يَقْسِمَ فينا مالاً من الـكَتيبة ، ويتحرّى بذلك ما كان يَصْنَع مَنْ قبلَه من الأَئمّـة الراشدين المهديِّين ، وقد بلَّغَنا ذلك ، وقَسَمَ فينا ، فوَصَلَ اللهُ أميرَ المؤمنين ، وجزَاه من والٍ خيرَ ما جَزى أحدًا من الوُلاة ، فقد كانت أصابَتْنَا جَفْوَةٌ ، واُحتَجْنا إلى أنْ يُعْمَل فينا بالحقّ ؛ فأُقْسِمُ باللهِ يا أميرَ المؤمنين لقد اُختَدَمَ من آلِ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مَن لا خادِمَ له ، واُكتَسَى مَن كان عاريا ، واُستَقَرَّ مَن كان لا يَجِدُ ما يَسْتَقِرُّ [به] . وبعَثَتْ [إليه] رسولا .

قال يحيى : فحدَّثنى الرسولُ قال : قَدِمْتُ الشّامَ[1] عليه ، فقرأ كتابَها وإنّه لَيَحْمَدُ اللهَ ويَشْـكُره ، فأمر لى بعَشَرَة دنانير ، وبعث إلى فاطمة خَمسَمائة دينار ، وقال : اُستَعينى بها على ما يَعْرُزك ، وكتب إليها كتابا يَذْكُرُ فيـه فَضْلَهَا وفَضْلَ أَهْلِ بَيْتها ، ويَذْكُر ما فَرَض اللهُ لهم من الحق .

(١) فى (ا) « العراق » ؛ وهو تبديل من الناسخ .

فرقّ الوزير عند هـذا الحديث وقال : أَذْكَرْتَنى أَمْرَ العَلَوِيّة ، وأَخذ القلم ، وأُستمدَّ من الدواة ، وكتَب فى التَّذْكِرة شيئا ، ثم أَرْسـل إلى نَقيب العَلَوِيّة العُمَرىّ فى اليوم الثانى بأَلْف دينار ، حتى تُفَرَّقَ فى آل أبى طالب ، وقال لى : هذا من بركة الحديث .

﴿٣﴾ ثم قال : كيف تَطَاوَلَ هؤلاء القومُ إلى هذا الأَمْرِ مع بُعْدِهم من رَحِمِ رسولِ الله صلى الله عليه [وآله] وسلم وقُرْبِ بنى هاشم منـه ؟ وكيف حدَّثتْهم أنفُسُهم بذلك ؟ إنَّ عَجَبى من هذا لا يَنْقَضى ، أَيْنَ بنو أُميّة وبنو مَرْوَان من هٰذا الحديث مع أحوالهم المشهورة فى الدين والدنيا ؟

فقلت : أيُّها الوزير ، إذا حُقِّق النَّظر واستُشِفَّ الأصل[1] لم يكن هذا[2] عجيبا ، فإنَّ أَعجازَ الأمور تالية لصدورها ، والأسافلَ تاليـةٌ لأعاليها ، ولا يزال الأمرُ خافياً حتى يَنْـكَشِفَ سببُه[3] ويزول التعجُّب [منه] ، وإنما بَعُد هذا على كثير من الناس ، لأنّهم لم يُعنَوا به وبتَعَرُّف أوائله والبَحثِ عن غوامِضِه ، ووَضْعِه فى مواضعه ، وذهبوا مَذْهَبَ التعصُّب .

قال : فما الذى خَفِىَ حتى إذا عُرِفَ سَـقَط التَّعجُّب ولَزِم التسليم ؟ فكان من الجواب : لا خِلافَ بين الرُّواة وأصحابِ التاريخ أن النبى صلى الله عليـه وسلم تُوُفِّى وعَتّابُ بنُ أَسِيدٍ على مكّة ، وخالد بنُ سعيد على صَنْعاء ، وأبو سُفْيان ابن حَرْب على نَجْران ، وأبانُ بن سـعيد بن العاص على البحرين ، وسعيدُ ابن القِشْب الأَزْدِىّ حَلِيفُ بنى أميّة على جُرَش ونحوها ، والمهاجرُ بنُ أبى أميّة

(١) فى (أ) « الأمر » .
(٢) فى (أ) « لم يكن بعيدا عجيباً » .
(٣) فى (أ) « حتى تنكشف نفسه » ؛ وهو تحريف .

المَخْزومىُّ على كِنْدَةَ والصَّدِف ؛ وعمرو بنُ العاص على عُمان ، وعُثمان بن أبى العاص على الطائف . فإذا كان النبى — صلّى الله عليه وسلّمَ — أسَّسَ هذا الأساس ، وأظهَرَ أمرَهُمْ لجميع الناس ؛ كيف لا يَقْوَى ظَنُّهم ، ولا يَنْبَسِطُ رَجاؤهم ، ولا يَمْتَدُّ[1] فى الولاية أَمَلُهُم ؟ وفى مقابلةِ هذا ، كيف لا يَضْعُف طَمَعُ[2] بنى هاشم ، ولا يَنْقَبض رَجاؤهم ، ولا يَقْصُر أَمَلُهُمْ ؟ وهى الدنيا ، والدِّين عارضٌ فيها ، والعاجِلَة محبوبة ، وهذا وما أَشْبَهَهُ حَدَّدَ أَنيابَهُمْ ، وفَتَحَ أبوابَهم ؛ وأَتْرَعَ كَأْسَهُمْ ، وفَتَلَ أَمْراسَهُمْ ، وَدَلائِلُ الأُمورِ تَسْبِق ، وتَباشِيرُ الخَبَر تُعرَف .

قال ابن الكلبى : حدَّثنى الحَكَمُ بنُ هِشام الثَّقَفىُّ قال : مات عبيد الله ابنُ جَحْشٍ عن أمِّ حبيبةَ بنتِ أبى سُفْيان ، وكانت معه بأرْضِ الحَبَشة ، فخطَبَها النبىُّ صَلّى الله عليه وسلّم إلى النَّجاشىّ ، فدعا بالقُرَشيِّينَ فقال : مَنْ أَوْلاكُمْ بأمْر هذه المرأة ؟ فقال خالدُ بنُ سعيدِ بنِ العاص : أنا أَوْلاهم بها . قال : فزوِّج نبيَّكم . قال : فزَوَّجه ومَهَرَ عنه أربعَمائة دينار ؛ فكانت أوَّلَ امرأة مُهِرَتْ أربعَمائة دينار ؛ ثمّ حُمِلَتْ إلى النبىّ صلّى الله عليه وسلّم ومعها الحَكَم بنُ أبى العاص ، فجعل النبىُّ صلّى اللهُ عليه وسلم يُكْثِر النظرَ إليه ، فقيل له : يارسولَ الله ، إنك لتُكْثِر النَّظَرَ إلى هذا الشابّ . قال : أليس ابنَ المخزوميّة ؟ قالوا : بلى ؛ قال : إذا بَلَغ بنو هذا أربعينَ رجُلًا كان الأمرُ فيهم ، وكان مروانُ إذا جَرَى بينَه و بينَ مُعَاوِيةَ كلامٌ قال لمعاوية : واللهِ إنى لأبو عَشَرة ، وأخُو عَشَرة ، وعَمُّ عَشَرة ، وما بقِى إلا عشرة حتى يكونَ الأمرُ فىّ ؛ فيقول معاويةُ بنُ أبى سُفْيان : أخَذَها واللهِ من عَيْنٍ صافِيَةٍ .

---

(١) فى (ا) : « يحيذوا » ، وفى (ب) : « يحيد » ؛ وهو تصحيف فى كلتيهما .
(٢) فى (ب) : « أمل » .

فهذا — كما تَسْمَعُ — إن كان حقًّا فلا سبيل إلى رَدِّه ، وإن كان مُفتَعَلا فقد صارَ داعيةً إلى الأمر الّذى وَقَعَ النزاعُ فيه ، وجال الخِصامُ عليه .

وهاهنا شيء آخر .

قال القَعْقاع بنُ عمرو : قلتُ لعليّ بن أبى طالب — عليه السلام — . ما حَمَلَكُمْ على خلافِ العباسِ بنِ عبد المطَّلب وَتَرْكِ رَأْيِه ؟ وهذا يَعْنِى به أنّ العباسَ كان قال لعليٍّ — عليه السلام — فى مرض النَّبىّ صلّى الله عليه وسلم : قم بنا إليه لِنَسْأَلَه عن هذا الأمر ، فإن كان لنا أشاعَهُ فى النّاس ، وإن كان فى غيرنا وَصَّى فينا ، وكان علىٌّ عليه السلام أَبَى على عمِّه العباسِ ولم يُطاوِعْه — قال القعقاع : قال أمير المؤمنين علىّ بنُ أبى طالب — عليه السلام — فى جوابه لى : لو فعَلْنا ذَلك فجعَلَها فى غَيْرنا بعد كلامِنا لم نَدْخُلْ فيها أبداً ، فأحببتُ أن أَكُفَّ ، فإنْ جَعَلَها فينا فهو الّذى نريد ، وإن جَعَلَها فى غيرنا كانَ رَجاءُ مَنْ طَلَبَ ذلك مِنّا مَمْدوداً ، ولم يَنْقَطِع مِنّا ولا من الناس . قال القَعْقاع : فكان الناسُ فى ذلك فرقتين : فرقةٌ تَحزَّب للعباس وتَدِين له ، وفرْقةٌ تَحزَّب لِعَلِيٍّ وتدين له . فهذا وما أَشْبَهَه يُضْعِفُ نفوساً ، ويَرْفَعُ رُءوساً ؛ و بعد فهذا البيتُ خُصَّ بالأمر الأوَّل ، أعنِى الدَّعْوَةَ والنبوّةَ والكتابَ العزيز ، فأما الدنيا فإنها تَزُول من قوم إلى قوم ، وقد رُؤِىَ[1] أبو سُفْيانَ صَخْرُ بن حَرْب وقد وقف على قبر حمزةَ بن عبد المطلب وهو يقول : رحمك الله يا أبا عُمارة ، لقد قاتلتَنا على أمرٍ صار إلينا .

---

(١) كذا فى ب وعبارة ا وقد روى أنه وقف أبو سفيان صخر بن حرب على قبر حمزة بن عبد المطلب وهو يقول .

فإن قال قائل : فقد وصل[١] هذا الأمرُ بعد مدّةٍ إلى [آل] النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ فالجواب : [صَدَقْتَ] ، ولكن لمّا ضَعُفَ الدِّين وتَحَلْحَلَ[٢] رُكْنُه وتداوَلَه الناسُ بالغلَبة والقَهْر ، فتطاوَلَ له ناسٌ من آل رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعَجَمِ وبقُوّتِهِم ونَهْضَتِهم وعادَتِهم فى مساوَرَة المُلُوك ، وإزالة الدُّوَل ، وتناوُلِ العِزّ كيف كان ، وما وَصَلَ إلى أَهْلِ العدالة والطهارة والزُّهْدِ والعِبادة والوَرَع والأمانة ، ألا ترى أن الحالَ اُستحالت عَجَما : كِسْرَوِيَّةً وقَيْصَرِيّة ، وأين هٰذا من حديثِ النبوّة الناطقة ، والإمامة الصادقة ؛ هذا الربيعُ — وهو حاجب المنصور — يَضْرِب مَن شَمَّتَ الخليفةَ عند العَطْسَة ، فيُشْكَى ذلك إلى أبى جَعْفر المنصور ، فيقول : أصابَ الرجالُ السُّنّةَ وأَخطأَ الأدب . وهذا هو الجهل ، كأنّه لا يَعْلَمَ أَنّ السنّة أَشْرَفُ من الأدب ، بل الأدبُ كلُّه فى السُّنّة ، وهى الجامِعَةُ للأدَبِ النبويِّ والأمرِ الإلٰهى ، ولكن لما غلبت عليهم العِزّة[٣] ، ودَخَلت النعَرة فى آنافِهم ، وظَهرت الخُنْزُوانَةُ[٤] بينهم ، سَمّوا آيينَ[٥] العَجَم أدَباً ، وقدَّموه على السُّنّة التى هى ثمرَة النبوّة ، هذا إلى غير ذلك من الأُمور المعرُوفة ، والأحوال المتعالَمَة المتداوَلة التى لا وَجْهَ لذِكرها ، ولا فائدة لنشرها ، لأنها مقرَّرةٌ فى التاريخ . ودائرةٌ فى عُرْضِ الحديث .

ولما كانت أوائلُ الأُمور على ما شرَحْتُ ، وأَواسِطُها على ما وَصَفْتُ ، كان من نتائجها هذه الفِتَن والمذاهبُ ، والتعصّبُ والإفْراطُ ، وما تَفاقمَ منها وزاد

---

(١) فى (ب) : « صار » .
(٢) تحلحل ركنه ، أى تزعزع وزال عن موضعه .
(٣) فى كلتا النسختين « الحريه » ؛ وهو تحريف .
(٤) الخنزوانة : الكبر .
(٥) آيين العجم : عرفهم وعاداتهم ؛ وهى كلمة فارسية .

ونمـا وعلا وتَراقَى ، وضاقت الحِيلُ عن تَدارُكه و إصلاحه ، وصارت العامّةُ مع جَهْلِها، تجدُ قُوَّةً من خاصّتِها مع عِلْمِها ، فسُفِكت الدِّماء ، واستُبيح الحريم ، وشُنَّت الغارات ، وخُرِّبت الديارات ، وكَثُر الجِـدال ، وطال القِيلُ والقال ، وفَشَا الـكَذِب والمُحال ، وأصبَحَ طالبُ الحقِّ حَيْران ، ومحبُّ السلامة مَقْصُوداً بكلِّ لسانٍ وسِنان ، وصار الناسُ أحزاباً فى النِّحَل والأديان ، فهذا نُصَيْرِىّ (١) ، وهذا أَشْجَعِىّ (٢) ، وهـذا جارُودِىّ (٣) ، وهذا قَطْعِىّ (٤) ، وهذا جُبّائىّ ، وهذا أشعَرِىّ (٥) ، وهذا خارجىّ ، وهذا شُعَيبِىّ (٦) ، وهذا قَرْمَطىّ (٧) ، وهذا

---

(١) النصيرية : فرقة من غلاة الشيعه ، كانوا يؤلهون عليا ، وكان منهم ناس فى زمن على ابن أبى طالب حَدَّرهم . وينسبون إلى رجل اسمه نصير .

(٢) كذا ورد هذا اللفظ فى (١) وحدها ؛ ولم نجد الأشجعيّة فيما راجعناه من الـكتب المؤلفة فى الفرق .

(٣) الجارودية : فرقة من الزيدية نسبت إلى أبى الجارود زياد بن أبى زياد ، ويزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نص على إمامة علىّ بالوصف دون الاسم ، وكفّروا الصحابة لتركهم بيعة على .

(٤) القطعيـة ، ويقال لهم : الاثنا عشرية أيضا ، وذلك لدعواهم أن الإمام المنتظر هو الثانى عشر ، وهؤلاء يسوقون الإمامة من جعفر الصادق إلى ابنه موسى ، ويقطعون بموت موسى ، ويزعمون أن الإمام بعده سبط محمد بن الحسن الذى هو سبط على بن موسى الرضا .

(٥) الجبائية والأشعرية : فرقتان من المتكلمين ، أولاهما تنسب إلى أبى على الجبائى وكانت المعتزلة البصرية على مذهبه ، ثم انتقلوا بعده الى مذهب أبى هاشم ابنه ، وسموا بعد البهشمية ، وثانيتهما تنسب إلى أبى الحسن الأشعرى من أهل السنة .

(٦) الشعيبيّـة : فرقة من الخوارج ينسبون إلى رجل منهم اسمه شعيب ، ويقولون فى القدر والاستطاعة والمشيئة قول الحازمية ، وهو موافق لقول أهل السنة فى ذلك .

(٧) القرامط والقرامطة : طائفة مشهورة من الزنادقة أتباع الفلاسفة من الفرس الذين يعتقدون نبوة زرادشت ومزدك ومانى ، وكانوا يبيحون المحرمات ، وكان ابتداء أمرهم فى سنة مائتين وثمـان وسبعين . راجع عقد الجمان للعينى فى حوادث هذه السـنة . ومن هذه الطائفة أبو سـعيد الحسن بن بهرام الجنابى ، وهو الذى أظهر مذهبهم ، وكان دقاقا ، فنفى عن بلده جنابة ، فخرج إلى البحرين وأقام بها تاجرا ، وجعل يستميل العرب بها ويدعوهم إلى نحلته حتى استجاب له أهل البحرين وما والاها ، وقتل سنة إحدى وثلاثمائة ، ثم ولى الأمر بعده ابنه أبو طاهر سليمان ، فـكان من قتله حجاج بيت الله الحرام ، وانقطاع طريق مكة فى أيامه =

راوَندِىّ[١] ، وهذا نَجّارِىّ[٢] ، وهذا زَعْفَرانِىّ[٣] ، وهذا قَدَرِىّ[٤] ، وهذ جَبْرِىّ[٥] ، وهذا لفظِىّ[٦] ، وهذا مستدرِكِىّ[٧] ، وهذا حارِثِىّ[٨] ، وهذا رافِضِىّ ؛ ومن لا يُحصِى عَدَدَها إلّا اللهُ الذى لا يُعجِزُه شىء ؛ لا جرَمَ شمِتَ اليَهودُ والنَّصارَى والمجوسُ بالمسلمين ، وعابوا وتكلَّموا ، ووَجَدُوا آجُرًّا وجِصًّا فَبَنَوا ، وسمعُوا فوق ما تمَنَّوْا [فروَوْا]

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « لا يزداد الأمر إلا صُعوبة ، ولا الناسُ إلا اتّباعَ هَوًى ، حتى تقومَ الساعةُ على شرارِ النّاس » . وقال أيضاً : « بدأَ الإسلامُ غريبا ، وسيعود كما بدأَ غريبًا ، فطوبى للغُرَباء من أُمَّتِى » .

= بسببه ، والتعدى فى الحرم وانتهاب الكعبة ونقله الحجر الأسود إلى القطيف والأحساء من أرض البحرين، مافد اشتهر ذكره ، وقد بقى الحجر الأسود عندهم إحدى وعشرين سنة ، ثم رد ببدول بذلت لهم ، وقد استوفى الطبرى وابن الأثير وغيرهما أخبار هذه الطائفة فى كتبهم فارجع إليها ، وانظر معجم البلدان فى الكلام على « جنابة » بتشديد النون وتاج العروس « مادة حبب » .

(١) الراوندية هم أتباع الراوندى أبى الحسين أحمد بن يحيى بن اسحاق من أهل مرو سكن بغداد وكان من متكلمى المعتزلة ، ثم فارقهم وتزندق وألف فى الرد عليهم ؛ ومات سنة ٢٩٨ .

(٢) النجارية : أتباع الحسين بن محمد النجار ، وقد وافقوا أهل السنة فى أصول ، والقدرية فى أصول ، وانفردوا بأصول .

(٣) الزعفرانية : أتباع الزعفرانى الذى كان بالرى ، وهم فرقة من النجارية .

(٤) القدرية : فرقة تنفى القدر عن الله عز وجل وتقول إن العبد مخير فى أفعاله ، وليس للقدر دخل فيها .

(٥) الجبرية : فرقة تثبت القدر لله عز وجل وتقول : إن العبد مجبر على أفعاله، وليس له اختيار فيها ، وإن أفعاله بمثابة الرعدة والرعشة .

(٦) كذا ورد هذا اللفظ فى كلتا النسختين ؛ ولم نجد فرقة بهذا الاسم؛ فلعله يريد بها الظاهرية الذين يأخذون بظاهر اللفظ .

(٧) المستدركة : فرقة من النجارية يزعمون أنهم استدركوا ما خفى على أسلافهم .

(٨) الحارثية : فرقة من الإباضية ، ينسبون إلى حارث بن مزيد الإباضى، وهم الذين قالوا فى باب القدر بمثل قول المعتزلة . وزعموا أيضاً أن الاستطاعة قبل الفعل ؛ وكفّرهم سائر الإباضية فى ذلك .

وقلتُ لأبن الجَلّاء الزاهدِ بمكة سنةَ ثلاثٍ وخمسين وثلاثمائة : ما صفةُ هذا الغريب ؟ فقال لى : يا بُنىّ هو الذى يَفِرّ من مدينةٍ إلى مدينة ، ومِنْ قُلّةٍ إلى قُلّة ؛ [ومن بلدٍ إلى بلد] ومن برٍّ إلى بحر ، ومن بحر إلى برّ ، حتى يَسْلَم ، وأنّى له بالسلامة مع هٰـذه النيران التى قد طافَتْ بالشرق والغرب ، وأتت على الحَرْث والنّسل ، ففدَّمَتْ[1] كلَّ أفْوَه ، وأسكتَتْ كلَّ ناطق ، وحيَّرَتْ كلَّ لبيب ، وأشرَقَتْ كلَّ شارِب ، وأَمَرَّتْ على كلِّ طاعم ؛ وإنّ الفِكْر فى هذا الأمر لَمُخْتَلسٌ لِلعَقْل[2] وكارِثٌ[3] للنَّفْس ، ومُحرِقٌ للكَبِد .

فقال الوزير : والله إنّه لكذلك ، وقد نالَ منِّى هذا الكلام ، وكَبُر علَىَّ هذا الخَطْبُ ، واللهُ المستعان .

ونظرتُ إليه وقد دَمَعتْ عيْنُه ورَقَّ فؤادُه وهو — كما تَعْلم — كثيرُ التَّأَلّه ، شديدُ التَّوَقِّى ، يصومُ الاُثنين والخميس ، فإذا كان أوّل رجب أصبَح صائماً إلى أولِ يوْمٍ مِنْ شوال ، وما رأَيْنا وزيراً على هذا الدَّأْبِ وبهذه العادة ، لا منافقا ولا مُخْلِصاً[4] ، وقد قال الله تعالى : (إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا) تولّاه اللهُ أحسَنَ الوِلاية ، وكفاه أكملَ الكفاية ، إنّه قريب مجيب .

فلمّا رأيتُ دمْعَتَه قلتُ : أيها الوزير ، رُوِى عن النبىِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « حُرِّمت النارُ على عينٍ بكتْ من خَشْيَةِ اللهِ ، [وحُرِّمَت النارُ على عين سهرَتْ فى سبيل الله] وحُرِّمتِ النار على عَيْنٍ غَضَّتْ عن محارِمِ الله » ،

(١) فدّمت ، من الفدامة ، وهى العىّ .
(٢) فى (١) : « الأمر » .
(٣) كارث للنفس : من كرثه الغم إذا اشتد عليه .
(٤) فى ا : « ولا لخاصا » ؛ وهو تحريف .

فقال — أحسنَ اللهُ توفيقَه — : هو الهلاكُ إن لم يُنْقِذ اللهُ بفَضْله ، ولم يَتَغَمَّدْ بعَفْوِه ؛ لو غرِقْتُ فى البحر كان[1] رجائى فى الخلاص منه أقوى من رجائى فى السلامة مما أنا فيه . قلتُ : إذا علِم اللهُ من ضميرِكَ هذه العقيدةَ أَلْبَسَك ثوبَ عفْوِه ، وحلّاكَ بشِعارِ عافيته وولَايتِه ، وكفاكَ كَيْدَ أعدائك ، وعصب برءوسهم ما يريدونه بك (إنَّ اللهَ مَعَ الّذِينَ اتَّقَوْا وَالّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ) .

فقال : اجمع لى جزءاً من رقائق العُبّاد وكلامِهِم اللَّطيف الحُلْو ، فإنّ مراميَهُمْ شريفة ، وسرائرَهم خالصة ، ومواعِظَهُمْ رادعة ، وذاكَ — أظنُّ — للدِّين الغالبِ عليهم ، والتألُّهِ المؤثِّر فيهم ؛ فالصِّدق مَقْرونٌ بمَنْطِقِهم ، والحقُّ مَوْصولٌ بقصْدهم ، ولستُ أَجِدُ هذا المعْنى فى كلام الفلاسفة ، وذاكَ — أظنُّ أيضاً — لخوضِهم فى حديثِ الطَّبائع والأفلاكِ والآثار وأحداث الزَّمان . قلتُ : أَفعل ، فكتبتُ تمامَ ما تقدَّم به ، ثم كتبتُ بعدُ ورَقاتٍ فى حديثِ النُّسَّاكِ .

(٤) قال عُتْبةُ بنُ المنذر السلمىّ : سئل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أىّ الأجَلَين قضَى موسى — عليه السلام — ؟ فقال : أكثرَهما وأوفاهُما ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنّ موسى — عليه السلام — لما أراد فراقَ شُعَيب أمرَ امرأته أن تَسْأَلَ أباها أن يُعطيَها من نَتاج غَنَمِه ما يعيشون به ، فأعطاها ما وَضَعَتْ غنَمُه مِنْ قالبِ[2] لونِ ذلك العامَ ، فلما وردت الحوْضَ وقفَ موسى بإزاء الحوْض فلم تَصْدُرْ منها شاةٌ إلّا ضربَ جَنْبَها بعصاهُ ، فوضعت قَوالبَ ألوان كلَّها ووضعَتْ اثنتين أو ثلاثةً كلُّ شاة،ليس فيهنّ فَشُوشٌ[3]

(١) فى (ا) : « كاف » ؛ وهو تحريف .
(٢) شاة قالب لون : إذا كانت على غير لون أمها .
(٣) الفشوش : الشاة التى ينفشّ لبنها من غير حلب .

ولاضَبوبٌ(١) ولاثعولٌ(٢) ولا كَميشَةٌ(٣) تفوتُ الكفَّ(٤) فإن افتتحتم الشامَ وجدتُم بها بقايا منها ، فاتَّخِذوها ، وهى السامريّة » .

قال جعفرُ بن أبى طالب للنَّجاشىِّ فى حديثٍ : بعث الله [تعالى] رسولا فينا نعرِف صِدْقَه وأمانَته ، فدعانا إلى الله [لنوحِّدَه] ونعبدَه ونَخلعَ ما كُنَّا نَعبُده ، وأمرَنا بصِدْقِ الحديث ، وأَداءِ الأمانة ، وصلة الرَّحِمِ ، وحُسنِ الجوار ، والكفِّ عن المحارِم والدِّماء ، ونهانا عن الفواحِش وقولِ الزُّور ، وأكلِ مالِ اليتيم ، وقَذْفِ المُحْصَنات .

وقال صاحب التاريخ : وَلَدَتْ لعمر بن الخطاب — رضوان الله عليه — أمُّ كلثوم بنتُ علىٍّ بن أبى طالب — عليه السلام — زَيْدًا ورُقيّة ؛ وأُمُّ أمِّ كلثوم فاطمة بنتُ النبىِّ صلى الله عليه وسلم .

قال أنَسُ بنُ مالك : صلّى الناسُ على رسول الله صلى الله عليه وسلم لمّا تُوُفِّىَ أفرادًا لم يَؤُمَّهُمْ عليه أحد .

ولمّا بلَغ رَسولُ الله صلى الله عليه وسلم ثمانِ سنِين ، هلك عبدُ المُطَّلِب ، وهو شَيْبَةُ أبو الحارث ، وذلك بعد الفيل بثمان سنين ، وتوفِّيت آمنةُ أمّه وهو ابنُ ستِّ سنين بالأبْواءِ بين مكّة والمدينة ، كانت قَدِمَت به على أَخْواله من بنى عَدِىِّ بن النجّار تُزِيرُه إيّاهم ، فماتت وهى راجعة إلى مكّة .

(١) فى القاموس : الضبوب : الدابة تبول وبعدو ؛ والشاة الضيقة الإحليل .
(٢) الثعول : الزائدة الأطباء ، وهى حلمات الضرع .
(٣) الكميشة من الشياه : الصغيرة الضرع التى انكمش ضرعها وتقلص .
(٤) فى (أ) : « بلون الكف » ؛ وهو تحريف . ووردت هذه الكلمة فى (ب) مطموسة الحروف تتعذر قراءتها . وتفوت الكف ، أى لا يمكن القبضُ على ضرعها بالكف لصغره .

الليلة الحادية والعشرون

وسأل مرّة عن المُغنِّى إذا راسله[١] آخر لِمَ يجب أن يكون ألَذَّ وأطْيَب ، وأحْلَى وأعْذَب ؟

فكان من الجواب : أنّ أبا سليمان قال فى جواب هده المطالب ما يمنع من أقتضاب قَوْلٍ وتكَلُّفِ جواب ، ذكر أنّ المسموع الواحدَ إنما هو بالحِسّ الواحد ، وربما كان الحِسُّ الواحدُ أيضا غليظا أو كَدِرا ، فلا يكون لنيله[٢] اللذّةَ به[٣] بَسْطٌ ونَشْوٌ ولَذاذَة[٤] ، وكذلك [المسموعُ ربّما لم يكن فى غاية الصَّفاء على تمامِ الأداء بالتقطيع] الذى هو نفَس فى الهواء ، فلا تكون أيصا إنالتُه للّذة على التّمام والوفاء ، فإذا ثنِّىَ[٥] المسموعُ — أعْنِى وَحَّدَ[٦] النَغَمُ بالنّغم — قوِىَ الحِسُّ المُدْرِك ، فنال مسموعين بالصناعة ، ومسموعا واحدا بالطبيعة : والحِسّ لا يعشق المُواحَدة[٧] والمناسَبة والأتّفاق إلّا بعد أن يجدها فى المركّب ، كما أن العقلَ لايعشق إلّا بعد أن ينالها فى فصاء البَسِيط[٨] : فكلّما قوِىَ الحسُّ باستعماله ، ألتذّ صاحبه بقوّته حتى كأنه يسمع ما لم يَسمع بحِسٍّ أو أكثر ، وكما أن الحسّ إذا كان كَلِيلا [كان الذى ينالُه كليلا] ، كذلك الحسّ إذا كان قويّا كان ما يناله قويّا .

---

(١) راسله آخر ، أى تابعه فى غنائه مساندة له .

(٢) فى كلتا النسختين : « فلا يكون بيله اللذة » ؛ وهو تحريف .

(٣) به أى بالمسموع .

(٤) فى كلتا النسختين : « وقسر وولاية » ولا معنى لهاتين اللفظتين هنا ؛ فلعل صوابهما ما أثبتناه أو ما يفيد معنيهما .

(٥) فى كلتا النسختين : « فأدن الأنس المسموع » ؛ وهو تحريف لا معنى له ؛ ولعل صوابه ما أثبتنا أو ما يفيد معناه .

(٦) فى كلتا النسختين : « توجد » ؛ وهو تصحيف .

(٧) فى (ب) «المؤاخدة» وفى (أ) « الواحدة » ؛ وهو خطأ فى كلتيهما .

(٨) فى (أ) « بقاء النشيط » ؛ وهو تحريف .

قال : هـذا كلّه موهوبٌ للحسّ ، فما للعقل فى ذلك ؟ فإنَّا نَرَى العاقلَ تعتريه دَهْشةٌ وأَرْيحيّة واهتزاز . (٢)

قلت : قد أتى على مجموع هذا ومعرفته أبو سليمان فى مذاكرته لابن الخمّار ، وذَكَرَ أنّ من شأن العقل السُّكون ، ومن شأن الحِسّ التهيُّج ، ولهذا يوصف العاقل بالوَقار والسكينة ، ومَنْ دُونه يُوصَفُ بالطَّيْش والعجرَفة ، والإنسان ليس يجدُ العَقْلَ وِجْدانًا فيلتذَّ به ، وإنما يعرِفه إمَّا جُملةً وإمّا تفصيلا ؛ أَعْنِى جُملةً بالوسم وتفصيلا بالحَدّ ، ومع ذلك يَشْتاقُ إلى العقل ، ويتمنّى أن يناله ضربًا من النَّيْل ويجدَه نوعا من الوجدان ، فلما أبرزَت الطبيعةُ الموسيقِى فى عرض الصِّناعة بالآلات المهيَّأة ، وتحرّكتْ بالمناسبات التامَّة والأشكال المتفقة أيضاً ، حَدَثَ الاعتدال الذى يُشعِر بالعقل وطُلوعِهِ وانكشافِه وانجلائه ، فبَهَرَ[1] الإحساس ، وبَثَّ الإيناس ، وسوَّقَ إلى عالَمِ الرُّوح والنَّعيم ، وإلى محلّ الشرف العميم ، وبَعَثَ على كَسْب الفضائل الحِسّية والعقليّة ، أعنى الشجاعةَ والجودَ والحلمَ والحكمةَ والصبرَ ، وهذه كلُّها جِماعُ الأسباب المكمِّلةِ للإنسان فى عاجِلَتِه وآجِلَتِه ؛ وبالواجب ما كان ذلك كذلك ، لأن الفضائل لا تُقْتَنَى إلا بالشَّوق إليها ، والحرص عليها ، والطَّلبِ لها ؛ والشوقُ والطلبُ والحِرْصُ لا تكون إلّا بمشَوِّقٍ وباعثٍ وداعٍ ، فلهـذا برَزَتِ الأريحيَّةُ والهِزّةُ ، والشوقُ والعِزّة ؛ فالأريحيَّة للرُّوح ، والهِزّة للنفس ، والشوقُ للعقل ، والعِزّة للإنسان . ومما يجب أن يُعلَمَ أنَّ السَّمْع والبصرَ أخصُّ بالنفس من الإحساسات الباقية ، لأنهما خادِما النفسِ فى السرّ والعلانيـة ، ومؤنِساها فى الخَلْوة ، ومُمِدّاها فى النَّوم واليَقَظة ؛ وليست هـذه الرتبةُ لشىء من الباقيات ، بل الباقيات آثارُها فى الجسد[2] الذى هو مطيّة الإنسان ،

(١) فى كلتا النسختين « فقهر » وهو تحريف .
(٢) فى (أ) « فى الحد » ؛ وهو تحريف .

لكنّ الفرقَ بين السمعِ والبصرِ فى أبواب كثيرة : ألطفُها أنَّ أشكالَ المسموع مركّبةٌ فى بسيط ، وأشكالَ المبصَر مبسوطة فى مركّب .

قلت : وقد حكيتُ هذا لأبى زكريَّاء الصَّيْمَرِىّ فطَرِبَ وأُرْتاحَ وقال : ما أبعدَ نظَرَ هٰذا الرجل ! وما أرْقَى لحظَه ! وما أعزَّ جانبَه !

الليلة الثانية والعشرون

(١) وقال لى مرّة أخرى : اِرْوِ لى شيئاً من كلامِ أبى الحسن العامرىّ ، فإنى أرَى أصحابَنا يرذِّلونه ويُذِيلونه ، ولا يَرَوْن له فى هذه العُصْبة قدَما ، ولا يرفعون له فى هٰذه الطائفة عَلَما .

فقلت : كان الرجل لكَزَازته وغِلَظِ طِباعه وجَفاء خُلُقه ينفِّر من نفسه ، ويُغْرِى الناسَ بعِرْضه ، وإذا طُلِبَ منه الفنُّ الذى قد خُصَّ به وطُولِبَ بتحقيقه وُجِد على غاية الفَضْل .

فمن كلامه قوله : الطبيعة تتدرَّج فى فِعْلِها من الكلِّيَّات البسيطة ، إلى الجزئيَّات المركّبة ، والعقل يتدرَّج من الجزئيَّات المركّبة ، إلى البسائط الكلّيّة ، والإحاطة بالمعانى البسيطة تحتاج إلى الإحاطة بالمعانى المركّبة ، ليُتوَصَّل بتوسُّطِها إلى استِثْباتِها[1] ، والإحاطةُ بالمعانى المركّبة تحتاج إلى الإحاطة بالمعانى البسيطة ليُتوصَّل بتوسطها إلى تحقيق إثباتِها[2] . وكما أن القوّة الحِسِّيَّة عاجزةٌ بطباعها عن استخلاص البسائط الأوائل ، بل تحتاج معها إلى القوَّة العاقلة ،

(١) فى (ب) « أسباب إثباتها » وفى ا « إثبات اثباتها » وكلتا العبارتين غير ظاهرة المعنى ؛ فلعل الصواب ما أثبتنا .

(٢) فى ب «ما يبالها» وفى (ا) «مسابتها» وهو تحريف فى كلتيهما .

وإن قَوِيتْ لصار العقلُ فَضْلا — كذلك أيضا القوّة العاقلة لا تَقْوَى بذاتها على استثبات المركّبات إلا من جهة القوة الحسّاسة ، ولو قَوِيت عليه لصار الحسُّ فَضْلا [للعاقلة] .

قال : هذا كلامٌ بارعٌ من صَدْرٍ واسع ، وأُحِبُّ أن تزيدَنى من نَمَطِه .

قلت : وقال أيضا : الكُلِّىُّ مُفْتقِرٌ إلى الجُزْئى لا لأن يصير بدَيْمُومته محفوظا [بل لأن يصيرَ بتوسُّطه موجودا ، والجزئى مُفتقر إلى الكلّىّ لا لأن يصير بتوسُّطه موجودا ، بل لأن يصير بديمومَتِه محفوظا] .

وقال : الحالُ فى جميع السُّبُل — أعنِى مَسالكَ الأشياء فى تَكَوُّنها[1] صناعيّةً كانت أو تدبيريّةً أو طبيعيَّةً أو اتفاقيةً — واحدة ، مِثالُه أنّ الإنسان وإن التَذّ بالدَّسْتَنْبان[2] فلن يُعَدّ موسيقاراً إلّا إذا تحقّق بمبادئه الأُوَل التى هى الطَّنينات وأنصاف الطَّنينات ، وكذلك الإنسان وإن استطاب الحُلْوَ فلن يسمَّى حَلْوانيًّا إلّا إذا عَرَف بسائطَه وأُسْطُقُسَّاته .

وقال : العلمُ لا يحيط بالشىء إلّا إذا عَرَف مبادئَه القريبةَ والبعيدةَ والمتوسِّطة .

وقال : نتوصَّل إلى كُرِيَّة القمر بما نراه من اختلاف أشكاله ، أعنى أنَّا نراه فى الدَّوْرة الواحدةِ هلاليًّا مرَّتين ومنصَّفا مرّتين وبَدراً مرّةً واحدة ، وهٰذه الأشكال وإن كانت متقدِّمةً عندنا فإن كونَه كُرِيًّا هو المتقدِّم بالذات .

وقال : ما هو أكثر تركيبا فالحسُّ أَقْوَى على إثباته ، وما هو أقلُّ تركيبا

---

(١) فى كلتا النسختين « بالتكون » بالباء ؛ والصواب ما أثبتنا كما يظهر لنا .

(٢) فى كلتا النسختين « الدستبان » ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا نقلا عن كتاب الألفاظ الفارسية المعرّبة ، والدستنبان كلمة فارسية مركبة من كلمتين : دستان ، وهو من اصطلاحات أصحاب الموسيقى . وأصل معناه النغمة . وبان ، أى الذى يضرب به ؛ ويقال أيضا دستاوان ، وهو معرّب الأول .

فالعقل أخْلَصُ إلى ذاته .

وقال : الأحداث — وهى الذواتُ الإبداعِيَّةُ — الوقوفُ على إثباتها يغْنِي عن البحث عن ماهيّاتها .

وقال : كلُّ معنًى يُوجَدُ بوجودِه غيرُه لا يرتفع بارتفاع ذلك الذى هو غيرُه ، بل يرتفع غيرُه بارتفاعه ، فإنه أقدمُ ذاتا من غيره ، مثالُه الجنس لا يرتفع بارتفاعِ واحـــدٍ من أنواعه ، والأنواعُ ترتفع بارتفاع الجنس ، وكذلك حالُ النَّوع مع الشخص ، فالجنس أقدم من النوع ، والنوعُ أقدَمُ من الشخص ، وأعنى بالجنس والنوع الطبيعيَّين لا المنْطِقِيَّين .

وقال : معرفتنا أوَّلا تتعلق بالأشخاص الجزئية ثم بتوسّطها نبتت الأجناس فإذاً المتقدِّم بالذات غيرُ المتقدِّم إلينا .

وقال : مَسْـــلَكُ العقل فى تعرُّف المعانى الطبيعية مقابِلٌ لمسلك الطبيعة فى إيجادها ، لأنّ الطبيعة[1] تندرّج من الكلّيّات البسيطة إلى الجزئيَّات المركّبة ، والعقل يندرّج من الجزئيات المركّبة إلى البسائط الكلّيّـة .

قال أبو النصر نفيس : إنما كان هذا هكذا لأن الطبيعة متناولة من العقل والعقل مُناوِلٌ للطبيعة ، فوَجبَ أن يختلف الأمران ، فإن قال قائل : فهلا تمَّ الأمران معاً بواحدٍ منهما ، أعْني الطبيعـة أو العقل ؟ فالجواب أنَّ أحدَهُما فى العُلْوِ ، والآخَرُ فى السُّفْل ، فليس للعالى أن يَهبِط ، ولا للسافل أن يَعْلو ؛ فلمّا كان هذا محالًا توَسَّطَ بينهما — أعنى العالىَ والسافلَ — المناوَلةُ والتّناوُلُ حتى اتَّصل الأوّلُ بالثانى ، وغصّ الفضاء بينهما بضروب الأفراد والأزواج ، وانتظم

(١) قد سبق ما يفيد هذا المعنى فى أول كلام أبى الحسن العامرى فانظره .

الكلّ فلم يكن فيه خَلَل ، ولا دونه مَأْتَى ، ولا وراءه متوهَّم .

وقال : الإنسان مركَّب من الأعضاء الآليَّة بمنزلة[١] الرأسِ واليَدَينِ والرِّجْلَين وغيرها ، ثم كلٌّ واحد من هذه الأعضاء مركَّب من الأعضاء المتشابهة الأنواع بمنزلة[١] اللحمِ والعَظْمِ والعَصَبِ والشُّرْيان ، ثم كل واحد من هذه الأعضاء مركَّب من الأخلاط الأربعة التى هى الدم والبلغم والمُرِّيَّان ، ثم كلٌّ واحد من هذه الأخلاط مركب من الأُسْطُقُسَّات الأربع التى هى النار والهواء ، والأرضُ والماء ؛ ثم كلٌّ واحدٍ من هذه الأُسْطُقُسَّات مركَّب من الهَيولى والصورة .

وقال : كما أن لكل عضو قوةً تخصه بتدبيرها ، كذلك لجميع البدن قوّةٌ أخرى ضامنةٌ لتدبيره .

قال : وقال الحكيم فى كتاب « السماء »[٢] : علَّةُ الأنواع والأجناس ودوامُها هى الفلك المستقيم ، وعلة كون الأشخاص وتجدُّدِ حُدوثها هى الفَلَك المائل ، فأما الكلّيات المنطقية فإن طبيعتها هى القوة [القياسية المستنبَطة لها] عند تكوّن[٣] الحسِّ على واحدٍ منها. قال أبو النصر نفيس : هذا حُكْمٌ بالوَهْم ، ورَأْىٌ خرَجَ من الظَّنّ ؛ الفَلَكُ المستقيم والفَلَكُ المائل هما بنوع الوَحدة ونِسْبَةِ الاتفاق[٤] ، فليس لأحدهما اختصاص بالأنواع والأجناس ، ولا بتجدُّدُ الأشخاص ، والدليل على هذا أن قالبًا[٥] لو قُلِب[٦] قالَبه ذلك لم يكن له عنه انفصال. وللرَّأْيِ زَلّات ، كما أنّ لِلّسان فلَتَات ،

(١) يلاحظ أن تعبيره هنا بقوله « بمنزلة » فى كلا الموضعين اللذين تحت هذا الرقم غير مناسب كما لا يخفى . والصواب أن يقول فى كلا الموضعين : « التى هى » الخ .

(٢) يعنى كتاب « السماء والعالم » لأرسطو .

(٣) كذا فى « ب » . والذى فى (ا) « عند تكرر الحس » .

(٤) فى (ب) : « الاختيار » .

(٥) فى (ا) : أن فلانا ؛ وهو تحريف .

(٦) فى كلتا النسختين « لو قلت عليه ذلك » وهو تصحيف لا معنى له . وسياق الكلام يقتضى ما أثبتناه .

وللحكيم (١) هَفَوات ، كما أنّ للجواد عَثَرات ؛ وما أكثرَ من يَسكَر فيقول فى سُكْرِه ما لا يَعرف ، وما أكثرَ من يغْرَق (٢) فى النوم فيَهذِى بما لا يدرى ، ومن الذى حَقّق عنده أنّ الفَلك المستقيم هذا نعته ، والفلكَ المائلَ تلك صِفَته ؛ هذا توهُّم وتلفيق ، لا يرْجِعُ مُدّعيه إلى تحقيق ، وقولُ أبى الحسن هذا عن الحكيم تقليدٌ ، كما أنّ دَعوى ذاك الحكيم توهُّم ، ومَحَبّةُ الرِّجال للرِّجال فتنةٌ حاملةٌ على قبول الباطل ، وبُغْضُ الرِّجال للرِّجال فتنةٌ حاملةٌ على رَدِّ الحق ؟ وهذا أمرٌ قد طال منه الضَّجيج ، وفُزِع إلى الله منه بالتضرّع .

قال أبو الحَسن : الموجود له حقيقةٌ واحدةٌ لا تُدْرَك إلّا عَقْلا ، وليس له مَبْدأ ، ولو كان له مَبْدَأٌ لشارَكه المبدأُ فى طبيعة الوُجود ، وليس بمتحرِّك لأنه لا مقابلَ له فيتحرّكُ إليه .

وقال أبو النصر نفيس : عَنَى بهذا الموجود الحقَّ الأوّلَ الّذى هو علّة العِلل ، وهو البارئ الإله ، وما أنصَف ، لأنّه يجب أن يَقْسِمَ الموجودَ بأقسامه ، ويَصِف مرتبةَ كلِّ موجود على ما هى عليه وعلى ما هو به حتى ينتهى [مِنْ] هذا الموجود (٣) الأعلى إلى آخر الموجود الأسفَل ، أو يصفَ الموجودَ الأسفل حتى يرتقى إلى هذا الموجودِ الأعلى ، فإنّه لاشىء ممّا يَعقِل ويُحِسّ إلّا وله من هذا الوُجودِ نصيب به أُستَحقّ أن يكون موجوداً ، وإن كان ذلك النَّصيبُ قليلا .

وقال : قد يوصف الشىء بأنّه واحد بالمعنى وهو كثير بالأسماء ، ويوصَف بأنه واحد بالاسم وهو كثير بالمعنى ، ويوصَف بأنه واحد بالجِنْس وهو كثير بالأنواع ،

(١) كذا فى ب والذى فى (ا) « وكما أن للحكيم » ؛ وهو تحريف .
(٢) فى (ا) « يعرف » ؛ وهو تصحيف .
(٣) عبارة (ب) : « حتى ينتهى من هذا الموجود إلى آخر الموجود الأعلى » ؛ وهى غير مستقيمة .

ويوصف بأنه واحد بالنَّوع وهو كثير بالشُّخوص ، ويوصَف بأنه واحد بالاُتّصال وهو كثير بالأجزاء ، وقد نقول فى شىء : إنه واحد بالموضوع وهو كثير بالحدُود ، كالتفّاحة الواحدة التى يُوجد فيها اللّون والطَّم والرّائحة ، وقد يكون واحداً فى الحَدّ وكثيراً فى الموضوع ، كالبياض الذى يوجد فى الثَّلج والقُطْن والإسْفِيداج ، وقد يكون كثيراً بالحدّ والموضوع كالعِلْم والحرَكة ، فإنّ موضوعَ هذا الجِسْمُ ، وموضوعَ ذاكَ النفسُ ، وحدُّ أحدهما غيرُ حَدّ الآخَر ، وقد يكون واحداً بالموضوع والحدِّ بمنزِلة السَّيفِ والصَّمْصام ؛ وقد نقول أشياء تكون واحدةً بالفعل ، وهى بالقوة كثيرة ، كالسِّرَاج الواحد ؛ فأما أن يكون واحداً بالقوّة وكثيراً بالفعل من وجهٍ واحد ، فلا يكون ، بل من جهات مختلِفة .

قال أبو النصر نفيس : الواحد الذى ينقسم وتنشأ منه الكثْرَة غيرُ الواحد الذى لا ينقسم ، والكثير الذى يتوحّد حتى يكون واحداً غيرُ الكثير الذى لا يتوحّد ، فالواحد الذى لا ينقسم علّة الواحد المنقسم ، والكثيرُ الذى يتوحّد هو علّة الكثير الذى [لا] يتوحّد ، وبالحكمة الإلٰهية ما كان هكذا حتى يكون الكثيرُ الذى يتوحّد فى مقابلة الكثير الذى لا يتوحّد ، والواحدُ الذى ينقسم فى مقابلة الواحدِ الذى لا ينقسم ، وهذه المقابلة هى عبارة عن صورة التمام الحاصِل للكلِّ ، وليست هى عبارة عن صورةٍ مزاحمةٍ لصورة ، أو كثرةٍ غالبةٍ لكثرة ، المستغاثُ بالله مِن قصور العبارة عن الغاية ، وتقاعُس اللّفظ عن المراد .

وقال[1] : يُعجبنى من جُمْلة الحِكَم الأمثالُ التى يَضربونها ، والعُيونُ التى يستخرجونها ، والمعانى الّتى يقرّبونها . قلت : صدقتَ ، مِثْلُ قولِ فيلسوف : (٢

(١) وقال ، أى الوزير .

البدَن للنّفْس بمنزلة الدُّكّان للصانع ، والأعضاء بمنزلة الآلات ، فإذا انكسرتْ آلات الصانع وخُرِّب الدُّكان وانهدَم ، فإنّ الصانع لا يَقدِر على عمَله الذى كان يَعْمَله إلا أن يتّخذ دُكاناً آخَر ، وآلاتٍ جُدَدًا أُخَر .

قال : أُحبّ أن أسمعَ شيئاً من مَنْثُور كلامِهمْ فى فنون مختلفة .

قلتُ : قال فيلسوف : العاقل يَضِـلّ عَقْلُه عند محاوَرَة الأَحمَق . قال أبو سليمان : هذا صحيح ، ومثالُه[1] أنَّ العاقل إذا خاطَبَ العاقلَ فهِمَ وإن اختلفتْ مرتبتاهما فى العَقْل ، فإنهما يَرْجِعان إلى سِنْخ[2] العقل ، وليس كذلك العاقلُ إذا خاطَبَ الأحمق ، فإنهما ضدّان ، والضّدّ يَهرُب من الضّد : وقد قيل لأبى الهُذيل العلّاف — وكان مُتكلّمَ زمانه — : إنّك لَتُناظِر النّظّام وتَدُور بينكما نوْبات ، وأحسنُ[3] أحوالنا إذا حضَرْنا أن ننصرف شاكّين فى القاطع منكما والمقطع ، ونراك مع هذا يُناظِرُك زَنْجَوَيه الحمّالُ فيَقْطَعك فى ساعة .

فقال : يا قوم إن النظّام معى على جادّة واحدة لا ينحرف أحدُنا عنها إلّا بقَدْر ما يراه صاحبُه فيُذكّره انحرافَه ، ويَحْمِله على سَنَنه فأمْرُنا يَقْرُب ، وليس هكذا زنجويه الحمّال فإنه يبتدئ معى بشىء ، ثم يَطفر إلى شىء بلا واصلة ولا فاصلة ، وأبقَى ، فيُحكَمُ علىّ بالانقطاع ، وذاك لعجزى عن ردّه إلى سَنَن الطريق الذى فارَقَنى آنفاً فيه .

وقال فيلسوفٌ آخر : العادات قاهرات ، فمن اعتاد شيئا فى السّرّ فضحَه فى العلانية .

(١) كان صواب العبارة أن يقول : « وذلك لأن العاقل » الخ ، إذ لا يخفى أن الكلام الآتى تعليل لما سبق لا مثال .

(٢) سنخ العقل : أصله .

(٣) فى كلتا النسختين « قال أحسن » الخ وقوله « قال » زيادة من الناسخ .

قال أبو سليمان : وهذا صحيح ، لأن حقيقة العادة فى[1] الشىء المعهود عَوْدُه بعد عَوْده ، وهى — أعنى العادةَ — بالاستمرار الّذى يَقهر من اعتاده ، والخَلْوة حال ، والعَلانية حال ، والعادة بجرَيانها تَهْجُمُ فى الحالَين ولا تفرِّق ؛ ولهذا ما قيل : العادة هى الطبيعة الثانية ؛ كأنّ الطبيعة عادة ، ولكنها الأُولى بالجِبِلّة[2] ؛ والعادة طبيعة ولكنّها الأخرى بحسن الاختيار أو بسوء الاختيار .

وقال فيلسوف : ما أكثرَ من ظَنَّ أنّ الفقير هو الّذى لا يَملك شيئاً كثيراً وهذا فقير من جهة العرَض ، فأمّا الفقير الطبيعىُّ فالّذى شَهواتُه كثيرة وإن كان كثيرَ المال ؛ كما أن الغنيَّ الطبيعىَّ لا يحتاج إلى شىء وإن كان قليل المال ، أى الّذى ملك نفسَه وقمَعَ شهوانِه وأَخْمَدَ لَهَبَ إرادَتِه ؛ وقد ظَنَّ قومٌ أنّ الّذين مَنَعوا من الشّهوات ، ورَضُوا بالزُّهد فى اللّذات ، خانوا الناسَ وحالوا بينهم وبين حُظوظِهم ، وحَرَموهم ما هو لهم ، وصدُّوهم عن محبوباتِهم ؛ وهذا ظَنٌّ خطأ ، وأىُّ مُرادٍ فى هذا للواعظين والمزهِّدين ، والذين وَصَّوْا وأشفقوا ، ورَدَعُوا عن الخوْض فى لذّات النفوس الغضبيّة والبهيميّة ؟ والله ما كان ذلك منهم إلاّ على طريق النصيحة والشفقة والإعذار والإنذار ، إلاّ أن يكون الّذين ظنوا هذا إنما ظنّوه لأنهم رأَوْا بعضَ المزهِّدين راغبا ، وبعضَ الناصحين غاشّا ، وبعضَ الآمرين مخالفا ، وليس العمل على المُحْتال ، وعلى من آثَرَ الغِشَّ فى المقال ؛ ولكنّ المَرجِع إلى ما يدلّ عليه الحقّ ، ويَشهد له العَقْل ، ويصحُّ فيه البرهان ؛ أتَرَى الفيلسوفَ غَشّ فى قوله لأصحابه : اِقنَعوا بالقُوت ، وانْفُوا عن أنفسكم الحاجة ، ليكون لكم قربة إلى الله ، لأنّ الله غيرُ محتاج ، فكلّما احتجتُم أكثر كنتم

(١) فى كلتا النسختين : « عن الشىء » .
(٢) فى كلتا النسختين : « بالجملة » ؛ وهو تحريف .

منه أبعَد ، وأُهربوا من الشرّ والإثم ، وأُطلبوا من الخير أعمَّه وأعظمَه ، وأبقاه وأدْوَمه ؛ وأعرِفوا الأبَد ، وأُطلبوا السَّرْمَد ، فإنّ مَن طَلَب الأبَدَ ثم وَجَدَ بَقِى على الأبَد ، ومَن طَلَبَ الأمد ثم وَجَد فنىَ على الأمد .

الحاجةُ ذُلٌّ ، والغِنَى عِزّ ، والعِزّ ضدّ الذلّ ؛ فمن طلب العِزَّ فى العاجلة فقد طَلَبَ الذُّلّ وهو لا يدرى ، ومن طلب العزَّ فى الآجلة فقد وَجَدَ العِزّ وهو يدْرِى .

فى الحكمة[١] أن يقال : اِصبِر على الذُّلِّ لِتنالَ العِزّ ، وليس فى الحكمة أثبُت على العِزِّ لِتنالَ الذلّ ، هذا معكوس .

الليلة الثالثة والعشرون

(١) وكان الوزيرُ رَسَمَ كتابة لُمَعٍ من كلامِ الرّسولِ صلى الله عليه وسلم ، فأفردْتُ ذلك فى هذه الورَقات ، وهى :

قال صلى الله عليه وسلم : « أشَدّ الأعمال ثلاثة : إنصافُ الناسِ مِنْ نفْسِك ، ومُواساةُ الأخِ من مالك ، وشكرُ الله تعالى على كلّ حال » .

وقال الواقِدِىّ : لمّا غالَطَ خالدُ بنُ الوليد عبد الرحمن بن عوف قال النبىُّ — صلى الله عليه وسلم — يا خالد : ذَرُوا لى أصحابى ، لو كان لك أُحُدٌ ذهباً تنفقه قراريط فى سبيل الله لم تُدْرِك غَدْوَةً أو رَوْحَةً من عبد الرحمن .

وقال عليه السلام : « إن أحدكم إذا قام إلى الصلاة تَبَشْبَشَ[٢] الله إليه ، وإن أخّرها أعرض عنه » .

---

(١) عبارة (ب) : « وبيان الجملة أن يقال » .

(٢) التبشبش من الله تعالى : الرضا والإكرام .

وقال عليه السلام : « إنما فدَكُ[١] طُعْمَة أطعَمنيها الله حياتى ، ثم هى بين المسلمين » .

وقال عليه السلام : « المقوِّم قد يأثَمُ ولا يَغْرَمُ » .

وقال عليه السلام فى دعائه : « اللّهمَّ اجْمَع على الهُدَى أمْرَنا ، وأَصْلح ذاتَ بَيْنِنا ، وأَلِّفْ بين قلوبِنا ، واجعل قلوبَنا كقلوب خِيارِنا ، واهدِنا سواءَ السبيل وأخْرِجْنا من الظُّلمات إلى النُّور ، واصرف عنَّا الفواحشَ ما ظَهَرَ مِنها وما بَطَن ، اللّهم مَتِّعْنا بأسماعِنا وأبصارِنا وأزواجِنا وذُرِّياتِنا ومعايشنا ، اللّهم اجعلنا شاكِرين لنعمتِك ، وتُبْ علينا إنّكَ أنت التَّواب الرَّحيم » .

وقيل له صلى الله عليه وسلم : إنَّ فلانا اُستُشهد ، فقال : « كلاَّ ، إن الشَّمْلةَ التى أَخَذَها من الغنائم يومَ حُنَيْن استَعَلَتْ عليه ناراً » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « من اُطَّلع من صُبْرِ[٢] بابٍ ففُقِئَت عينُه فهى هَدَر » .

وقال صلى الله عليه وسلم لرجل يَذبحُ شاةً : « أَرْهِف شَفْرَتك ، فإذا فَرَيْت فأَرِحْ[٣] ذبيحَتَك ، ودَعْها تَجُبُّ وتنشخُب ، فإنَّ ذلك أَمْرَى للدَّمِ وأحلى للَّحْم » .

وقال عليه السلام : « خيرُ النّاسِ الغنىُّ الخفِىُّ التقىُّ » .

وقال : « التَّاجرُ الصَّدُوق إنْ مات فى سَفَره كان شهيدا ، أو فى حَضَرِه كان صدِّيقاً » .

---

(١) ودك : بلدة بخيبر .

(٢) صبر الباب وغيره بكسر الصاد وضمها : ناحيته وحرفه ؛ والذى فى كلتا النسختين «صبير» ولم نجد له معنى يناسب السياق .

(٣) فى كلتا النسختين « فأرخ » ؛ وهو تحريف ؛ وما أثبتناه عن كتب الحديث .

وقال [صلى الله عليه وسلم] : « ظهرُ المؤمن مِشجَبُه ، وبطنُه خِزانتُه ، ورِجْلُه مَطِيَّتُه ، وذَخيرتُهُ رَبُّه » .

وقال [صلى الله عليه وسلم] : « ما نقصَ مالٌ من صَدَقَة ، فتصدَّقوا ، ولا عَفَا رَجُلٌ عن مَظْلَمَةٍ إلاّ زادَه اللهُ عزَّ وجلَّ عِزًّا وعَفْوًا ، فاعْفُوا ؛ ولا فتحَ رجلٌ على نفسِه بابَ مَسْئَلةٍ إلاَّ فتحَ اللهُ عليه سبعين باباً من الفَقْر ، فاستعِفّوا » .

وقال عليه السلام : « أجوَدُ الأعمالِ الجودُ فى العُسْر ، والقَصْدُ فى الغَضَب ، والعفْوُ عند المَقْدرة » .

وقال عليه السلام : « إنّ بين مِصْرَاعَيْ بابِ الجنَّة مسيرةَ مائة عام ، وليأتينَّ عليه يومٌ وهو كَظيظٌ من الزحام »

وَفَد على رسول الله صلى الله عليه وسلم رسولُ قومٍ من بنى عامر يستأذِنُه فى المَرْعَى حولَ المدينة ؛ فقال عليه السلام : إنها ديارٌ لا نَضيق عن جارِنا ، وإنّ جَارَنا لا يُظْلَمُ فى ديارِنا ، وقد أجاءَتْكم الآرِمة[(١)] ، فنحن نأذن لكم فى المَرْعَى ونَشْرِكُكم فى المأوى ، على أنّ سَرْحَنا[(٢)] كسَرْحِكم ، وعابِيَنا كعابيكم[(٣)] ، ولا تُعينوا علينا بعدَ اليوم ؛ فقال : لا نعين عدوا ما أقمنا فى حوارك ، فإذا رَحَلْنا فإنما هى العَرَب نَطْلب آثارَها ، وتَشْفى ذُحولَها : فقال عليه السلام : يا بنى عامر ، أما عَلِمتُم أنّ اللؤمَ كلَّ اللؤم أنْ تَتَحاسَدوا عند الفاقة ، وتبيعوا عند العزّة ، فقال : وأبيك إنّ ذلك للؤم ، ولن نبغيك غائلةً بعد اليوم ، فقال : اللهمّ أشهد ، وأذن لهم .

وسئل صلى الله عليه وسلم : كيف يأتيه الوَحْى ؟ فقال : « فى مِثْل صَلْصَلَة الجَرَس ، ثم يَنْفَصِم » .

---

(١) الآزمة : الشدّة . (٢) السرح : المال السائم .

(٣) كذا وردت هذه الكلمة فى كلتا النسختين .

وقد روى ابن الكلبي عن أبيه عن ابن صالح ، عن ابن عبّاس قال : لما كان يومُ بَدْر، قال عليّ — عليه السلام — للمقْداد : أَعْطِنى فرَسَك أَرْكبْه، فقال له رسول الله صلّى الله عليه وسلم : أَنت تقاتِلُ راجلا خيرٌ منكَ فارسا . قال : فركبه ووَتَر قوْسَه ورَمَى فأصاب أُذُنَ الفرَس فصَرمَه ، فضَحِك النبيُّ صلّى اللهُ عليه وسلم حتى أمسَكَ على فيه ، فلما رأى عليٌّ ضَحِكَه غَضِبَ فسلَّ سَيْفَه ، ثم شَدَّ على المشركين ، فقتل ثمانيةً قبل أن يرْجِع ، فقال عليٌّ — صلوات الله عليه — : لو أَصابنى شرٌّ من هٰذا كنتُ أَهْلَه حين يقول : « أنت تقاتِلُ راجلا خيرٌ منكَ فارسا » ، فعصَيْتُه .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إنَّ امرأً عَرَفَ اللهَ وعبَدَه وطَلَبَ رضاه وخالَفَ هَواه لحقيقٌ أن يفوزَ بالرحمة » .

لما وَرَدَ محمد بنُ مَسْلَمَةَ على عَمْرو بن العاص من جهةِ عمر بن الخطاب رضِيَ الله عنه ، صنَع عمرو له طعاماً ودعاه إليه ، فأبى محمدٌ ، فقال عمرو : أَتُحرِّمُ طعامى ؟ قال : لا ، ولكنى لم أُومَرْ به . فقال عمرو : لعَنَ الله زمانا عَمِلْنا فيه لابن الخطاب ، لقد رأيتُه وأباه وإنهما لفى شَمْلة ما توارى أَرْسَاغهما ، وإن العاصى بنَ وائل لفى مقطَّعات الدِّيباج مزرّرَةً[1] بالذّهب . فقال محمد : أمّا أبوك وأبو عُمَرَ ففى النار ، وأما أنت فلولا ما وَلِيت لِعُمَر لألْفَيْتُكَ معتقِلا[2] عَنْزاً يَسُرُّكَ غُزْرُها[3] وبسوءك بَكْؤُها[4] ، فقال عمرو : المجالس[5] أمانة ، فقال محمد : أمّا ما دام عمرُ حيًّا فنعَم .

(١) فى بعض الروايات « مزوره » بالواو قبل الراء ، أى مزينة .

(٢) فى العقد الفريد « مقتعداً » .

(٣) كذا فى العقد الفريد ج ١ يريد غزارة لبنها . والذى فى الأصل « غروها » ، وهو تحريف .

(٤) البكء : قلة اللبن .

(٥) عبارة العقد الفريد « هى عندك بأمانة الله » .

دخل النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم على فاطمة — عليها السلام — يعودها مِنْ عِلّة ، فبكت ، فقال رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم : ما يُبْكِيكِ ؟ فقالت : قِلّةُ الطُّعْم ، وشِدّةُ السُّقم ، وكثرةُ الهم .

قال عبد الله بنُ مسعود : شرُّ الأمور محدثاتُها ، وشَرُّ الغِنَى غِنَى الإثم ، وخيرُ الغِنَى غِنَى النفْس ، والخمْرُ جِمَاعُ الإثْم ، والدنيا حِبالةُ الشيطان ، والشبابُ شُعْبَةٌ من الجنون .

قيل له : أتقول هذا من تلقائك ؟ قال : لا ، بل مِنْ تِلْقاء مَنْ فرَضَ اللهُ عليّ طاعتَه .

وقال أبو ذَرّ [رحمةُ الله عليه] : قال [لى] رسول الله — صلّى الله عليه وسلم — يا أبا ذَرّ : إنى أراكَ ضعيفا ، وإنى أُحِبُّ لكَ ما أُحِبُّ لنفسى ، لا تأمَّرَنَّ على اثنين ، ولا تَوَلَّيَنَّ مالَ يتيم .

وقال أبو هُرَيرة : عن النبيّ — صلى الله عليه وسلم — ستحرصون على الإمارة ، وستكون حَسْرةً وندامةً يومَ القيامة ، فنعمت المُرضِعة ، وبئست الفاطمة .

أبو أُمامةَ يَرْفَعُه ، قال : ما مِنْ رَجُلٍ يَلِى أمر عَشَرةٍ إلا يُؤْتَى به يوم القيامة مَغْلولا أطْلَقَه العدل ، أو أوثَقَه الجوْر

قال العبَّاس للنّبيّ صلى الله عليه وسلم : أمِّرْنى يا رسول الله فأصيب[1] .

قال عبدُ الله بنُ عَمرو بن العاص : إنَّ رَجُلا جاء إلى النجاشيّ فقال له :

(١) كذا وردت هذه العبارة فى كلتا النسختين ؛ ولا معنى لقوله هنا «فأصيب» كما أن فى العبارة نقصا سقط من الناسخ ؛ وقد رواها صاحب العقد الفريد كاملة فى الجزء الأول ص ٢٤ طبع لجنة التأليف ، فذكر أن العباس رضى الله عنه طلب من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولاية ؛ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ياعمّ ، نفس تحييها خير من ولاية لا تحصيها .

أقرضنى ألفَ دينار إلى أَجَل ، فقال : مَن الكفيلُ بك ؟ فقال : اللهُ . فأعطاه الألفَ ، فلمّا بلغ الأَجَل أراد الرَّدَّ ، فحبسَتْه الرِّيح ، فعَمِل تابوتاً وَجعَل فيه الألف وغلّفه ، وألقاه فى البحر ، وقال : اللهمَّ أَدِّ حمالَتكَ ؛ فخرج النّجاشيُّ إلى البَحر فرأى سَواداً ؛ فقال : ائتونى به . فأتَوْهُ بالتّابوت ، ففَتَحه ، فإذا فيه الألْف ، ثم إنَّ الرَّجل جَمَع ألْفاً بعد ذلك ، وطابت الرِّيح ، وجاء إلى النَّجاشيّ فسلَّم عليه ؛ فقال له النَّجاشيّ : لا أقبَلُها منكَ حتى تُخْبِرنى بما صنعتَ فيها . فأَخْبَرَه بالّذى صنَع ؛ فقال النَّجاشيّ : فقد أدّى اللهُ عنك ، وقد بلغَت الألْفُ فى التابوت ، فأَمسِكْ عليكَ ألْفَك[1] .

رأى أبو هُرَيْرَة رجُلا مع آخر ، فقال : مَنْ هذا الذى معك ؟ قال : أبى . قال : فلا تمْشِ أمامه ، ولا تَجْلِس قبْلَه ، ولا تدْعُه باسمه ، ولا تَسْتَسِبَّ[2] له .

قال أبو هُرَيْرة : كان جُرَيْجٌ يتعبَّد فى صَوْمَعَته ، فأتتْ أُمُّه فقالت : يا جُرَيْج ، أنا أُمُّكَ ، كلِّمنِي ؛ فقال : اللهمَّ أُمّى وصَلاتى ؛ فاُختار صلاتَه ، فرجعَتْ ثمَّ أَتَتْه ثانيةً فقالت : يا جُرَيْج ، كَلِّمْنى ، فصادفتْه يُصَلِّى فقال : اللهمَّ أُمِّى وصلاتى ، فاُختار صلاتَه ، ثم جاءته فصادَفَتْه يصلِّى ، فقالت . اللهمَّ إنَّ هـذا ابنى قد عَقَّنى فلَم يكلِّمنى فلا تُمِتْه حتى تُرِيَه المومِسات ، ولو دَعَتْ عليه أن يُفْتَن لفُتِنَ ؛ قال : وكان راعى ضأن يأوى إلى دَيره ، فخرجت امرأةٌ من القَرْيَة ، فوقع عليها الرَّاعى ، فحملتْ فوَلَدتْ غلاماً ، فقيل لها : ممّن هـذا ؟ فقالت : مِنْ صاحِب هذه الصَّوْمَعة ، فأَقبَل الناسُ إليه بفُؤوسِهِم ومَساحِيهِم

(١) يلاحظ أن هذه القصة لا تدخل فى كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى عنون به المؤلف هذا الباب وكذلك بعض القصص الآتية بعد .

(٢) أى لا تعرّضه للسب بأن تسبّ أحداً فيسبّ الآخر أباك .

فَبصروا به ، فصادَفوه يصلِّي ، فلم يكلِّمهُم، فأخذوا يهْـدِمون ديْرَه ، فنزَلَ وتبسَّمَ ومَسَحَ رأْس الصَّبيّ وقال : من أبوك ؟ فقال : أبي راعي الضَّأْن . فلمَّا سَمِـعَ القومُ ذلك راعَهُمْ ، وعجِبوا ، وقالوا : نحن نَبْنى لكَ ما هَدَمْنا بالذَّهب والفِضَّة . قال : لا ، أعيدُوها كما كانت تُرابًا ؛ ثم عاد .

وقال أبو الدَّرْداء : لا يُحافِظ على سُبْحَةِ الضُّحَى إلّا أوَّاب .

وقال أيضًا : ليس على سارق الحَمَام قَطْع .

وقال : إذا أُحتَرَثْتُم أرضًا فلا تَخْتَاروا أرمينيةَ ، فإنّ فيها قطعةً من عذابِ الله ، يعنى البَرْد .

أبو هُريرةَ يرْفعُه : ويلٌ للعُرَفاء ، ويلٌ للأُمَناء ، ليَتمَنَّيَنَّ أقوامٌ يومَ القيامةِ أنّهم كانوا متعلِّقين بين السماء والأرض يَتَذَبْذَبون من الثُّرَيَّا ، وأنهم لم يَلُوا عَمَلًا .

قال النبيّ صلى الله عليه وسلم لعبد الرحمن بن سَمُرَة : « لا تَسأَلِ الإمارة ، فإنّكَ إن أُعْطيتَهَا عن مسئَلةٍ وُكِلْتَ إليها ، وإن أُعْطيتَها عن غير مَسـئَلةٍ أُعِنْتَ عليها » .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « كلكم راعٍ ومسؤولٌ عن رعيّته ، فالأميرُ راعٍ على الناس وهو مسؤولٌ أقام أمرَ الله فيهم أم ضيّع ؛ والمرأة راعيةٌ على بيتها وما وَليتْ من زوجِها ، ومسئولةٌ عنهم أقامت أمرَ الله فيهم أم ضيّعتْ ؛ والخادمُ مسؤولٌ عن مال سيّده أقامَ أمرَ اللهِ فيــه أم ضيّع » . هكذا رواه ابنُ عُتْبَةَ عن نافع عن أبن عُمَر .

قال عياض الأشعريّ : قَدِم أبو موسى على عُمر ومعــه كاتبٌ له ، فرَفَع

حِسابَه ، فأعجَبَ عمر . وجاء إلى عمر كتابٌ ، فقال لأبى موسى : أين كاتبُك يقرأ هذا الكتاب على النّاس ؟ قال : إنّه لا يَدْخُل المسْجِد . قال : لِمَ ؟ أجُنُبٌ هو ؟ قال : إنه نَصْرانىّ . قال : فأنتهَرَه ، وقال : لا تُدْنِهِمْ وقد أقصاهُم الله ، ولا تُكْرِمْهُم وقد أهانَهُم الله ، ولا تأتَمِنْهم وقد خوَّنَهم الله .

قال عبدُ الله بنُ نافع : جاء رَجُلان من الأنصار إلى النبى — صلى الله عليه وسلم — يختصمان فى مَوارِيثَ بينهما قد دَرَسَتْ ليس بينهما بيّنة ، فقال صلى الله عليه وسلم : إنكم لتختصمون إلىّ و إنما [أنا بَشَر ، ولعل بعضكم ألْحَنُ بحُجَّته من بعض ، و إنما] أقْضِى بينكم على نحوِ ما أسمَعُ منكم ، فمن قَضَيْتُ له من حَقِّ أخيه شيئاً فلا يأخُذْه ، فإنّما أقْطَع له قِطْعَةً من نار ، يأتى بها إسطاماً[1] فى عُنُقِه يومَ القيامة . قال : فبكى الرَّجُلان ، وقال كلٌّ واحد منهما : حقّى لأخى ؛ فقال صلى الله عليه وسلم : أمَّا إذ قلتُما هذا فاذهَبا فاسْتَهِما ، وتَوَخَّيا الحقّ ، وليُحَلِّل كلٌّ واحد منكما صاحبَه . وفى رواية أخرى : اذهَبا فاصطَلِحا .

ورَوَى ابنُ عباس أنّ رسولَ الله — صلى الله عليه وسلم — كتب إلى النّجاشىّ أصْحَمة : سلامٌ عليكَ فإنى أحمدُ إليكَ اللهَ الملكَ القُدّوسَ السلامَ المؤمنَ المُهَيْمِنَ ، وأشْهَدُ أنّ عيسى بنَ مريمَ روحُ الله وكلمته ، فكتَبَ النَّجاشىّ : إلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم من النَّجاشىّ أصْحَمة بن أبْجَر : سلامٌ عليكَ يا نبىَّ اللهِ مِنَ اللهِ ورَحْمَتُه وبركاتُه .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : «الكافرُ خَبٌّ[2] ضَبٌّ ، والمؤمن دَعِبٌ لَعِب» .

وقال رَجُلٌ للنبى — صلى الله عليه وسلم — : اعْدِلْ فإنّكَ إلى الآنَ

---

(١) الإسطام : مسمار النار ، وهى الحديدة التى تسعر بها .

(٢) الخب : الخداع . والضب : الحقد ؛ يريد ذا حقد ؛ ووصفه بالمصدر .

لم تَعْدِل . فقال : وَيْلَكَ ! إذا لم أعْدِلْ أنا فمَنْ يَعْدِل ؟ .

وقال صلَّى الله عليه وسلَّم : « إنّ الواجِدَ(١) يُبِيحُ ظَهْرَه وعِرْضَه » .

وقال عُمَر : رَدِّدِ الخُصومَ كَىْ يَصْطَلِحوا .

وقال عليه السلام : لا تَحْلِفُوا بأَيْمَانِكم ، ومَنْ حَلَفَ بالله فَلْيَصْدُق ، ومن حُلِفَ له فليَقْبَل .

وقال : مَن حَلَف يَميناً كاذِبَة يَقْتَطِعُ بها مالَ امرئٍ مُسْلِمٍ لقِيَ اللهَ وهو عليه غَضْبان .

وقال : مَنْ حَلفَ يميناً ورأى غيرَها خيراً منها فليأتِ الذى هو خيرٌ ، ولْيُكَفِّرْ عن يمينه .

وقال — عليه السلام — لا تُسافِرِ المرأةُ ثلاثةَ أيّامٍ إلاّ مع ذى مَحْرَم .

حدَّثنا أبو السائب القاضى عُتْبَةُ بنُ عُبَيْد قال : حدَّثنا محمدُ بنُ المَرْزُبان قال : حدَّثَنا المُغيرة قال : حدَّثنا محمدُ بنُ العبّاس المِنْقَرِيُّ قال : كان شَرِيكُ ابنُ عبدِ الله على القضاء بالكوفة ، فقَضَى على وكيلٍ لِعَبْدِ اللهِ بنِ مُصْعَب بقَضاء لم يوافِقْ عبدَ الله ، ولَقِيَ شَرِيكاً ببَغداد ، فقال له : قضيتَ على وَكِيلى قضاء لا يُوافِقُ الحقَّ . قال : مَنْ أنتَ ؟ قال : من لا تنْكِر . قال : قد نَكِرْتُكَ أشَدَّ النَّكِير . قال : أنا عبدُ الله بنُ مُصْعَب . قال : فلا كبيرٌ ولا طيّب . قال : كيف لا تقول هذا وأنتَ تَشْتُمُ الشَّيْخَين . قال : من الشَّيْخان ؟ قال : أبو بكرٍ وعُمَر . قال : والله لا أَشْتُمُ [أباكَ] وهو دونهما ، فكيف أشتمهما وهما فوقى وأنا دونهما ؟ .

---

(١) الواجد : ذو الوجد ، وهو الغضب . يريد أن الغضب ينسيه حفظ ما يجب عليه حفظه .

وقال عُقْبَة بنُ عامر الجُهَنِيّ : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما مِنْ رجل يُؤْتَى الدُّنيا ويُوَسَّع له فيها وهو لِلّه على غير ما يُحِبّ إلاّ وهو مُسْتَدْرَج ، لأنّ الله تعالى يقول : (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَاهُمْ مُبْلِسُونَ ، فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) . قال ابنُ الأَنبارِيّ : قولُه صلى الله عليه وسلم إلاّ وهو مُسْتَدْرَج ، معناه إلاّ وهو مُسْتَدْعٍ هَلَكته ، مأخوذٌ من الدّارج ، وهو الهالِك ، يقال هو أَعْلَمُ مَنْ دَبَّ وَدَرَج ، ويُرادُ بدَرَجَ : هَلَكَ ؛ وبدَبَّ : مَشَى.

وقال سعيدُ بنُ عامر بنِ حُزَيْم ، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم « إنّ لله أُمَناء على خَلْقِه يَضَنُّ بهم على القَتْل يُعيشُهُمْ فى عافية ، ويُميتُهُمْ فى عافية » .

قال ناشِرَةُ بنُ سُمَيّ : سمعتُ عمرَ بنَ الخَطّاب رضى الله عنه يقول يوم الجابية : إنّى قد نَزَعْتُ خالدَ بنَ الوليدِ وأَمَّرْتُ أبا عُبَيْدَة ، فقال رَجُلٌ : والله لَقَدْ نَزَعْتَ عاملا اُستعْمَله رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، وأَغْمَدْتَ سَيْفًا سَلَّه رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلّم ، ووضعتَ لِواءً شَدَّهُ رَسولُ الله صلى الله عليه وسلم . فقال عُمَر : إنّك لَشابٌّ قَرِيبُ القَرابة ، وهذا القائلُ هو أبو عَمْرو بنُ حَفْصٍ بنِ المُغيرة ابن عَمِّ خالد .

قال قَبيصة بن المُخارِق : نَهَى رَسولُ الله عَن الطَّرْق [1] والعِيافَةِ والخَطِّ .

قال النبي صلى الله عليه وسلم : « الصَّدَقَةُ على المَساكين صَدَقَة ، وعلى ذِى الرَّحِم اُثنتان : صِلَةٌ وصَدَقة » .

قَبيصة بن المخارِق وزُهير بن عَمْرو قالا : لما نَزَلَتْ : (وأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ

(١) يريد بالطرق طرق الحصى وبالخط الخط فى الرمل لاستطلاع الغيب كما هو معروف .

الأَقْرَبين) ، انطَلَقَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى رَضْمةٍ[١] من جَبلٍ فعلَا أعْلاها حجراً ، وقال : يا بَنِي عبدِ مَناف ، يا بنى فهر ، إنما مَثَلى وَمَثَلُكم كمثل رَجُلٍ رَأَى العَـدُوَّ فانطَلَق يُرِيدُ أَهْلَه ، وخَشِيَ أن يَسْبِقُوه إلى أَهْلِه ، فجعل يَهْتِفُ وا صَباحاه .

النُّعمانُ بنُ بَشِير وقَبيصة قالا : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « إن الشمس والقمرَ لا يَنْكَسِفان لموتِ أحدٍ ولا لحياتِه ، ولـكن الله إذا تجَلَّى لشىء مِنْ خَلْقه خَشَع » .

تَزَوَّجَ رَجُلٌ امرأةً فماتَ قَبْـلَ أَنْ يَدْخُلَ بها ، ولم يُسَمِّ لهـا صَداقًا ، فسُئِل ابنُ مَسْعود فقال : لها صَداقُ إحْدَى نسائه ، لا وَكْسَ ولا شطَط ، وعليها العِدّة ، ولها الميراث . فقام أبو سِنان فى رَهْطٍ مِنْ أَشْجَع ، فقالوا : لقد قَضَى فيها بقضاء رَسُول الله صلى الله عليه وسلم فى بِرْوَعَ بنتِ واشِقٍ الأَشْجعِية .

عُقْبَةُ السُّلَمِىُّ قال : قال رسول الله — صلى الله عليـه وسلم : — « إذا تباطأَتِ المغَازِى وكَثُرت الغَرائم واُسْتُوثِرَ بالغنائم فخيرُ جِهادِكُم الرِّباط » .

حِبّان الأنصارىّ قال : إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم خطَبَ الناسَ يومَ حُنَينٍ فأحلَّ لهم ثلاثةَ أشياء [كان نَهاهُمْ عنها ، وحَرَّمَ عليهم ثلاثة أشياء] كان النـاسُ يحِلُّونها ، [أحَلَّ لهم[٢]] أكْلَ لحومِ الأضاحى ، وزيارةَ القبور والأَوْعية[٣] ، ونهاهم عن بِياع المغْنَم حتى يُقْسم ، ونَهاهُمْ عن النِّساء مِن السَّبايا

(١) الرضمة : الصخرة العظيمة .

(٢) لم ترد هذه العبارة فى الأصول .

(٣) فى الأصل : « والأدعية » ؛ وهو تحريف . ويريد بالأوعية أسقية النبيذ ، وذلك أخذا من قوله صلى الله عليه وسلم فى حديث آخر « نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ، ونهيتـكم عن لحوم الأضاحى فوق ثلاث فأمسكوا ما بدا لـكم ، ونهيتـكم عن النبيذ إلا فى سقاء فاشربوا فى الأسقية كلها ، ولا تشربوا مسكرا » رواه مسلم .

ألّا يُوطأنَ حتى يَضَعْنَ أَوْلادَهُنّ ، ونَهَاهُمْ ألاّ تباعَ ثمرةٌ حتّى يبدو صَلاحُها ، ويُؤْمَنَ عليها من العاهة .

وَهْبُ بنُ حُذَيفَةَ ، قال رَسولُ الله صلى الله عليه وسلم : الرَّجُلُ أَحَقُّ بمجلِسه.

حسّان بنُ ثابتٍ قال : لعَنَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم زائراتِ القبور .

قال مالكُ بنُ عُبادة الغافقيّ : مرّ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم بعبد الله بن مَسْعود فقال : لا تُكْثِرْ هَمَّك ما يُقدَّرْ يَكُنْ ، وما تُرْزَقْ يأتكَ .

خالدُ بنُ عَدِيّ الجُهَنِيّ أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : من بَلغَه مَعْروفٌ مِنْ أخيه مِنْ غَيْرِ مَسْئَلةٍ ولا إشْرافِ نَفْسٍ فَلْيقْبله ولا يرُدّه ، فإنما هو رِزْقٌ ساقه الله إليه .

رافعُ بنُ مَكِيثٍ — أخو جُنْدَب بن مَكِيث — شَهِدَ الحُدَيبِيَة قال : سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : « حُسْنُ المَلَكَةِ[1] نماء ، وسوء الخلق شُؤم ، والصّدَقَةُ تدفعُ مِيْتَةَ السُّوء ، والبِرُّ زيادةٌ في العُمُر .

وقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : إنّ يومَ الجُمُعةِ يومُ زينةٍ كيَوْمِ الفِطْر والنَّحْر .

خَبّابُ بن الأرَتّ[2] — وكان من أصحاب النبيِّ صلى الله عليه وسلم — قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلّى يوماً إلى جدارٍ كثير الجِحَرة إمّا ظُهْراً أو عصراً ، فلمّا صلّى خَرجتْ إليه عَقْرَب فلَدَغته ؛ فغُشِيَ عليه ، فرقاه الناس فأفاق ، فقال : « إنّ الله شَفاني وليس برُقْيتِكم » .

قال الوزير : ما أحسنَ هذا المجلس .

---

(١) حسن الملكة ، أي حسن صحبة المرء لمن يملكهم من مماليكه ومواليه .
(٢) في الأصل « ابن الأزرق » وهو تحريف .

(١) الليلة الرابعة والعشرون

وجرى حديث الفيل ليلةً فأكثرَ من حضَر وصفَه بما لم يكن فيه فائدةٌ تُعاد ، ولا غريبةٌ تُستَفاد ؛ فحكيتُ : إن العلماء بطبائع الحيوان ذكروا أن الفِيَلةَ لا تتولّد إلّا فى جزائر البحار الجنوبيّة ، وتحت مدارِ بُرجِ الحَمَل ، والزَّرافة لا تكون إلا فى بلاد الحَبَشة ، والسَّمُّورَ وغزالَ المِسْك لا يكونان إلّا فى الصَّحارِى الشرقيّة الشَّمالية ؛ وأما الصُّقور والنُّسور والبُزاةُ وما شاكلَها من الطير [فإنها] لا تُفرِخ إلا فى رءوس الجبال الشامخة [والعُقَاب[١] . والنعام لا تُفرخ إلا فى البرارىِّ والقفار والفلوات] . والوَطْواط والطَّيطَوَى[٢] وأمثالها من الطير لا تُفرِخُ إلّا على سواحل البحار وسطوط الأنهار والبطائح والآجام : والعصافيرُ والفَواخِتُ وما شاكلَها من الطير لا تُفرِخُ إلّا بين الأشجار والدِّحال[٣] والقُرى والبساتين .

وحدّث ابنُ الأعرابىِّ عن هشام بن سالم — وكان مُسِنًا من رَهْطِ ذى الرُّمةِ — قال : أكلتْ حيَّةٌ بَيضَ مُكّاء[٤] فجعَلَ المُكّاء يُشَرْشِر[٥] على

(١) فى ب التى نقلت عنها هذه الزيادة وحدها : « والعطاف » . ولعل صوابه ما أثبتنا ، إذ لم نجد العطاف فيما راجعناه من كتب الحيوان . وفى « كتاب حياة الحيوان » أن من أنواع العقاب ما يأوى إلى الصحارى .

(٢) الطيطوى : طائر لا يفارق الآجام وكثرة المياه ، لأن هـذا الطائر لا يأكل شيئا من النبت ولا من اللحوم ، وإنما قوته مما يتولد فى شاطئ الغياض والآجام من دود النتن . والذى فى (ب) : « والطوطى » ؛ والطوطى هى الببغاء ، وهو غير مراد هنا .

(٣) الدحال : جمع دحل ، وهو نقب ضيق الفم متسع الأسفل حتى يمشى فيه ؛ وربما نبت فيه السدر .

(٤) المكاء : طائر أبيض يصفر ويصيح فى الرياض .

(٥) يشرشر ، أى يرفرف ، كما ذكره الدميرى فى حياة الحيوان فى الكلام على المكاء .

رأسها ويَدْنو منها ، حتى إذا فتحَتْ فاها تريده وهمّت به ألقى فى فيها حَسَكَةً ؛ فأخذتْ بحلْقها حتى ماتت .

وأنْشَدَ أبو عمرو الشَّيْبَانىُّ قولَ الأسَدِىّ :

إن كنتَ أبْصَرتَنى قُلًّا[1] ومُصْطَلَما فربَّما قَتَل المُكّاءُ ثُعْبانا

فقال — حرسَ اللهُ نَفْسَه — من أين للحيوان غيرِ الإنسان هذه الفطنة [وهذه الفضيلة] وهذه الجُرْأَة وهذه الحيلة ؟ فقلتُ : شيخُنا أبو سليمان يقول فى هذه الأيام — وقد جرى حديثُ الحيوان وعجائِب أفاعيله — إن الإحساسات التى للحيوان على أصنافه لها غَرَضٌ عظيم ، وبذلك الغرض لها تفاوُتٌ [عظيم] ظاهرٌ وخافٍ ، وأفعالٌ معهودة ونادرة ، ولها أخلاق معروفة ، ومعارف موصوفة ؛ ولولا ذلك ما كان يقال : أصوَلُ من جَمَل ، وأَغدَرُ من ذِئب ، وأروغُ من ثَعْلب ، وأَجْبَنُ من صقْر ، وأجمَعُ من ذَرّة[2] ، وآلَفُ من كَلْب ، وأهدَى من قَطاة ، وأحذَرُ[3] من عَقعق ، وأزهَى من غُراب ، وأَظلَمُ[4] مِن حَيّة . وأشدُّ عداوةً من عَقْرَب . وأَخبثُ من قِرْد ، وأَحْمَقُ مِن حُبارَى ، وأَكذَبُ من فاختة[5] ،

---

(١) فى (ا) : « مد أومضت ظلما » ، وهو تحريف . وفى (ب) : « قدا » ، وهو تحريف أيضا ، إذ لم نجد من معانى القد ما يناسب السياق . والقل من الناس : بضم القاف الفرد الذى لا أحد له . والمصطلم : من الاصطلام ، وهو الاستئصال . فلعله يريد الذى استؤصلت أهله ونصراؤه وبقى فردا .

(٢) الذر : النمل الأحمر الصغير .

(٣) الذى وجدناه فى كتاب حياة الحيوان فى الأمثال التى قيلت فى العقعق : ألص من عقعق ، وأحمق من عقعق ؛ ولم نجد أنه قيل : أحذر من عقعق كما هنا ؛ فلعل قوله « أحذر » محرف عن أحمق . والعقعق : طائر على قدر الحمامة ، وهو على شكل الغراب ، وجناحاه أكبر من جناحى الحمامة ، وهو طويل الذنب .

(٤) يقال ذلك للحية لأنها تأتى الجحر الذى لم تحتفره بل حفره غيرها فتسكنه .

(٥) الفاختة : من الحمام ذوات الأطواق ، وتوصف بحسن الصوت ، ويصفونها بالكذب لأنهم يزعمون أنها تقول فى صياحها : « هذا أوان الرطب » (بضم الراء) والنخل لم يطلع بعد . قال الشاعر :

أكذب من فاختة تقول وسط الكرب
والطلع لم يبد لها : هــذا أوان الرطب

وألأمُ مِن كلْبٍ على جيفَة ، وأعقُّ[١] مِن ضَبّ ، وأبرُّ[٢] من هِرّة ، وأنفرُ من ظَلِيم[٣] ، وأجرأُ من ليْث ، وأحقَدُ مِن فيل ؛ وعلى هذا .

قال : وكما أنّ بين آحاد نوع الإنسان تفاوُتاً فى الأخلاق ، كذلك بين آحاد نوع الحيوان تفاوُت ، وكما أنه يزل بعضُ العقلاء فيركب ما لا يُظن بمثلِه لعقلِه ، كذلك يزلُّ ويَغْلَطُ بعضُ الحمقى فيأتى بما لا يُحسَب أنّ مِثْلَه يهتَدِى إليه ، فليس العقلُ بحاظِرٍ على صاحبِه أن يَنْدُرَ منه ما يكون من الحيوان ، وأصنافُ الحيوان من الناسِ وغيرِ الناس تتقاسمُ هذه الأخلاقَ بضُروب المزاجِ المختلفة فى الأزمان المتباعدة ، والأماكن المتنازحة ، تقاسما محفوظَ النِّسَب بالطبيعة المستولية ، وإن كان ذلك التقاسُمُ مجهولَ النِّسَب للغموض الذى يَغْلِبُ عليه ، وإذا عُرِف هذا الشرح وما أشبهه مّما يزيده وضوحا ، زال التعجّب الناشئ من جهل العلة وخَفاء الأمر

قال : ومن العَجَب أنا إذا قلنا : أروغ من ثعلب ، وأجبَنُ من صَقْر ، وأحقَدُ من فيل ، أن هذا الرَّوْغ وهذا الجُبْن وهذا الحِقْدَ فى هذه الأصناف ليست لتكون[٤] عُدَّةً لها مع نوع الإنسان ، ولكن لتتعاطى أيضاً بينها ، وتستعملَها عند الحاجة إليها ؛ وكما يشبَّه إنسانٌ لأنه[٥] لِصٌّ بالفأرة ، أو بالفيل لأنّه حَقود ، أو بالجَمَل لأنّه صَؤُول ، كذلك يُشبَّه كلُّ ضَرْب من الحيوان فى فعلِه وخُلقه وما يظْهَر من سِنخِه بأنه إنسان .

(١) يقال : أعقّ من ضب ، لما يقال من أن أنثاه تأكل أولادها .
(٢) يقال هذا المثل لأنهم يزعمون أن الهرة تأكل أولادها لشدة حبها إياهم .
(٣) الظليم : ذكر النعام .
(٤) فى كلتا النسختين ليست تكون والسياق يقتضى زيادة اللام كما أثبتنا .
(٥) فى الأصول « بأنه » ؛ وهو تحريف .

ويقال للبليد من الناس : كأنّه حِمار ؛ ويقال للذكىّ من الخيل : كأنه إنسان ؛ ولولا هذا التمازُجُ فى الأصل والجوهر ، والسِّنْخِ والعُنْصُرِ ، ما كان هذا التشابه فى الفرع الظاهر ، والعادةِ الجارية بالخَبرِ والنَّظر .

فقال[١] : هذا كلامٌ لا مَزيدَ عليه .

وقالت العلماء : إن هذا الاعتبار واصلٌ فى الحقيقة إلى جنْسِ النَّبات ، فإن النخلَ والمَوْزَ لا يَنْبُتان إلاّ فى البُلْدان الدَّفِئة والأرض اللَّيِّنة التُّرْبة ، والجَوْزَ والفُسْتُق وأمثالَها لا ينبُتان إلاّ فى البلدان الباردة [والأرضِ] الجَبَليّة . والدُّلْبَ وأمَّ غَيْلاَنَ فى الصَّحارِى والقِفار ؛ والقَصَبَ والصَّفْصافَ على شُطوط الأنهار .

قالوا : وهكذا أيضاً وصف الجواهر المَعْدنيّة ، كالذهب ، فإنه لا يكون إلا فى الأرض الرَّمْلِيَّة والجبالِ والأحْجارِ الرِّخْوة . والفضّة والنحاس والحديد لا تكون إلا فى الأرض النَّدِيَة والترابِ اللّيّن والرّطوبات الدُّهنية ، والأملاح لا تَنْعَقِد إلاّ فى الأراضى [والبِقَاعِ] السَّبِخَة ، والجص والاسفيداج لا يكونان إلاّ فى الأرض الرَّمليّة المختلطةِ تُرابُها بالحصَى ، والزّاجُ لا يكون إلاّ فى التراب العفِص ؛ وقد أحْصَى بعضُ من عنِىَ بهذا الشأن هذه الأنواعَ المعدنيّةَ فوَجَدَها سبعَمائة نَوْعٍ .

وقالوا : من الجواهر المعدنيّة ما هو صُلْب لا يذوب إلاّ بالنار الشديدة ، ولا يُكْسَر إلاّ بالفأس كالياقوت والعقيق : ومنها تُرابىٌّ رِخْوٌ لاَ يَذُوب ولكن يَنْفَرِكُ ، كالمِلْح والزاج ، والطَّلْق[٢] ؛ ومنها مائىّ رطب يَنْفِرُ[٣] من النار

(١) فقال ، أى الوزير .

(٢) الطلق : حجر براق يتشظى إذا دقّ ، يتخذ منه مضاوىء للحمامات بدلا من الزجاج ، ويحلّ بأن يجعل فى خرقة مع حصوات ويدخل فى الماء الفاتر ثم يحرك برفق حتى ينحلّ ويخرج من الخرقة فى الماء ؛ ثم يصفى عنه الماء ، ويشمّس ليجفّ .

(٣) فى (أ) يفر من النار .

كالزِّئْبق ، ومنها هَوائىٌّ دُهْنىٌّ تأكُلُه النار ، كالكِبْريت والزَّرْنيخ ؛ ومنها نباتىٌّ كالمَرْجان ، ومنها حيوانىٌّ كالدُّرّ ، ومنها طَلٌّ مُنعَقِد ، كالعنبر والبادزهر ، وذلك أنّ العنبرَ إنّما هو طَلٌّ يَقَعُ على سطحِ ماءِ البَحْر ، ثم ينعقد فى مواضعَ مخصوصةٍ فى زَمان مقدَّر ؛ وكذلك البادزَهْر[١] ، فإنّه طَلٌّ يَقَعُ على بَعْض الأحجار ، ثم يَرْسَخ فى خَلَلِهاَ ، ويغِيبُ فيها ، ويَنْعَقِد فى بِقاعٍ مَخْصُوصَةٍ ، فى زَمانٍ معلوم ، وكالتَّرَنْجُبِين الّذى هُوَ طَلٌّ يَقع على ضَرْبٍ من الشَّوْك ؛ وكذلك اللُّكُّ فإنّه يَقَعُ على نَباتٍ مخصوصٍ يَنْعَقِد عليه ؛ وكذلك الدُّرّ فإنّه طَلٌّ يَرْسَخُ فى أصداف نَوْعٍ من الحيوان البَحْرِىّ ، ثم يَغلُظُ ويَجْمُد ويَنْعَقِد فيه ، وكذلك الموميا ، وهى طَلٌّ يَرْسَح فى صخورٍ هناك ويصيرُ ماء ثم يَبرُز من مَسامَّ ضَيِّقَةٍ وَيجْمُد ويَنْعَقِد[٢] .

والطَّلُّ هو رُطوبةٌ هوائيّةٌ تجْمُد من بَرْدِ اللّيل . وتقع على النّبات والشَّجَر والحَجَر والصَّخْر ؛ وعلى هذا القياس جميع الجواهر المعدنيّة ، فإن مادتها إنما هى رطوباتٌ مائيّة ، وأنداء وبخاراتٌ تنْعَقِد بطول الوُقوع ومَرّ الزّمان .

وقالت الحُكَماء الأوّلون : ها هنا طبيعةٌ تألفُ طبيعةً أخرى ، وطبيعة تلزَق بطبيعة أخرى ، وطبيعةٌ تأنَس بطبيعة ، وطبيعة تتسبّه بطبيعة ، وطبيعة

(١) الذى وجدناه فى مفردات ابن البيطار أن البادزهر حجر ينفع من السموم ، ومنه الأصفر والأغبر والمنكت والمشرب بخضرة وغير ذلك ، ومعادنه ببلاد الصين والهند ، ولم نجد أنه طل منعقد فى بعض الأحجار كما ذكره المؤلف هنا .

(٢) ذكر ابن البيطار من أنواع الموميا غير هذا النوع الذى ذكره المؤلف ، فذكر أن هذا الاسم يقال على حجارة تكون بصنعاء اليمن سود ، وفيها أدنى تجويف ، وهى إلى الخفة تكسر فيوجد فى ذلك التجويف شىء سيّال أسود ، وتقلى هذه الحجارة إذا كسرت فى الزيت فتقذف جميع ما فيها من تلك الرطوبة السوداء السيالة ، كما ذكر أنواعا أخرى من الموميا فانظرها ثم .

تَقْهَر طَبيعة ، وطبيعةٌ تَخْبُث مع طبيعة ، وطبيعة تَطِيبُ مع طبيعة ، وطبيعةٌ تُفْسِد طبيعة ، وطبيعة تُحمِّرُ طبيعة ، وطبيعة تُبَيِّضُ طَبيعةً ، وطبيعة تَهْرُبُ من طبيعة ، وطبيعة تُبْغِض طبيعة ، وطبيعةٌ تُمازِجُ طبيعة .

فأمّا الطبيعة الّتى تألَف طبيعةً فمِثلُ الماسِ فإنّه إذا قَرُب من الذَّهَب لَزِق به وأَمْسَكه ، ويقال : لا يوجَد الماسُ إلّا فى مَعْدِن الذَّهَبِ فى بلدٍ من ناحية المشرق .

ومِثلُ طبيعة المَغْنَاطيس فى الحديد ، فإنّ هٰذين الحجرين يابسان صُلْبان ، و بين طبيعتيهما أُلْفَة ، فإذا قَرُبَ الحديدُ من هذا الحجَر حتى يَشَمَّ رائحته ذَهب إليه وٱلتَصَق به وجذَبَ الحديدَ إلى نَفْسه وأَمْسَكه كما يفعَل العاشق بالمعشوق . وكذلك يَفعَل الحجر الجاذب للخَزِّ[1] والحجرُ الجاذب للشَّعر ، والجاذِبُ للتِّبن ؛ وعلى هذا المثال ما من حجر من أحجارِ المَعْدِن إلا و بين طبيعته و بين طبيعةِ شىء آخَرَ إلفٌ وٱشتِياق ، عُرِف ذلك أو لم يُعرَف ؛ ومِثلُ هذا ما يكون بين الدواء والعُضْوِ العليل ، وذٰلك أنّ مِنْ خاصّة كلِّ عضوٍ عليلٍ ٱشتياقَه إلى طبيعةِ الدَّواء الّتى هى ضد طبيعةِ العِلّةِ التى به ، فإذا حَصَلَ الدواء بالقُرْب من العُضْوِ العَليل وأحَسَّ به جذبتْه القوّة الجاذبةُ إلى ذلك العضو وأمْسَكَتْ الممسِكةُ وٱستعانتْ بالقوّة المدبِّرَة لِطبيعة الدواء على دفع الطبيعة المؤلِّفة للعِلة وقويت عليها ودفعَتْها عن العضو العليل كما يَسْتعين ويَدفع المُحَارِبُ والمخاصِمُ بقوّة من يُعينه على خَصمِه وعَدُوّه ويَدْفَعُه عن نَفْسه ؛ وأمّا الطبيعةُ الّتى تَقْهَرُ طبيعةً أخرى فمِثْلُ طبيعةِ السُّنْبَاذَج[2] الّذى يأْكُلُ الأَحجارَ عند الحَكِّ

(١) فى كلا الأصلين « للحمر » ؛ وهو تحريف .

(٢) السنباذج حجر يجلو به الصيقل السيوف ، وتجلى به الأسنان ، وهو حجر كأنه مجتمع من رمل خشن .

أَكْلًا وُيلينُها ويجعَلُها مَلْساء . ومثل طبيعة الأُسْرُب الوسخ فى الماس القاهِرِ لسائر الأحْجارِ الصُّلْبة ، وذلك أنّ الماسَ لا يَقْهَرُه شىء من الأحجار ، وهو قاهر لها كلِّها ، ولو تُرِكَ على السِّنْدان وطُرِقَ بالمِطْرَقَة لدَخَل فى أحَدِها ولم يَنْكَسِر، وإن جعل بين صفيحتين من أسْرُب[١] وضُمّتا عليه تَفَتّتَ ؛ ومِثْلُ طبيعة الزئبق الطيارِ الرَّطْب القليلِ الصبرِ على حَرارةِ النّار ، إذا طلى به الأحجار المعدنية الصلبة مِثلُ الذهب والفِضّة والنّحاس والحَديد أَوْهَنَها وأَرْخاها حتى يمكن أن تُكْسَر بأهونِ سَعْيٍ ، وتَتَفَتّتَ قِطَعاً .

ومِثلُ الكِبْريت المُنْتِن الرائحةِ المسوِّدِ للأحجار النيِّرة البرّاقة ، المذهِب لألوانها وأصباغها ، يمكِّن النارَ منها حتّى تَحْتَرِقَ فى أسرع مدّة . والعِلّةُ فى ذلك أنّ الكِبْريت رُطوبةٌ دُهْنِيّةٌ لَزِجَةٌ جامدة ، فإذا أصابته حرارة النار ذاب والتزق بأجساد الأحجار ومَازَجها ، فإذا تمكنت النارُ منها احترق وأحْرَقَ معه تلك الأجسادَ ياقوتاً كانت أو ذَهَباً أو غيرَها .

وأمّا الطبيعة التى تَرْسُبُ[٢] فى طبيعة أخرى وتُنيرُها[٣] ، فمِثلُ النُّوشاذَر الّذى يغوص فى قعر الأشياء ويَغسِلُها من الوَسَخ .

وأما الطبيعة التى تُعينُ طبيعةً أُخرى فمثل البَوْرَق الذى يُعين النارَ على سَبْك هذه الأحجار المعدنيّة الذائبَة ، ومِثْلُ الزّاجاتِ والشُّبوب التى تَجْلُوها وتُنيرُها وتَصْبُغها ، ومثل المَغْنسيا والقِلْي[٤] المُعينيْن على سَبْك الرّمْلِ وتَصْفِيَته

(١) الأسرب : الرصاص الأسود .

(٢) فى كلتا النسختين « تربى بطبيعة » ؛ وهو تحريف ؛ وما أثبتناه هو ما يقتضيه سياق الكلام الآتى .

(٣) فى ب « وتثيرها » . وفى (ا) « وتديرها » ؛ وهو تحريف .

(٤) القلى ويقال فيه قلى كإلى ، هو شبّ العصفر ، ويتخذ من حريق الحمض ، وأجوده المتخذ من الحرض ، وهو قلى الصباغين وبقية أنواعه تستعمل فى صناعة الزجاج (ابن البيطار) .

حتّى يكونَ منه زُجاج ؛ وعلى هذا المِثال جميعُ الأحجار المعدِنيّة .

النارُ هى الحاكمة بين الجواهر المعدنيّة بالحق .

ويقال : من أدْمَنَ الأكْلَ والشُّرْبَ فى أوانى النّحاس أفْسَدَتْ مزاجَه ، وعَرَضَ له أمراضٌ صَعْبة ، وإن أُدْنِيَتْ[1] أوانى النّحاس من السّمَك شَمِمْتَ لها رائحةً كريهة وإن كُبّتْ آنيةُ النّحاس على سَمكٍ مشويّ أو مطبوخٍ بحرارته حَدَثَ منه سُمٌّ قاتل .

القَلَعى[2] قريبٌ من الفِضّة فى لونه ، ولكن يخالفها فى ثلاث صِفات : الرائحةِ والرّخاوةِ والصَّرير ، وهذه الآفات دخلتْ عليه وهو فى مَعْدِنِه كما تَدْخُل الآفاتُ على المَفْلوج وهو فى بطن أمّه ؛ فرَخاوَتُه لكَثْرَةِ زِئْبَقِه ، وصَريرُه[3] لغِلَظِ كِبْريته .

ويقال : إنّ لونَ الياقوت الأصفرَ والذهب الإبريزِ ، ولونَ الزعفران وما شاكلها من الألوان المُشْرِقةِ منسوبةٌ إلى نور الشمس وبَريقِ شُعاعها ، وكذلك بياضُ الفِضّةِ والمِلح والبِلّوْر والقُطْن وما شاكله من ألوان النّبات منسوبةٌ إلى نُورِ القمرِ وبَريقِ شُعاعِه ؛ وعلى هٰذا المثال سائرُ الألوان .

وقال أصحاب النجوم : السواد لزُحَل ، والحُمْرة لِلمرِّيخ ، والخُضْرة للمُشْتَرِى ، والزُّرْقةُ للزُّهرَة ، والصُّفْرة للشّمس ، والبياضُ للقمَر ، والتَّلَوُّنُ لعُطارِد .

ويقال : إن العلّة الفاعلةَ للجواهر المَعْدِنيّة هى الطّبيعة ، والعِلّةَ الطِّينيَّة

---

(١) فى كلتا النسختين : « أدهت » ؛ وهو تحريف .

(٢) القلعىّ ، هو الرصاص الجيد . وفى نسخة « القلى » ؛ وهو تحريف إذ الأوصاف التى ذكرها المؤلف هنا لا تنطبق على القلى الذى سبق التعريف به فى الحاشية رقم ٤ من صفحة ١١٠ من هذا الجزء ، فانظرها ثمّ .

(٣) لعله : « ورائحته » إذ المعروف أن الكبريت سبب فى الرائحة لا فى الصرير . ويلاحظ أنه قد نقص التعليل لواحد من

الزِّئبقُ والكِبْريت ؛ والعِلّةُ الصُّورِيّة دَوَرانُ الأفلاك وحركاتُ الكواكب حَوْلَ الأركان الأربعة الّتى هى النّار والهواء والماء والأرض ؛ والعلّةُ التّماميّة المنافعُ التى ينالُها الإنسانُ والحيوان .

ويقال : إن الجواهر المعدنيّة ثلاثة أنواع : منها ما يكون فى التُّراب والطِّين والأرض [السَّبِخة ، ويتمّ نُضْجُه فى السّنة وأقلّ كالكباريت والأملاح والشُّبوبِ والزّاجات وما شابهها] ؛ ومنها ما يكون فى قَعْر البِحار وقرارِ المِياه ، ولا يتمّ نُضْجُه إلّا فى السّنة [أو أكثر] كالدُّرّ والمَرْجان ، فإنّ أحدَهما نباتٌ وهو المرجان ، والآخرَ حيوان ، وهو الدُّرّ .

ومنها ما يكون فى وسط الحَجَر وكُهوف الجِبال وخَلَلِ الرّمال فلا يتمّ نُضْجُه إلّا فى السِّنين ، كالذهب والفضة والنّحاس والحديد والرّصاص وما شاكلَها ؛ ومنها ما لا يتمّ نُضْجُه إلّا فى عشَرات السنين ، كالياقوت والزَّبَرْجَد والعَقيق وما شاكلَها .

(٣) وقال بعضُ من حضر المجلسَ — وهو الرَّخْلُ القَدْمُ الثّقيل — : إنّ الزارع لا يَزْرَعُ طالباً للعُشْب ، بل قَصْدُه للحَبّ ، ولا بدّ للعُشْب من أن يَنْبُتَ إنْ أَحَبَّ أو كَرِه ، فلِمَ ذلك ؟ فقيل له : قد يَصْحَب المَقْصودَ ما ليس بمقصود ، من حيثُ لا يَتِمّ المقصودُ إلّا بما ليس بمقصود ، والعُشْب هو فَضَلات الحَبّ ، وبه صفاء الحَبّ وتَمامُه ، ولولا[1] القوّة التى تصفّى الحَبّ وتُصَوِّرُه بصورته الخاصة به ، وتَنْفِي كَدَرَه وتُحَصِّلُ[2] صَفْوَه لكان العُشْب فى بَدَنِ الحَبّ ، وحينئذ لا يكونُ الحَبّ المُنْتَفَع به المخصوصُ باسمه المعروفُ بعَيْنه ، بل يكون شيء

(١) فى كلتا النسختين « ولولا أن القوة » ، وقوله : « أن » زيادة من الناسخ .
(٢) فى كلتا النسختين : « وتحضر » ؛ وهو تحريف .

آخرَ ؛ فلمّا تميّزتْ تلك الشّوائب التى كانت ملابِسةً له من أجزاء الأرض والماء وآثار الهواء والنار ، خَلَص منتفعًا به ، مقصوداً بعَيْنه ، فوجَبَ بهذا الأعتبار أن يكون الحَبُّ بالذّات ، والعُشْبُ بالعَرَض .

(٤) فقال — أدام الله دَوْلَتَه — هل تَعْرِفُ العربُ الفرقَ بين الرُّوح والنَّفْس فى كلامها ؟ وهل فى لَفْظِها مِنْ نَظْمِها ونَثْرِها ما يدلّ على ما بينهما ، أو هما كشىء واحد لَحِقَه أسمان ؟

فكان الجواب : إنّ الأستعمال يَخْلطُ هٰـذا بهٰذه وهٰذه بهٰذا فى مواضعَ كثيرة ، وإذا جاء الأعتبار أفْرَدَ[١] أحدَهما من الآخَر بالحَدّ والأسم ؛ وعلى هٰذا أتفق رأىُ الحُـكَماء ، لأنّهم حَكَموا بأنّ الرُّوحَ جسمٌ لطيف مُنْبَثٌّ فى الجسد على خاصٍّ ماله فيه[٢] فأمّا النّفس الناطقة فإنها جوهرٌ إلٰهىّ ، وليست فى الجسد [على خاصّ ما له فيه] ولـكنّها مدبّرةٌ للجسد ؛ ولم يكن الإنسانُ إنسانا بالرُّوح ، بل بالنّفس ، ولو كان إنسانا بالرُّوح لم يكن بينَه وبين الحِمار فَرْق ، بأن كان له رُوحٌ ولـكن لا نفسَ له . فأما النّفسان الأُخْرَيان اللّتان هما الشّهَوِيّة والغَضَبيّة فإنّهما أشدّ أتّصالا بالرُّوح منهما بالنفس ، وإن كانت النفسُ الناطقةُ تدبّرهما وتَمُدّهما وتأمُرُهما وتَنْهاهما ؛ فهذا أيضاً يُوَضّح الفرقَ بين الرُّوح والنَّفْس ، فليس كلُّ ذى رُوحٍ ذا نَفْس ، ولـكن كلُّ ذى نَفْسٍ ذو رُوح ؛ وقد وَجَدْنا فى كلام العَرَب مع هذا الفرقَ بينهما ، فإن [النابغة] قد قال للنُّعمان بن المُنْذر :

وأَسْكَنْتَ نَفْسى بعد ما طارَ رُوحُها وألبستنى نُعْمَى ولستُ بشاهـدِ

(١) فى كلتا النسختين « قرّب » ؛ وهو تحريف لا يستقيم به السياق .
(٢) فى «ب» « مه » مكان قوله : «فيه» .

وقال أبو الأسود :

لَعَمْرُكَ ما حَشَاكَ اللهُ رُوحا   به جَشَعٌ ولا نفسا شَرِيرة

قال : هذا مِنَ الفوائد التى كنتُ أَحِنّ إليها ، وأَسْتَبْعِدُ الظَّفَرَ بها ، وما أنفعَ المُطارَحَةَ والمفاتحةَ وبَثّ الشكّ واستماحةَ النّفْس ، فإنّ التّغافُلَ عمّا تَمَسُّ إليه الحاجةُ سوء اختيار ، بل سُوء توفيق .

وما أَحسنَ ما قال بعضُ الجِلّة : تَوَانَيْتُ فى أَوانِ التعلُّم عن المسْئلة عن أشياء كانت الحاجةُ تَحْفِزُ إليها والكسلُ يَصُدّ عنها ، فلما كَبِرتُ أَنِفْتُ من ذِكْرِها وعرْضها على مَنْ عِلْمُها عندَه ، فبقيَتِ الجهَالةُ فى نَفْسِى ، وَرَكَدَت الوَحْشَةُ بين قلبى وفِكْرِى .

ثم جرَى فى حديث النفس ذِكْرُ بعض العُلماء وإنّه قال : إنّ نفْسَك هى إحدى الأَنْفُس الجُزْئيّة من النفس الكلّيّة ، لا هى بعينِها ، ولا منفصلةٌ عنها ، كما أنّ جسدَكَ جُزْء مِن جَسَد العالمَ لا هو كلّه ولا منفصِلٌ عنه ؛ وقد مرّ مِن أمْر النّفس مافيه إيضاحٌ تامٌ وأُسْتِبْصارٌ واسع ، وإن كان الكلامُ فى نعت النّفس لا آخِرَ له ، ولا وقوفَ عنه .

ولو قال قائلٌ : إنّ جَسَدَكَ هو كلّ العالم لم يكن مُبْطِلا ، لأنّه شبيهٌ به ، ومسلولٌ منه ، وبحقّ الشّبه يحكيه ، وبحقّ الأسلال يستمدّ منه ؛ وكذلك النّفس الجزئيّة هى النفس الكلّيّة ، لأنها أيضاً مشاكِهةٌ لها ، وموجودةٌ بها ، فبحقّ الشَّبه أيضاً تحْكِى حالَها[1] ، وبحقّ الوجود تبقى بقاءها ، فليس بين الجسد إذا أُضيفَ إلى العالمَ ، والنّفْسِ إذا قِيسَتْ بالأخرَى فرْق ، إلاّ أنّ الجسَد معجونٌ

(١) فى الأصل « تجد مالها » ولا معنى له ؛ ولعل الصواب ما أثبتنا كما يقتضيه السياق .

من الطِّينة ، والنَّفْسَ مدبَّرَةٌ بالقوّة الإلٰهيَّة ؛ ولهذا أُحتِيج إلى الإحساس والموادّ، وإلى الاقتباس[١] والالتماس حتى تكون مُدّةُ الحياةِ الحسِّية بالغة إلى آخرها من ناحية الجسد ، ويكونَ مبدأُ الحياة النفسيّة مَوْصولا بالأَبَد بعد الأبَد.

فقال — أدام الله سعادتَه — لو كان ما يَمرّ من هذه الفوائد الغُرَر والمَرامى الألطاف مَرْسوماً بسَوادٍ على بياض، ومقيَّدا بلفظٍ وعبارة ، لكان له رَيْعٌ وإتاء ، وزيادةٌ ونَماء .

فكان الجواب إنَّ هٰذا غيرُ متعذِّر ولا صَعْبٍ إنْ نَفَّسَ اللهُ فى البقاء ، وصَرَفَ هٰذه الهمومَ التى تُقسِّمُ الفِكْرَ بالعوارض التى لا تُحتَسَب ، والأسبابِ التى لا تُعرَف ؛ فأمّا والأشغالُ على تَكانُفِها ، والزَّمان على تلوُّنه فكيف يُمكنُ ذٰلك ؛ والعَجَب أنّه يجرى حرفٌ من هٰذه الأمور الشريفة فى هٰذه الأوقات الضيّقة .

ولقد قال أبو سليمان أمسِ : كيف نشاطُ الوزير — أدام الله سعادتَه — فى شأْنِه ، وكيفَ كان تقبّله لرسالتِى إليه ، وتَلَطُّفِى له ، وخِدْمَتى لدَوْلَتِه ؟ فقلت : ما ثَمَّ شىء يحتاج إلى الزيادةِ من فهمٍ ودِراية ، وبيانٍ واستبانة ، وهَشاشةٍ ورِفق، واطّلاعٍ وتأَنٍّ ؛ ولكنّ الوقتَ مستوعَبٌ بالتّدبير والنّظَر ، وكفِّ العدوّ بالمُداورَةِ مرّة ، وبالإحسان مرّة . فقال : اللهُ يُبْقيه ، ويُرينا ما نُحبُّه فيه . (٥)

وقال أيضاً أبو سليمان : كيف لا يكون ما تَقَلّدَه ثقيلا ، وما تَصدّى له عظيما ، وما يباشرُه بلسانِه وقلَمِه صَعْبا ، والأولياء أعداء ، والأعداء جُهّال ، والحَضُّ عليه من ورائه شديد ، ونصيحُه غاشّ ، وثِقَتُه[٢] مُريب[٣] ، والشَّغْبُ

(١) فى ب « وإلى القياس » . (٢) فى (ا) ونفيه ؛ وهو تحريف .
(٣) فى كلتا النسختين « قريب » ؛ وهو تحريف .

متّصِل ، وطَلَبُ المال(١) لا آخِرَ له ، والمُصْطَنع مستزيد ، والمحرومُ ساخِط ، والمالُ ممزَّق ، والتجديف(٢) من الطالب واقع ، والتحكُّم بالإدْلال دائم ، والأستقالة من الكبير والصغير زائدة ، والكلامُ ليس يَنفع ، والتدبُّرُ ليس يَقْمَع ؛ والوَعْظ هَباءٌ مَنْثور ، والأصل مقطوعٌ مَبْتور ؛ والسِرُّ مكشوف ، والعلانيةُ فاضِحة ؛ وقد رَكِب كلٌّ هَواه ، وليس لأَحَدٍ فِكْرٌ فى عُقْباه ؛ وأختَلَط المُبْرَمُ(٣) بالسَّحيل ، وضاقَ على السّالِكِ كلُّ سَبيل ؛ ومَنابعُ الفسادِ ومَنابتُ التخليط كلُّها من الحاشية [التى] لا تعرف نظامَ الدولة ولا أستقامةَ المَمْلكة ؟ وإنما سُؤْلُها(٤) تَعْجيلُ حَظٍّ وإن كان نَزْراً ، وأستلابُ دِرْهَمٍ وإن كان زَيفاً ، ولَعمْرِى ليس يكون الكَدَرُ إلّا بعد الصَّفْو ، كما لا يكون الصَّفْوُ إلّا بعد الكَدَر ، هكذا الليلُ والنَّهار ، والنورُ والظَّلامُ ، هٰذا يَخْلُف هٰذا ، وهذا يَتْلو هذا .

قال : أعْنى بهذا أنّه لما فُقِد المَلِكُ السعيدُ — رضى الله عنه — بالأمس حَدَث هذا كلُّه ، فإنه كان قد زَمَّ وخَطَم ، وجَبَرَ وحَطَمَ ، وأسا وجَرَح ، ومَنَع ومَنَح ؛ وأَوْرَدَ وأَصدَر ، وأَظْهَر وسَتَر ، وسهل ووَعَّر ، ووَعَد وتَوَعَّد ، وأنْحَسَ وأسعَد ، ووَهَبَ زمانَه وحياتَه لهذا ، لأنه جعل لذّته فيه ، وغايتَه إليه ، وأشتَهى أنْ يطيرَ صيتُه فى أطراف الأرض فيَسْمَعَ ملوكُها بفِطْنَتِه وحزْمِه ، وتصميمه وعَزْمِه ، وجِدّه وتَشْميره ، ورضاه فى موضع الرِّضا ، وسُخْطِه فى وقت السُّخْط ، ورَفْعه لمن يَرْفَعهُ بالحقّ ، ووَضْعِه لمن يَضَعُه بالواجب ؛ يُجرى الأمورَ بِسنَن الدِّين ما أستجابت ، فإن عَصَتْ أخَذ بأحكامِ السياسة التى هى الدنيا ، ولمّا كانت

(١) فى كلتا النسختين : « المحال » .
(٢) فى كلتا النسختين: «والتحريف» ؛ وهو تحريف . والتجديف: الكفران بالنعمة .
(٣) المبرم : الذى أحكم فتله . والسحيل : ضدّه .
(٤) فى كلتا النسختين : « نولها » ، وهو تحريف .

الأمور متلبِّسةً بالدِّين والدنيا لم يَجُزْ للعاقل الحَصيف ، والمدبِّر اللَّطيف أن يُعْمِل التدبيرَ فيها من ناحية الدِّين فحَسْب ، ولا من ناحية الدُّنيا فقط ، لأنّ دائرةَ الدِّين إلٰهيَّة ، ودائرةَ الدنيا حِسِّيَّة ، وفى الإحساس أحقادٌ لا بدّ من إطفاء ثائرتها ، وصنائعُ لا بدّ من تربيَتِها ، وموضوعاتٌ لا بد من إشالتِها[١] ومرفوعاتٌ لا بد مِنْ إزالتها ؛ وتدبيراتٌ لا بدّ من إخْفائها[٢] ، وأحوالٌ لا بدّ من إبدائها ، ومَقاماتٌ لا بدّ من الصَّبر على عَوارضِ ما فيها ، وأُمورٌ هى مَسطورةٌ فى كتُبِ السِّياسات للحُكماء لا بدّ من عِرْفانها والعملِ بها والمصيرِ إليها ، والزيادةِ عليها ؛ فليس الخبرُ كالعِيان ، ولا الشاهدُ كالغائب ، ولا المَظْنونُ كالمُسْتَيْقَن .

ثم قال : — أعنى أبا سليمان — وهذا كلُّه مَنوطٌ بالتوفيق والتأييد اللّذين إذا نزَلا من السَّماء واتَّصلا بمَفْرِق السائسِ تَضامَّتْ أحوالُه على الصّلاح ، وانْتَشَرَتْ على النَّجاح ؛ وكُفِيَ كثيراً من هُمومه ؛ ثم دَعا للوزير بالبقاء المَديد ، والعَيْشِ الرَّغيد والجَدِّ السَّعيد ؛ وأمَّن الحاضِرون على ذلك ، وكانوا جَمًّا غَفيراً ، لا فائدة فى ذكر أسمائهم والإشارةِ إلى أعيانِهمْ ؛ وكلُّهم لمَّا سمعوا هذا الكلامَ الشريفَ عَجِبوا منه ، وعَوَّذوه وسألوه أن يَنْظِم لهم رسالةً فى السياسة ؛ فقال : قد رسمتُ شيئاً منذ زمان ، وقد شاع وفشا ، وكُتِب وحُمِل فى جملة الهديّة إلى قابوسَ بجرْجانَ ، فهذا — أيُّها الشيخ — نَمَطُ أبى سُليمانَ وأنتَ عنه مشغول ، قد رَضيتَ بتَرْكِ النّظَرِ فى أَمْرِه ، وبَذْلِ الجاه له فيما عاد بِشأْنه ، والله ما هذا لسوء عَهْدِك فيه ، ولا لحَيْلُولةِ نيَّتِك [عنه] ؛ ولكن لقلّة حَظِّه منك وإلحاحِ الزَّمان على كلّ مَن يَجْرِى مَجراه ، مع عَوَزِ مِثْلِه فى عَصرِه ؛ وكيف تُتَّهم بسوء اعتقاد

(١) فى كلتا النسختين : « أسالبها » ؛ وهو تحريف ، وإشالة الشىء : رفعه .
(٢) فى كلتا النسختين « من اجفانها » ؛ وهو تصحيف .

وقِلَّةِ حِفاظٍ، وتَوانٍ عن رعايةِ عهدٍ، وقيامٍ بحقٍّ، وأنتَ من فَرْقِكَ إلى قَدَمِكَ فضلٌ وخيرٌ وجود ومَجْدٌ وإحسانٌ وكَرَمٌ ومَعونةٌ ورِفْدٌ وإنعامٌ وتَفَقُّد وتعهُّد وبَذْلٌ وعُرْفٌ؛ ولو كان أمرُؤٌ من الذَّهَب المصفَّى لَكُنْتَهُ [ولو كان أحدٌ من الرُّوح الصِّرف لَكُنْتَه]؛ ولو كان أحدٌ من الضِّيَاء المحيطِ لَكُنْتَه؛ فسبحان من خَلَقَكَ صِرْفاً بلا مِزاج، وصَفْواً بلا كَدَر، وواحداً بلا ثان، لقد نَخَرَ[1] بكَ الشَّرق على الغَرْب، وسُلِّمَ لكَ بلا خصومةٍ ولا شَغْب، فأدام الله لكَ ما آتاكَ وأفاضَ عليكَ من لَدُنْه ما يُنَوِّرُ مَسْعاكَ؛ وبلَّغكَ السعادةَ العُظْمى فى عُقْباكَ، كما بلَّغكَ السعادَةَ الصُّغرى فى دُنْياكَ.

(٦) أعرِضُ أيُّها الشيخُ هـذا الحديثَ على ما تَرى، والكلامُ ذو جَيَشان، والصَّدرُ ذو غَلَيان، والقَلَمُ ذو نَفَيان[2] ومتدفِّقُه لا يُستَطاع رَدُّه؛ ومُنْبَعِثه لا يُقْدَر [على] تَسْهيله، وخَطْبُه غَرِب، وشأنُه عَجيب: وإنما يَعْرِفُ دِقَّه وجِلَّهُ من يَذُوقُ حُلْوَه ومُرَّه، ومع هٰذا كلِّه، فإنى أُدَرِّكُ أمرى لِتَلْحَظَه بعين الرِّعاية، وأعرِضُ عليكَ حديثى لتَحْفَظه فى صحيفةِ العناية: فلقد أمسيتُ بين صديقٍ يَشُقُّ عَلَيَّ حُزْنُه لِى، وبين عدوٍّ تسوءنى شماتَتُه بى؛ وقد صَحَّ عندى أنَّ إقبالَكَ عَلَيَّ يُسْر، كما أنَّ إعراضَكَ عنّى عُسْر، وأرجِعُ إلى تمام هٰذين الجزأين وإنه أَحْرَى[3].

(٧) وأما حديثُ الزُّهّاد وأصحابِ النُّسُك، فإنّه كان تقدّم بإفرادِ جزءٍ فيـه،

---

(١) فى (ب) «تحريك»؛ وهو تحريف. وورد هذا اللفظ فى (ا) مطموس الحروف؛ وما أثبتناه هو مقتضى السياق.

(٢) النفيان: من نفت السحابة الماء إذا نحّته. أو من نفت الريح التراب إذا أطارته. وفى (ا) «نقيان»؛ وهو تصحيف. وفى ب «رميان»

(٣) فى «ب» وابتداء آخر.

وقد أثبتُّه فى هٰذا الموضع ، ولم أُحِبَّ أن أعزِلَه عن جُمْلَته ، فإن فيه تنبيهاً حَسَنا ، وإرشاداً مَقبولا ، وكما قَصَدْنا بالهَزْل الذى أفرَدنا فيه جُزْءاً جِمامًا للنّفس قصَدْنا بهذا الجزء الذى عَطَفنا عليه إصلاحا للنفس وتهذيباً للخُلُق ، واقتداءً بمن سَبَق إلى الخير واتّباعا لمن قَصَد النُّصْحَ ؛ وشَرَفُ الإنسان موقوفٌ على أن يكون فاتِحًا لِبابٍ من أبواب الخيرعلى نَفْسِه وعلى غيره ، فإن لم يكن ذلك فلا أقلَّ [من أن يكون] مقتفيا لأثر من كان فاتحاً قبله ؛ ومن تقاعَسَ عن هٰذين الأمْرَين فهو الخاسر الذى جَهِلَ قيمةَ نفسهِ ، وضَلَّ عن غاية حَياتِه ، وحُرِمَ التوفيقَ فى إصابةِ رُشْدِه ؛ واللهُ المُسْتَعان .

قال ابنُ مسعود : لو عرفَتِ البهائم ما عَرَفتم[1] ما أَكلتُمْ سَمِينا .

وقال أبو هُريرة : اللّهم إنى أسأَلُكَ قَلْبًا قارًّا ، ورزقاً دَارًّا ، وعَمَلا سارًّا .

وقال بعضُ السَّلَف : اللهمَّ إنِّي أسأَلُكَ قلباً شاكراً ، ولِساناً ذاكراً ، وبَدَناً صابرًا .

وقال صالح بنُ مسمار : لا أَدْرِى أَنِعْمَتُه عَلَيَّ فيما بَسَطَ لِى أَفْضَلُ ، أم نِعْمَتُه فيما زَوَى عنِّى ، لأنَّه فيما بَسَطَ لى أَحْيانى ، وفيما زَوَى عنّى حَمَانى ، نظَرَ لى بما يَزِيد على نَظَرِى لنفسى ، وآتانى مِنْ عندهِ أكثرَ ممّا عِنْدى .

وقال الله عزَّ وجلَّ — لموسى — عليه السلام : حبِّبْنى إلى عِبادى . قال : وكيف أُحَبِّبك ؟ قال : ذَكِّرهم آلائى ونَعْمائى .

وقال شَدّاد بنُ حكيم لبعض الواعظين : أىَّ شىء تقول إذا جلستَ على المِنبَر؟ قال : أذكِّرُهم آلاءَ اللهِ لِيشكرُوا ، وأُذَكِّرُهم جفاءَهُمْ ليتُوبُوا ، وأُخْبِرُهم عن إبليس وأعوانِه حتى يحْذَرُوا .

---

(١) فى رواية : «ما عرفتم من الموت ما أكلتم منها سمينا» .

وقال بعضُ الصَّالحِين : مَثَلُ الدُّنيا و نعيمِها كخابيةٍ فيها سُمٌّ وعَلَى رَأْسِها عَسَلٌ ، فمن رَغِبَ فى العَسَلِ سُقِىَ من السُّمِّ ، وَمَثَلُ شِدَّة الدنيا كَمَثَل خابيةٍ مملوءةٍ من العسل وعلى رأسها قَطَراتٌ من سُمٍّ ، فمن صَبَرَ على أكلِها بَلَغ إلى العسل .

جاء رجلٌ إلى حاتم الزَّاهد بِنميمةٍ ، فقال : يا هذا أبطأْتَ عَنى وَجِئْتَ بثلاث جنايات ؛ بَغَّضْتَ إلىَّ الحبيب ، وشغَلتَ قلبىَ الفارغ ، وَأَعْلَقْتَ نَفْسك التُّهَمة ، وَأَنت آمن .

وكان خالد بنُ صَفْوَانَ يقول : قَبولُ قوْلِ النَّمام شرٌّ من النميمة ، لأن النميمة دَلالة ، والقبولَ إجازَة ، وليس من دَلَّ على شىء كمَنْ قَبِلَ وَأَجاز .

وقال ابن السماك الواعظ : يُدْرِكُ النَّمَّامُ بنميمَتِه ما لا يُدْرِكُ الساحِرُ بسِحْره .

وقال معمر : ما نزَلَتْ بعبدٍ نازلةٌ فكان مَفزَعُه إلى الله إلّا فَرّج اللهُ عنه .

وقال عمر : ما أسألُ اللهَ الرزقَ وقد فَرَغَ منه ، ولكن أسألُه أن يُبارِكَ لى فيه .

وقال مالك بنُ دينار : الجلوس مع الكلْب خيرٌ من الجلوسِ مع رفيق سوء .

وقال أبو هريرة : تَهادَوْا عبادَ الله يتَجدَّدْ فى قلوبكم الوُدّ ، وتَذْهَب السَّخيمة .

وقال حاتم : صاحِبُ الضِّغْنِ غيرُ ذى دين ، والغائبُ[1] غيرُ ذى عِبادَة . والنَّمَّام غيرُ صَدوق ، والحاسد غيرُ مَنْصور .

وقال بعض السَّلَف : مَن اُستَقْصَى عيوبَ الناسِ بَقِى بلا أصدقاء .

وقال محمدُ بنُ واسع : ينبغى للرّجل أن يكون مع المرأة كما يكون أهلُ

(١) يريد بالعائب من يغتاب الناس .

المجنون مع المجنون ، يحتملون [منه] كلَّ أذًى ومَكروه .

قيل لمالك بن دينار [لو تزوجتَ ؛ قال :][1] لو استطعتُ لطلّقتُ نفسي .

قال شقيق : اشتريتُ بطِّيخة لأُمِّي ، فلما ذاقتْها سَخِطَتْ . فقلت : يا أُمِّي ، على من تَرُدِّين القَضاء ومَنْ تَلُومين ، أَحارِثَها أَمْ مُشْتَرِيها أَم خالِقَها ؟ فأمّا حارثُها ومُشْتَرِيها فما لهما ذَنب ، فلا أَراكِ تَلومين إلا خالقَها .

ويقال : إنَّ عبداً حَبَشِيًّا ناوَلَه مولاه [شيئاً يَأْكُلُه] ، وقال : أَعطِني قطعةً منه فأَعطاه ، فلما أَكَلَه وجَدَه مُرًّا ، فقال : يا غلام ، كيف أَكلتَ هٰذا مع شِدَّةِ مَرارتِهِ . قال : يا مولاى ، قد أَكلتُ من يَدِكَ حُلْواً كثيراً ، ولم أُحِبّ أن أُرِيك مِنْ نَفْسِي كَراهةً لمرارته .

وأَوحى اللهُ تعالى إلى عُزَيْر : إذا نزلت بك بَلِيَّةٌ لا تَشْكُنِي إلى خَلْقِي كما لَمْ أَشْكُكَ إلى مَلائِكَتي عند صُعودِ مَساوِئِكَ إلىّ ، وإذا أذنَبْتَ ذنباً فلا تنْظُرْ إلى صِغَره ، ولكن انظُر من أهديتَه[2] إليه .

وقال لُقمان : إنّ الذَّهب يُجَرَّبُ بالنّار ، وإنّ المُؤْمِنَ يُجَرَّبُ بالبَلاء .

وقال بعضُ السَّلَف : عليكم بالصَّبْر فإن الله تعالى قال : (وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ) وقال : (إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ) . وقال : (أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا) . وقال : (اصْبِرُوا وَصَابِرُوا) . وقال : (سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ) .

---

(١) هذه التكملة أو مايفيد معناها ساقطة من كلا الأصلين ؛ والسياق يقتضى إثباتها .

(٢) من أهديته إليه ، يريد الله سبحانه وتعالى . وعبارة الأصل : «من أهداه إليك» ؛ وفيها تحريف ظاهر .

وقال الأَوْزاعىّ : المؤمن يُقِلُّ الكلامَ ويُكْثِرُ العَمل . والمُنافِق يُكثِرُ الكلامَ ويُقِلُّ العَمَل .

وقال فُضَيْل بنُ عِياض : الخَوْفُ ما دامَ الرجلُ صحيحاً أفضل ، فإذا نزل للموتُ فالرَّجاء أَفْضَل .

وقال النّبى — صلى الله عليه وسلّم — إيّاكم والخيانة ، فإنها بئْسَت البِطانة ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « من رَدَّ عن عِرْضِ أخيه رَدَّ الله عَنْ وَجْهِهِ لَفْحَ النار يومَ القِيامة » .

ورُوِىَ مَنْ وُقِىَ شرَّ لَقْلَقِه وقَبْقَبِه وذَبْذَبِه فقد وُقِىَ شِرَّةَ الشَّباب[1] .

وقيل لابن المُبارك : إنكَ لَتَحْفَظ نفسَك من الْغيبَة . قال : لو كنتُ مُغْتاباً أحداً لاغتبْتُ والدىّ ، لأنهما أَحقُّ بحَسَناتى .

وقال بعضُ الصّالحين : لو أنّ رَجُلا تَعَشَّى بألْوان الطَّعام وقد أصابَ من النِّساء فى اللَّيل ، ورَجُلًا آخرَ رَأى رُؤْيا على مِثالِ ما أصابَ الأوّل فى اليَقَظَة ، فإذا مَضَيا صار الحالِمُ والآخرُ سواء .

وقال شقيق : مَنْ أبْصَرَ ثَوابَ الشِّدّة لم يتمنَّ الخُروجَ مِنْها .

وقال شقيق لأصحابه : أيُّما أَحَبُّ إليكم ، أَنْ يكون لكم شىء على المَلِىء ، أو يكونَ شىء لِلْملِىء عليكم ؟ فقالوا : بل[2] نُحِبُّ أن يكون لنا على المَلِىء . فقال : إذا كنتم فى الشِّدة يكون لكمْ على الله ؛ وإذا كُنْتُم فى النِّعْمة يكون لله عليكمُ .

وقال بعضُ السَّلَف : شَتّانَ ما بين عَمَلَين : عملٍ تَذهَب لَذَّته وتَبْقى تَبِعَتُه ، وعَملٍ تَذْهَبُ مَؤُونَتُه ويَبقى ذُخْرُه .

---

(١) اللقلق : اللسان . والقبقب : البطن ، والذبذب : معروف .

(٢) فى كلتا النسختين « بلا » ؛ وهو تحريف .

وقال الرّقاشي في مواعظه : خذوا الذّهب من الحجر ، واللؤلؤ من المزْبلة .

وقال يحيى بنُ معاذ : العلمُ قبل العمل ، والعقلُ قائدُ الخير ، والهوى مرْكَبُ المعاصي ، والمالُ داء المتكبّر .

وقال : من تعلّم عِلْمَ أبي حنيفة فقد تعرّض للسلطان ، ومن تعلّم النحوَ والعربيّةَ دُلِّهَ بين الصِّبْيان ، ومن عَلِمَ عِلْمَ الزُّهاد بلغَ إلى العرْش .

وقال بعض الصّالحين : إنّ العُلماءَ يَسْقُون الناس ، فبعضهم من الغُدْران والحِياض ، وبعضهم من العُيون والقُلُب ، وبعضهم من البِحار الواسعة .

وقال حاتم : لا تَنْظُر إلى من قال ، ولكن أنظر إلى ما قال .

وقال مالك بن دينار : إني لا أقْدِر أن أعْمَل بجميع ما أقول .

وقال وُهَيْبُ بنُ الوَرْد : مَثَلُ عالِم السُّوءِ كمَثَل الحَجَر يقع في السّاقية فلا هو يشْرَبُ الماء ، ولا يُخَلِّي عن الماء فيذهبَ إلى الشجرة .

وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : لأنَا مِن غير الدّجّال أخوفُ عليكم . قيل : ومَنْ هو ؟ قال : الأئمةُ المضِلّون .

وقال الثّوْرِيّ : نعوذ بالله من فِتْنَة العالِم الفاجِر ، وفتنةِ القائدِ الجاهل .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : «سيكون في أمّتي عُلماء فُسّاق ، وقُرّاء جُهّال» .

وقال الثّوْرِيّ : العِلمُ طبيبُ الدّين ، والمالُ داؤه ، فإذا رأيتَ الطّبيبَ يجُرُّ الداء إلى نفسِه فكيفَ يعالجُ غيرَه .

وقال عيسى بنُ مرْيم : ما ينفع الأعْمَى ضَوْءُ الشّمس وهو لا يُبْصِرُها .

وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : « أشدُّ الناسِ حَسْرَةً يومَ القيامة عالِمٌ عَلّمَ الناس ونجَوْا به ، وأُرْتُهِنَ هو بسُوءِ عَمَله » .

وقال أحمد بنُ حَرْب : إن مَنازِل الدُّنيا لا تُقْطَع بالكلام ، فكيف يُقْطَع طريقُ الآخرة بالكلام .

وقال أبو مسلم الخَوْلانىّ : العلماء ثلاثة : رجلٌ عاشَ بعلْمِه وعاشَ به الناسُ ، ورجلٌ عاشَ بِعِلمِهِ ولَمْ يَعِشْ به الناس ، ورجلٌ عاش بِعلْمِهِ الناسُ وهَلَكَ هو .

وشاوَرَ رجلٌ محمدَ بن أسلم فقال : إنِّى أريدُ أن أُزوِّجَ بِنْتى، فَبِمَنْ أُزَوِّج ؟ قال : لا تُزَوِّجْها عالِمًا مفتوناً ، ولا كاسِبًا[1] كاذِبًا ، وَلا عابدًا شاكًّا .

قيل[2]: نَصَح إبليسُ فقال : إيَّاكَ والكِبْر ، فإنِّى تكَبَّرْتُ فلُعِنْتُ ؛ وَإياكَ وَالحِرْصَ فإن أباكَ حَرَصَ على أكْلِ الشَّجَرةِ فأُخْرِجَ من الجنَّة ؛ وَإيّاكَ وَالحسَدَ فإنَّ أَحَدَ بَنِى آدمَ قَتَلَ أخاهُ بالحَسَدِ .

وَمَرَّ حاتِمٌ بقَوْمٍ يَكْتُبُونَ العِلْمَ فنظَرَ إليهمْ وقال : إن يكن معكم ثلاثةُ أشْياءَ لن تُفْلِحُوا . قالوا : وَما هى ؟ قال : هَمُّ أمْسِ ، وَاُغتِمامُ[3] اليوم ، وَخَوفُ الغَدِ .

وقال ابن عُمَر : كان فى بنى إسرائيل ثلاثةٌ خرجوا فى وَجْهٍ ، فأخذَهم المَطَر فدخلوا كهفاً ، فوقع حجرٌ عظيم على باب الكهف ، و بقوا فى الظلمة وقالوا : لا ينجينا إلا ما عملناه فى الرخاء . فقال أحدهم : إنى كنتُ راعياً فأرحْتُ وحَلَبْتُ ، وكان لى أبوان وأولاد وامرأةٌ فسقيتُ أوّلا الوالدَين ثم الأولاد ، فجئتُ يوماً فوجدتُ أبوىَّ قد ناما فلم أوقِظْهما لحُرْمَتهما ولم أسْقِ[4] الأولادَ ،

(١) هذه الكلمة لم يرد منها فى كلا الأصلين غير سين وباء وألف وحرفين مطموسين فى أولها ، ولعل الصواب فيها ما أثبتنا .

(٢) ورد فى كلا الأصلين « قيل النصح من إبليس قال إبليس » ؛ ولعل صواب العبارة ما أثبتنا .

(٣) فى الأصول : « واغتنام » بالنون ؛ وهو تحريف .

(٤) فى (أ) : « أنق » ؛ وهو تحريف .

و بقيتُ قائماً إلى الصبح ؛ فإن كنتَ يا ربِّ قَبِلْتَ هذا منّى فاْجعل لنا فرَجا ، فتحرّك الحَجَر ودخل عليهم الضَّوء .

وقال الثانى : إنى كنتُ صاحبَ ضِياعٍ ، فجاءنى رجل بعد ما مَتَع النهار ، وكان لى أُجَراء يَحْصدون الزرع ، فاستأجرتُه ، فلما تم عملُهم أعطيتُهم أجورهُم، فلما بلغتُ إلى ذلك الرجل أعطيتُه وافياً كما أعطيتُ غيرَه ، فغضبوا وقالوا : تعطيه مِثلَ ماأعطيتَنا . فأخذتُ تلك الأُجرةَ واشتريتُ بها عِجَّوْلًا[1] ونَمَى حتى كَثُرَ البَقر ؛ فجاء صاحب الأجرة يَطلُبُ فقلتُ : هذه البَقرُ كلُّها لكَ ، فسلّمتُها إليه ، فإن كنتَ يا ربِّ قَبِلتَ منّى هذا الوفاء ففرِّجْ عنا . فتحرّك الحَجَرُ ودَخَل منه ضَوْء كثير .

وقال الثالث : كانت لى بنتُ عمٍّ فراوَدْتُها ، فأبَتْ ، حتى أعطيتُها مائةَ دينار فلما أردتُ ما أردتُ اضطربَتْ وارتَعدَتْ . فقلتُ لها : مالَكِ ؟ فقالت : إنى أخافُ الله . فتركتُها ورجعتُ عنها ، إلهى فإن كنتَ قبِلْتَ ذلك منّى ففرِّج عنّا . فتحرّكَ الحَجَرُ وسقَطَ عن باب الكهف وخرجوا منه يَمْشون .

وقال حاتم : لو أُدْخِلت السوقَ شِياهٌ كثيرةٌ لما اشتَرى أَحدٌ المَهْزول ، بل يَقْصِد السَّمينَ للذَّبْحِ .

وقال يحيى بن معاذ : فى القلب عيونٌ يَهيجُ منها الخيرُ والشَّرّ .

وقال بعض الصالحين فى دعائه : اللهم إنّ أحَدَنا لا يشاء حتى تشاء ، فاْجعل مشيئَتَك لى أن تشاء ما يُقرِّبُنِي إليك ؛ اللهم إنك قَدَّرْتَ حرَكاتِ العبد ، فلا يتحرك شىء إلّا بإذنِكَ ، فاجعلْ حرَكاتى فى هَواك .

---

(١) العجّول والعجل واحد .

وقال قاسمُ بنُ محمّد(١) : لأن يَعيش الرَّجُل جاهِلًا خيرٌ له من أنْ يقول مالا يعلم .

وقال الشعبي : لم يكن مجلسٌ أحبَّ إلىَّ من هذا المجلس ، ولأن أَبْعُدَ(٢) اليومَ عن بِساطِه أحبُّ إلىَّ من أنْ أُحْبَسَ فيه .

وقال حاتم : إذا رأيتَ من أخيك عَيْباً فإن كتمتَه عليه فقد خُنْتَه ، وإن قُلْتَه لغيره فقد اُغتبتَه ، وإن واجَهْتَه به فقد أَوْحَشْتَه ؛ قيل له : كيف أصنع ؟ قال : تَكْنى عنه ، وتُعَرِّضُ به ، وتجعَلُه فى جملة الحديث .

وقال : إذا رأيتَ من أخيك زَلَّةً فاطلبْ لها سبعين وجهاً من العِلَل ، فإن لم تجد فلُم نفسَك .

وقال إبراهيم بن جُنَيْد : إتَّخِذْ مِرْآتيْن ، وانظر فى إحداهما عيبَ نفسِك ، وفى الأخرى محاسنَ الناس .

وقال يحيي بنُ معاذ : الدنيا دارُ خراب ، وأخربُ منها قلبُ من يَعْمُرُها ، والآخرة دارُ عُمران ، وأعمَرُ منها قلبُ من يَعْمُرُها .

وقال ابن السماك : الدنيا كالعَرُوس المجلوّة تشوّفَتْ لخُطّابها وفَتَنَتْ بغُرورها ، فالعيون إليها ناظرة ، والقلوبُ عليها والِهة ؛ والنفوس لها عاشقة ، وهى لأزْواجها قاتلة .

وقال بعض العارفين : الدنيا أربعةُ أشياء : الفَرَحُ والرَّاحةُ والحَلاوةُ واللّذّة ؛ فالفَرَحُ بالقَلْب. والرَّاحةُ بالبَدَن ، واللّذة بالحَلْق ، والحلاوةُ بالعين .

(١) كذا فى (ا) والذى فى (ب) « محمد بن القاسم » .

(٢) ورد كلام الشعبي هذا فى نسخة واحدة دون الأخرى . ويشير إلى فساد العلماء وأنهم قد أصبحوا لا يرغب فى الجلوس إليهم . والذى فى النسخة « أقعد اليوم على بساطه » ؛ وهو تحريف .

وقال يحيى بن معاذ : الدنيا خَمْرُ الشيطان ، فمن سَكِر منها لم يُفِقْ إلا فى مَسْكَن النّادمين .

وقال بعض السلف : الزهد خَلْعُ الراحة ، وبذلُ الجهد ، وقطعُ الأمل .

وقال الأنطاكى أحمد بن عاصم : الزُّهْدُ هو الثِّقة بالله ، والتبرّؤُ من الخَلْق ، والإخلاصُ فى العمل ، واُحتمالُ الذُّل .

وقال داود — عليه السلام — فى دعائه : يا رازق النّعّاب فى عُشِّه .

وقال بعضُ السّلف : لو كنتَ على ذنَبِ الرِّيح [لم] [1] تَفِرَّ مِن رزقِكَ .

وقال آخر : الإنسان بين رِزقِه وأجَلِه ، إلا أنه مخدوعٌ بأمَلِه [2] .

وقال عيسى بن مريمَ عليه السلام : خلقَك ربُّك فى أربع مراتبَ ، فكنتَ آمناً ساكناً فى ثلاث ، وقلقلتَ فى الرابعة ، أولاها فى بطن أمِّك فى ظُلُماتٍ ثلاث ، والثانية حين أخرجكَ منه وأخرجَ لك لبَناً من بين فَرْثٍ ودَمٍ . والثالثة إذا فُطِمْتَ أطعَمَك المَرِيَّ الشَّهِيَّ ، حتى إذا اشتدت عِظامُك و بلغتَ تمَامَك صِرْتَ خائناً وأخذْتَ فى السَّرِقَةِ والحيلة .

وقال أنَس : رأيتُ طائراً أَكْمَهَ فتَحَ فاهُ فجاءت جرادة فدخَلَتْ فَمَه .

وقال عيسى — عليه السلام — يا اُبن آدم اعْتَبِرْ رِزْقَكَ بِطَيْرِ السماء ، لا يزْرَعْن ولا يَحْصُدْن وإلهُ السَّماءِ يَرْزُقهنَّ . وإنْ قلتَ : لها أجنحةٌ فاُعتبِرْ بحُمُرِ الوَحْش وبَقَرِ الوَحْش ما أسْمَنَها [وما أبْشَمَها] وأَبْدَنَها !

وقال ابن السَّمّاك لو قال العبد : يا ربِّ لا تَرْزُقنى لقال الله : بل أرزُقُكَ

(١) هذه الكلمة لم ترد فى نسخة (ا) التى وردت فيها وحدها هذه العبارة .

(٢) فى (ا) التى وردت فيها وحدها هذه العبارة : « بعمله » . وما أثبتناه هو مقتضى السياق .

على رَغْمِ أنفِكَ ، ليس لك خالقٌ غيرى ، ولا رازقٌ سِواى ، إن لم أرزُقْكَ فمن يَرْزُقُك ؟

وقيل لراهب : مِن أينَ تأ كل ؟ فقال : إن خَالقَ الرَّحَى يأتى بالطَّحِين .

وقال حاتم : الحمارُ يعْرِفُ طريقَ المَعْلَفَ ، والمنافِقُ لايعْرِفُ طريق السماء .

وقال إبراهيمُ بنُ أدْهَم : سألتُ راهِبًا من أين تأ كُلُ ؟ قال : ليس هٰذا العلمُ عِنْدِى ، ولكن سَلْ رَبِّى من أين يُطْعِمُنى .

وقال حاتم : مَثَلُ المتوكِّل مَثَلُ رَجُلٍ أَسْنَدَ ظهرَهُ إلى جبل .

وقال بعضُ الأبرار : حَسْبُكَ من التوكُّل ألاَّ تَطْلُبَ لنَفْسِك ناصِرًا غيرَه ، ولا لرِزقِكَ خازنًا غيرَه ، ولا لعَمَلِكَ شاهداً غيرَه .

وقال عبدُ الحميد بنُ عبد العزيز : كان لأبى صديقٌ وَرّاق ، فقال له [أبى] يوما : كيف أصبحتَ ؟ قال : بخير ما دامت يَدِى مَعِى ، فأصبحَ الوَرّاقُ وقد شَلَّتْ يَدُه .

قال أبو العالية : لا تتَّكِلْ على غيرِ الله فيَكِلَكَ اللهُ إليه ، ولا تعملْ لغيرِ اللهِ فيجعلَ ثوَابَ عَمَلِكَ عليه .

وقال رجلٌ لأبى ذَرّ : أنتَ أبو ذَرّ ؟ قال : نعم . قال : لولا أنكَ رَجُلُ سوء ما أُخرِجْتَ من المدينة . فقال أبو ذرّ : بينَ يَدَىَّ عقبةٌ كَؤُودٌ إنْ نجوْتُ منها لا يضُرُّنى ما قُلْتَ ، وإنْ أقعْ فيها فأنا شرٌّ مِمَّا تقول .

وقيل لفُضَيل : إن فلاناً يقع فيك . فقال : لأغِيظَنَّ مَنْ أمَرَه (١) بذلك اللهمَّ اغفر له .

(١) من أمره بذلك ، يريد الشيطان .

وقال رجل لأبي هُرَيرة : أنتَ أبو هريرة ؟ قال : نعم . قال : سارق الذريرة[١] ؟ قال : اللهمَّ إن كان كاذباً فاغفرْ له ، وإن كان صادقاً فاغفرْ لي ؛ هكذا أمرَني رسولُ الله صلى الله عليه وسلم .

وقال رجل لابن مُكدَّم : يا كافر . قال : وَجَبَ عليَّ الشُّكرُ ، حيث لم يجرِ ذلك على لساني ، ولم تَجِبْ عليَّ إقامةُ الحُجّة فيه ، وقد طَوَيْتُ قلبي على جُمْلةٍ[٢] أشياء : قال : وما هنَّ ؟ قال : إنْ قُلْتَ ألفَ مرَّة لا أُجيبُك مرَّة ، ولا أحقِدُ عليك ، ولا أشكوك إلى أحد ، وإن نَجَوْتُ مِنَ الله عزَّ وجلَّ بعد هذه الكلمة شفعتُ لك . فتاب الرجل .

كان للحسن جارٌ نصرانيّ ، وكان له كَنيف على السَّطْح ، وقد نَقبَ ذلك في بيْته ، وكان يتحلَّب منه البوْل في بَيْتِ الحسن ، وكان الحسنُ أمرَ بإناء موضع تحته ، وكان يُخْرِج ما يجتمع منه ليلا ، ومضى على ذلك عشرون سنةً ، فمرِض الحسنُ ذاتَ يوْمٍ فعاده النّصرانيّ ، فرأى ذلك ، فقال : يا أبا سعيد : مُذْ كَمْ تَحْمِلُون مِنّي هذا الأذى ؟ فقال : منذ عشرين سنةً . فقطَع النّصرانيُّ زُنّاره وأسْلَمَ .

وجاءت جاريةٌ لمنْصور بن مِهْران بمرَقَةٍ فهرَاقتْها عليه ، فلما أحسَّ بحرِّها نظر إليها ، فقالت : يا مُعَلِّمَ الخيْرِ اُذْكُرْ قولَ الله . قال : وما هو ؟ قالت : (وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ) قال : كَظَمْتُ . قالت : واذكُرْ (وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ) قال : قد عفَوْتُ . قالت واذكُرْ (وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) . قال : اذْهَبي فأنتِ حُرّة .

---

(١) الذريرة : ضرب من الطيب .

(٢) في كلتا النسختين : «خمسة» ؛ ولعله محرف عما أثبتنا إذ لم يذكر فيما بعد غير أربعة أشياء ، أو لعل الخامسة قد سقطت من الناسخ .

قال الحسَن : ما جَزْعَةٌ أَحَبُّ إِلىّ من جَزْعَةِ مُصِيبَةٍ رَدَّهَا صاحِبُها بصَبْرٍ ، وَجَزْعَةِ غَضَبٍ رَدَّها صاحبُها بحِلْمٍ .

وكان محمدُ بنُ المنكدرِ إذا غَضِبَ على غُلامِهِ يقول : ما أَشْبَهكَ بسَيِّدِكَ !

وقال أبو ذَرّ : كيف يكون حليما من يَغْضَبُ على حِمارِه وسَخْلِه وهِرِّه .

وماتَ ابنٌ للرشيد فَجَزِعَ جَزَعا شديداً ، فوَعَظَه العُلماء فلم يتعظ ؛ فدَخَل مخنَّث وقال : أتأْذَنُ لى فى الكلام ؟ قال : تكلَّم . فكشفَ عن رأْسِه وقام بين يديه ، وقال : يا أميرَ المؤمنين ، أنا رجل ، وقد تَشَبَّهْتُ بالنِّساء كما تَرَى ، فأىُّ شىء كنتَ تَصْنَعُ لو كان أُبنك فى الأَحْياءِ وكان على صُورتى ، فاتَّعَظَ به وأَخْرَجَ النَّوَّاحاتِ من الدَّار .

قال وَهْب : مكتوبٌ فى الكُتُب القديمة : إن كنتم تريدون رَحمتى فارْحَموا عِبادى .

وقال جعفر بن محمد — عليهما السلام — حُسْنُ الجوار عِمارة الدِّيار ومَثْراةُ المال .

ولما قرأ هٰذا الجزْء — حَرسه الله — ارتاح وقال : أين نحن من هٰذه الطَّرِيقة ، إلى الله المُشْتكَى .

الليلة الخامسة والعشرون

وقال — أدامَ اللهُ دَوْلته — ليلةً : أُحِبّ أنْ أَسمعَ كلاماً فى مَراتِب النّظْمِ والنَّثْر ، وإلى أىِّ حَدٍّ ينتهيان ، وعلى أىِّ شكْلٍ يتفقان ، وأيُّهما أَجمعُ للفائدة ، وأَرْجَعُ بالعائدة ، وأدْخَلُ فى الصِّناعة ، وأَوْلَى بالبَراعة ؟؟

فكان الجواب : إنَّ الكلامَ على الكلامِ صَعْب . قال : ولِم ؟ قلتُ : لأنَّ الكلامَ على الأمور المعتَمد فيها على صُوَرِ الأمور وشُكولها التى تنقسم بين المعقول وبين ما يكون بالحِسّ مُمكن ، وفضاء هٰذا متّسِع ، والمجالُ [فيه] مختلف[1] . فأمّا الكلامُ على الكلام فإنّه يَدُور على نَفْسه ، ويَلتَبِسُ بعضُه ببعضِه ؛ ولهٰذا شقَّ النحْوُ وما أَشْبَهَ النَّحْوَ من المنطِق ، وكذٰلك النَّثْرُ والشِّعْرُ وعلى ذٰلك .

وقد قال الناس فى هٰذين الفنَّين ضروباً من القَوْل لم يَبْعُدوا فيها من الوَصْفِ الحَسَن ، والإنصاف المحمود ، والتَّنافُس المقبول ، إلاّ ما خالَطَه من التعصُّب والمَحْك ، لأنَّ صاحبَ هٰذين الخُلُقين لا يَخلو من بعضِ المُكابَرَةِ وَالمُغالَطة وَبقَدْرِ ذلك[2] يَصيرُ له[3] مَدْخَلٌ فيما يُرادُ تحقيقُه من بيان الحجة أو قُصُورها[4] عما يُرامُ من البُلوغ بها ، وهٰذه آفةٌ معترِضةٌ فى أُمور الدِّين والدُّنيا ، وَلا مَطمَعَ فى زَوالِها ، لأنَّها ناشئة من الطَّبائع المختلفة ، والعادات السَّيِّئة ، لٰكنّى[5] مع هذه الشَّوْكةِ الحادَّة ، والخُطّةِ الكادّة[6] ؛ أقولُ ما وَعَيْتُه عن أرباب هٰذا الشّأن ، والمُنْتَمِين[7] لهٰذا الفن ، وَإنْ عَنَّ شىء يكون شَكْلاً لذلك وَصَلْتُه به تكميلا للشَّرْح ، واستيعاباً للباب ، وَصَمْداً[8] للغاية ، وأَخْذًا بالحِياطة ، وإن كان المنتهٰى منه غيرَ مَطْموع فيه ، وَلا مَوْصُولٍ إليه ؛ والله المعين .

---

(١) فى ب « عكر » مكان قوله : « يختلف » .

(٢) فى كلتا النسختين : « وبذلك القدر » ، وفى كلتا الكلمتين تقديم وتأخير وقعا من الناسخ ، وسياق الكلام يقتضى ما أثبتنا . ويشير « بذلك » إلى ماسبق من المكابرة والمغالطة .

(٣) كذا فى ب والذى فى (أ) يصير ذلك . (٤) فى كلتا النسختين « وقصور » .

(٥) فى (أ) « التى » ؛ وهو تحريف .

(٦) فى كلتا النسختين « الكبرى » ؛ وهو تحريف . (٧) فى (أ) والقيمين بهذا الفن ؛ والمعنى عليه يستقيم أيضا . (٨) صمداً للغاية ، أى قصداً إليها .

(٢) قال شيخُنا أبو سليمان : الكلام يَنْبَعِثُ فى أوَّل مبادِئه إمّا مِنْ عَفْوِ البَديهة ، وإمّا مِن كَدِّ الرَّوِيَّةِ ، وإمّا [أَنْ يكونَ] مركَّباً منهما ، وفيه قُواهُما بالأكْثر والأقَلِّ ؛ ففضيلةُ عَفْوِ البَديهةِ أنّه يكونُ أَصْفَى ، وفضيلةُ كَدِّ الرَّوِيَّة أنه يكون أَشفَى ؛ وفضيلةُ المركَّبِ منهما أنه يكون أَوْفَى ؛ وعَيْبُ عَفْوِ البديهةِ أن تكونَ صورةُ العَقْلِ فيه أقلَّ ؛ وعَيْبُ كَدِّ الرويّة أن تكون صورةُ الحِسِّ فيه أقلّ[1] ، وعَيْبُ المركّب منهما بقَدْرِ قِسْطه منهما : الأغْلَبِ والأضْعَف ؛ على أنّه إنْ خَلَصَ هذا المركّب من شوائب التكلُّف ، وشَوائن التّعسّف ، كان بليغاً مَقْبولا رائعاً حُلْواً ، تَحْتَضِنه الصُّدور ، وتختلسُه الآذان ، وتَنْتَهِبُه المجالِس ، ويَتَنافَسُ فيه المُنافِسُ بَعْد المُنافِس ، والتّفاضُلُ الواقعُ بين البُلَغاء فى النَّظْمِ والنَّثْر ، إنما هو فى هذا المركّب الذى يُسَمَّى تأليفاً ورَصْفاً : وقد يجوز أن تكون صورةُ العَقْل فى [البَديهةِ أَوْضح ، وأَنْ تكونَ صورةُ الحِسّ[2] فى الرَّوِيّةِ] أَلْوَح إلا أنّ ذلك مِن غرائب آثار النَّفْس ونوادِرِ أفعالِ الطّبيعة ، والمدارُ على العَمود الذى سَلَفَ نَعْتُه . ورسْمُ أصله .

(٣) وسمعتُ أبا عابدٍ الكَرْخىَّ صالحَ بنَ علىٍّ يقول : النّثرُ أصلُ الكلام ، والنّظْمُ فرْعُه : والأصلُ أشرفُ من الفَرْع ، والفَرْع أنقَصُ من الأصل : لكنْ لكلِّ واحد منهما زائناتٌ وشائنات ، فأما زائناتُ النّثر فهى ظاهرةٌ ، لأنّ جميعَ

---

(١) فى كلتا النسختين « أكثر » ؛ وهو غلط من الناسخ صوابه ما أثبتنا كما هو المعروف فى الفرق بين البديهة والروية أو لعل الصواب « العقل » مكان « الحس » مع بقاء كلمة « أكثر » .

(٢) فى كلتا النسختين « العقل » مكان « الحس » ؛ وهو خطأ من الناسخ صوابه ما أثبتنا كما يفهم من سياق الكلام .

الناس فى أوّل كلامهم يقصدون النثر ، و إنما يتعرضون للنظم فى الثانى بداعية عارضة ، وسبب باعث ، وأمر معيّن .

قال : ومن شرفه أيضاً أنّ الكتبَ القديمةَ والحديثةَ النازلةَ من السّماء على ألسنة الرُّسل بالتأييد الإلهىّ مع اختلاف اللُّغات كلّها منثورةٌ مبسوطة . متباينةُ الأوزان ، متباعِدةُ الأبنية ، مختلفةُ التصاريف ، لا تنقاد للوزن[1] ، ولا تدخل فى الاعاريض ؛ هذا[2] أمرٌ لا يجوز أن يقابله ما يدحضه ، أو يعترض عليه بما يحرضه[3] .

قال : ومن شرفه أيضاً أن الوحدة فيه أظهر ، وأثرها فيه أشهر ، والتكلف منه أبعد ، وهو إلى الصّفاء أقرب ، ولا توجد الوحدةُ غالبةً على شىء إلا كان ذلك دالاً على حُسن ذلك الشىء وبقائه ، وبهائه ونقائه .

قال : ومن فضيلة النثر أيضاً كما أنه إلهى بالوحدة ، كذلك هو طبيعىّ بالبدأة . والبدأة فى الطبيعيات وحدة ، كما أنّ الوحدة فى الإلهيّات بدأة ، وهذا كلام خطير

قال : ألا ترى أنّ الإنسان لا ينطق فى أوّل حاله من لدن طفوليّته إلى زمان مديدٍ إلا بالمنثور المتبدّد ، والميسور المتردِّد ؛ ولا يُلهَم إلا ذاك ، ولا يُناغَى إلا بذاك ؛ وليس كذلك المنظوم ، لأنه صناعىّ ؛ ألا ترى أنّه داخلٌ فى حصار العروض وأسر الوزن وقيدِ التأليف ، مع توقّى الكسر ، واحتمال أصناف الزّحاف ، لأنه لما هبطت درجته عن تلك الرّبوة العالية ، دخلته الآفةُ من كلّ ناحية .

(١) فى كلتا النسختين « للذوق » ؛ وهو تحريف .

(٢) عبارة ب « وهذا الفن » .

(٣) يحرضه ، أى يفسده . وفى ب « برحضه » ؛ وهو تحريف .

قال : فإن قيل : إن النَّظْمَ قد سَبَقَ العَروضَ بالذَّوق ، والذَّوْق طِباعى ؛ قيل فى الجواب : الذَّوْق وإن كان طباعيًّا فإنه مَخْدومُ الفِكْر ، والفِكْرُ مِفْتاح الصَّنائع البَشَرِيَّة ، كما أَنَّ الإلهام مستخدِم للفِكْر ، والإلهام مفتاح الأمور الإلٰهيّة .

قال : ومن شَرَف النَّثْر أيضاً أنه مُبَرَّأ مِنَ التكلُّف ، مُنزَّهٌ عن الضرورة ، غنِيٌّ عن الاعتِذارِ والافتِقار(١) ، والتقديمِ والتأخير ، والحَذْفِ والتكرير ، وما هو أكثرُ من هذا مما هو مدوَّن فى كُتُب القوافى والعَروض لأربابها الذين اسْتَنْفَدوا غايتهم فيها .

وقال عيسى الوزير : النَّثر من قِبَل العَقْل ، والنَّظمُ من قِبَل الحِسّ ، ولِدخول النَّظم فى طَيِّ الحِسّ دَخلتْ إليه الآفة ، وغَلبتْ عليه الضَّرورة ، واُحتيجَ إلى الإغضاء عمّا لا يجوزُ مِثْله فى الأصل الذى هو النثر .

وقال ابن طرَّارة — وكان مِنْ فُصَحاء أهلِ العَصْر بالعراق — : النثرُ كالحُرَّة ، والنَّظمُ كالأمَة ، والأمةُ قد تكون أحْسَنَ وَجْهًا ، وأدمَثَ شمائل ، وأحْلَى حَركات : إلا أنَّها لا تُوصَفُ بكرَم جوهَر الحُرَّة ولا بشَرَفِ عِرْقِها وعِتْقِ نَفْسها وفضْلِ حَيائها .

وقال : ولشَرَفِ النَّثْر قال الله تعالى فى التنزيل : (إذا رأيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثورًا) ولم يَقلْ : لؤلؤا منظوما ؛ ونجومُ السماء منثرَة وإن كان انتثارُها على نِظام ، إلاَّ أنَّ نظامَها فى حدِّ(٢) العقل ، وانتثارها فى حدِّ(٢) الحِسّ ، " لأنَّ الحكمةَ إذا غطَّتْ نفسَها(٣) كانت الغلبةُ للصُّورة القائمةِ بالقُدْرة " .

(١) فى كلتا النسختين : « والاعتقاد » ؛ وهو تحريف .

(٢) فى الأصول « فى بلد » فى كلا الموضعين ؛ ولعل الصواب ما أثبتنا .

(٣) فى كلا الأصلين « نطت » ؛ وهو تحريف . وورد بعد قوله « بالقدرة » قوله « أبلغ » وهى زيادة من الناسخ لا مقتضى لها .

وقال أحمد بن محمد كاتبُ رُكْن الدَّوْلة : الكلام المنثورُ أشبهُ بالوَشْى ، والمَنْظُومُ [أَشْبَه] بالنيِّر المخطَّط ، والوَشْىُ يَرُوق ما لا يَرُوقُ غيرُه .

ويقال : كنَّا فى نِثار فلان ، ولا يقال : [كنَّا] فى نظامِ فلان .

وقال ابن هِنْدُو الكاتب : إذا نُظِر فى النظمِ والنَّثرِ على استيعابِ أحوالهِمَا وشَرَائِطهما ، والاطِّلاع على هَوَادِيهما وتَوَاليهما كانَ أنَّ المنظومَ فيه نَثرٌ من وَجْه ، والمنثورَ فيه نَظْمٌ منْ وَجْه ، ولولا أنّهما يَسْتَهِمَانِ هٰذا النعْتَ لما ائتلَفَا ولا اخْتَلَفا .

وقال ابنُ كعْب الأنصارى: مِنْ شَرَفِ النَّثرِ أنَّ النبىَّ صلى الله عليه وسلمَ لم ينطِقْ إلا بهِ آمراً وناهياً ، ومستخبرًا ومخبرًا ، وَهادِياً وَوَاعِظاً ، وغاضِباً وراضياً ، وَما سُلِبَ النَّظْمَ إلا لهبُوطِه عن دَرَجَةِ النَّثر ، ولا نُزِّهَ عنه إلا لما فيه من النقص ، وَلو تَساوَيا لنطقَ بهما[1] ، ولمّا اختلفا خُصَّ بأشرَفهما الذى هو أجْوَلُ فى جميع المواضع ، وَأَجْلبُ لكلِّ ما يُطلبُ من المنافع .

وهذا قليل من كثير مما يكون تبصرةً لِباغِى هٰذا الشان ، وَلِمَنْ يتوَخَّى حديثَهُ عند كلِّ إنسان .

وَأَمَّا ما يُفضَّل به النَّظْمُ على النَّثر فأشياء سمعناها من هٰؤلاء العُلماء الذين كانت سماء عِلْمِهم دَرُورا ، وبحرُ أدبهِمْ مُتَلاطِما ، وَرَوضُ فضْلِهمْ مُزْدَهِرا ، وَشمسُ حِكْمَتِهِمْ طالعة ، ونارُ بلاغتِهِمْ مُشْتَعِلة ، وأنا آتى على ما يَحْضُرُنى من ذٰلك ، مَنْسوباً إليهم ، وَمَحْسُوباً لهم ، ليكون حقُّهم به مَقْضِيّا ، وَذِكرُهم على مرِّ الزَّمان طَرِيّا .

قال السلامىّ : من فضائلِ النَّظم أَنْ صارَ [لنا] صناعةً برأسِها ، وتكلَّمَ

(١) فى كلتا النسختين « عنهما » .

الناسُ فى قوافيها ، وتَوَسَّعوا فى تَصاريفِها وأعاريضِها ، وتَصرَّفوا فى بحورِها ، واطَّلعوا على عجائب ما اُستُخْزِنَ فيها من آثار الطَّبيعة الشَّريفة ، وشَواهِدِ القُدرةِ الصادقة ؛ وما هكذا النَّثْر ، فإنَّه قَصَّر عن هذه الذِّرْوَةِ الشَّامِخَة ، والقُلَّةِ العالية ؛ فصار بذلك بِذْلَةً لكافَّةِ الناطِقِين من الخاصَّة والعامَّة والنساءِ والصِّبْيان .

وقال أيضاً : من فضائل النَّظْم أنّه لا يُغَنَّى ولا يُحْدَى [إلا بجيِّدِه] ولا يُؤهَّل لِلَحْنِ الطَّنْطَنَةِ[1] ، ولا يُحَلَّى بالإيقاع الصحيح غيرُه ، لأن الطَّنْطَنَات والنَّقَرات ، والحركات والسكنات لا تتناسب إلّا بعد اشتمال الوَزْن والنَّظْم عليها ، ولو [كان] فُعِل [هذا] بالنَّثر كان مَنْقوصاً ، كما لو لم يُفعَلْ هذا بالنَّظْم لكان محسوساً ؛ والغِناء معروفُ الشَّرَف ، عجيبُ الأثر ، عَزيزُ [القَدْر] ، ظاهر النفع فى معاينة الروح ، ومُناغاةِ العَقْل ، وتنبيــه النَّفْس ، واجتلاب [الطَّرَب] وتفريج الكُرَب ؛ وإثارة الهِزَّة ، وإعادة العِزَّة ، وإذْكار العهد ، وإظهار النَّجْدة ، واكتسابِ السَّلْوَة ؛ وما لا يُحصَى عَدَدُه .

ويقال : ما أحسنَ هذه الرسالة لو كان فيها بيتٌ من الشِّعر . ولا يقال : ما أحْسَنَ هذا الشِّعر لو كان فيه شىء من النَّثْر ، لأنّ صورةَ المَنْظوم محفوظة ، وصورةَ المَنْثور ضائعة .

وقال ابنُ نُباتة : مِن فضل النَّظْمِ أنّ الشَّواهدَ لا توجد إلّا فيه ، والحُجَج لا تُؤْخَذُ إلّا منه ، أعنِي [أنّ] العلماء والحُكَماء والفقهاء والنحويّين واللغويّين يقولون : « قال الشاعر » ؛ و « هذا كثيرٌ فى الشِّعر » ، و « الشِّعْر قد أتى به » ، فعلَى هذا الشاعرُ هو صاحب الحجّة ، والشعر هو الحجَّة .

وقال الخالع : للشُّعَراء حَلْبة ، وليس للبلغاء حَلْبــة ، وإذا تَتَبَّعْتَ جوائزَ

(١) الطنطنة : حكاية صوت الطنبور وشبهه .

الشُّعَراء التى وَصلتْ إليهم من الخُلفاء ووُلاةِ العُهود والأُمراء والوُلاةِ فى مَقاماتِهم المؤرَّخة ، ومَجالِسِهم الفاخرة ، وأنديتِهم المشْهورة ، وجَدْتَها خارِجَةً عن الحَصْر ، بعيدةً من الإحصاء ؛ و إذا تتبَّعْتَ هذه الحالَ لأصحاب النّثر لم تجد شيئاً من ذلك ؛ والناس يقولون : ما أكملَ هذا البليغَ لو قَرَضَ الشِّعر ! ولا يقولون : ما أشعرَ هذا الشاعرَ لو قَدَرَ على النّثر ! وهذا لِغنَى الناظِمِ عن النَّاثِر ، وفقرِ الناثر إلى الناظم ؛ وقد قَدَّمَ الناسُ أبا علىّ البصيرَ على أبى العَيْناء ، لأنّ أبا علىّ جمعَ بين الفَصياحتين ، وضربَ بالسَّيْفَيْنِ[1] فى الحومتين ، وفاز بالقِدْحين المُعَلَّيَيْنْ[2] فى المكانين .

(٥) وقال لنا الأنصارىُّ : سمعتُ ابنَ ثوابةَ الكاتب يقول : لو تصفّحْنا [ما صارَ إلى] أصحاب النثر من كتّاب البلاغة ، والخُطباء الذين ذبّوا عن الدّوْلة ، وتكلّموا فى صنوف أَحْداثها وفنونِ ما جَرى الليلُ والنهارُ به ؛ [ممَّا] فتِقَ به الرَّتق ، ورُتِقَ به الفَتْق ، وأُصْلِحَ به الفاسد ، ولُمَّ به الشَّعَث ، وقُرِّب به البعيد ، وبُعِّد به القريب ، وحُقِّق به [الحقّ ، وأُبْطِلَ به] الباطل ، لكان يوفى على كلّ ما صار إلى جميع من قال الشِّعر ولاكَ القصيد ، ولَهِج بالقريض ، واستماحَ بالمرْحمة ؛ ووقفَ موقفَ المَظلوم ، وانصرَف انصرافَ المَحْروم ؛ وأين منْ يَفْتَخِر بالقريض ، ويُدِلّ بالنَّظم ، ويتباهى بالبَديهة ، من وزير الخليفة ، ومن صاحب السّرِّ ، وممن ليس بين لسانِه ولسان صاحبه واسطة ، ولا بين أُذُنِه وأُذُنه حجاب ؟ ! ومتى كانت الحاجةُ إلى الشعراء كالحاجة إلى الوزراء ؟ ! ومتى قامَ وزير لشاعر للخدمة أو للتّكرمة ؟ ! ومتى قعد شاعرٌ لوزير

---

(١) فى كلتا النسختين : « وضرب بالشقين فى الحرمين » ؛ وهو تصحيف .

(٢) فى كلتا النسختين : « المعلمين » ؛ وهو تحريف .

على رَجاء وتأميل(١)؟! بل لا ترَى شاعراً إلّا قائماً بين يدىْ خليفةٍ أو وَزِيرٍ أو أميرٍ باسطَ اليَد ، ممدودَ الكفّ ، يَستَعطِف طالباً ، ويَسْترحم سائلا ؛ هذا مع الذِّلّة والهوان ، والخوفِ من الخَيْبَةِ والحِرمان ، وخَطَر الرَّدّ عليه فى لفظٍ يمُرُّ ، وإعرابٍ يجرى ، واستعارةٍ تَعرِض ، وكِنايةٍ تعترض ، ثمّ يكون مَقْليًّا مَشيناً بما يظنّ به من الهجاء الذى ربما دلّاه فى حَوْمَةِ الموت ، وقد برّأ اللهُ تعالى بإحسانه القديمِ ومنّه الجسيمِ صاحبَ البلاغة مِن هذا كلِّه ، وكفاه مؤونةَ الغَدْرِ به ، والضَرَرِ فيه .

قال : وكان ابنُ ثَوابةَ إذا جال فى هذه الأكناف لا يُلحقُ شأْوُه ، ولا يُشَقُّ غُبارُه ، ولا يُطمَع فى جوابه .

قال : وله مُناظَراتٌ واسعةٌ فى هذا الباب مع جماعةٍ من أهلِ زمانه ناقَصوه وعارضوه ، وكاشَفوه وواجهوه : فثَبَتَ لهم ، وانتصفَ منهم ، وأرْبى عليهم ، ولم يَتقاعَسْ عن مسالطتهم(٢) ومُبالطتهم إلى أن نكصوا على أعقابهم ، وراجعوا ما هو أولى بهم

(٦) قال أبو سليمان : المعانى المعقولة بسيطةٌ(٣) فى بحبوحة النفس ، لا يحومُ عليها شىءٌ قبلَ الفِكر ، فإذا لقِيها الفِكر بالذِّهْنِ الوثيقِ والفَهْمِ الدّقيق ألقى ذلك إلى العبارة . والعبارة(٤) حينئذ تتركّب بين وَزْنٍ هو النَّظم للشّعر ، وبين وزْن هو سِياقَةُ [الحديث] ؛ وكلٌّ هذا راجعٌ إلى نسبةٍ صحيحة أو فاسدة ،

---

(١) فى كلتا النسختين « على وجه وتأميل » ؛ وهو تحريف فى كلتا الكلمتين .

(٢) فى ا « مصالبتهم » ، وفى ب « مصالتتهم » ؛ وما أثبتناه هو أنسب لسياق العبارة . والمسالطة معروفة . والمبالطة : المجالدة والمنازلة .

(٣) بسيطة ، أى مبسوطة .

(٤) فى ا : « إلى العائدة والغائرة » ؛ وهو تحريف .

وصورةٍ حسناء أو قبيحة ، وتأليفٍ مقبولٍ أو ممجوج ، وذَوْقٍ حُلْوٍ أو مُرّ (١) وطريقٍ سَهْلٍ أو وَعْر ، واقتضابٍ مُفَضَّلٍ أو مَردود ، واحتجاجٍ قاطعٍ أو مقطوع ، وبُرْهانٍ مُسْفِرٍ أو مُظلم ، ومتناوَلٍ بعيدٍ أو قريب ، ومسموعٍ مألوفٍ أو غريب .

قال : فإذا كان الأمرُ فى هذه الحال على ما وَصَفنا فللنثر فضيلتُه [الّتى] لا تُنْكَر ، وللنَّظمِ شرَفه [الّذى] لا يُجْحد ولا يُسْتَر ، لأنّ مناقِبَ النّثر فى مُقَابَلةِ منافِب النَّظم ، ومثالِبَ النَّظْمِ فى مُقابلة مَثالبِ النَّثْر ؛ والذى لا بدّ منه فيهما السَّلامةُ والدِّقّة ، وتجنُّبُ العَوِيص ، وما يحتاج إلى التأويل والتخليص .

وقد قال بعض العرب : خيرُ الكلام ما لم يُحْتج معه إلى كلام .

(٧) ووَقفَ أعرابىٌّ على مَجْلِس الأخْفش فسَمِع كلامَ أهله فى النَّحْو وما يَدْخُل معه ، فحارَ وعجب ، وأطْرَق ووَسْوَس ، فقال له الأخفش : ما تسمع يا أخا العرب ؟ قال : أراكم تتكلَّمون بكلامنا فى كلامنا بما ليس من كلامنا .

وقال أعرابىٌّ آخر :

ما زال أخْذُهُمُ فى النّحو يُعْجِمُنى (٢) حتّى سمعتُ كلامَ الزَّنْجِ والرُّومِ

وقال أبو سليمان : نَحْوُ العَرَبِ فِطْرَة ، ونَحْوُنا فِطنة ؛ فلو كان إلى الكمال سبيلٌ لكانت فِطرتُهم لنا مع فِطْنَتِنا ، [أو كانت فطنتُنا لهم] مع فِطرَتهم .

وقال : لمَّا تميّزت الأشياءُ فى الأصول ، تلاقَتْ ببعض التّشابه فى الفروع ، ولمَّا تباينت الأشياء بالطَّبائع ، تألَّفتْ بالمُشاكلة فى الصَّنائع ، فصارت من

---

(١) فى ا : « أو كريه » .

(٢) فى كلتا النسختين : « يعجبنى » ؛ وسياق البيت يقتضى ما أثبتنا .

حيث أُفترقت مُجْتَمِعة ، ومن حيثُ أُجتمعتْ مفترِقة ، لتكون قُدْرةُ الله — عزَّ وجَلَّ — آتيةً على كلّ شىء ، وحكمتُه موجودةً فى كلِّ شىء ، ومشيئتُه نافذةً فى كلِّ شىء

وقد أَنشدَ بعضُ الأعراب ما يَقتضى هذا المكانُ رَسمَهُ فيه ، لأنَّه موافق لما نحن فيه فى ذِكْرِه ووصفه .

قال :

ما دا لَقِيتُ من المستعربينَ ومِنْ ... تأسيسِ نحوِهِمُ هذا الّذى ابتَدَعوا

إن قلتُ قافيةً فيه يكون لها ... معنًى يخالِف ما قاسُوا وما وَضعُوا

قالوا لحَنْتَ وهٰذا الحرفُ مُنْخَفِضٌ ... وذاكَ نَصْبٌ وهـذا ليس يرْتفع

وحرَّشوا بين عبدِ الله واجتَهَدُوا ... وبين زَيْدٍ وطالَ الضَّرْبُ والوجَعُ

إنّى نَشَأْتُ بأرضٍ لا تُشَبُّ بها ... نارُ المجوس ولا تُبْنَى بها البِيَع

ولا يطَأَ القِرْدُ والخنزيرُ ساحتَها ... لكنْ بها الهَيْقُ والسِّيدانُ والصَّدَع (١)

ما كلُّ قولىَ معروفٌ لكم فخذوا ... ما تعرِفون وما لم تعرِفوا فدعُوا

كم بين قومٍ قد أحتالوا لمنطقهم ... وآخرين على إعرابِهم طُبِعوا

وبين قوم رَأَوْا شيئًا مُعايَنة ... وبين قومٍ رَوَوْا بعضَ الّذى سمِعوا

فهذا هذا .

٨) وقال أبو سليمان : البلاغة ضروب : فمنها بلاغة الشِّعر [ومنها بلاغة الخطابة] (٢)

---

(١) الهيق : الظليم ، وهو ذكر النعام ، والسيدان : الذئاب ، الواحد سِيد بكسر السين ، والصدع من الوعول والظباء وحمر الوحش والإبل : الشاب الفتىّ .

(٢) لم ترد هذه التكملة فى كلتا النسختين ؛ وقد أثبتناها لما سيأتى بعد من الحديث عنها عند تفصيل هذه الأنواع .

[ومنها بلاغة النثر ، ومنها بلاغة المَثَل ، ومنها بلاغة العقل] ، ومنها بلاغة البديهةِ ، ومنها بلاغَةُ التأويل .

قال : وأمَّا بلاغة الشِّعر فأَنْ يكون نَحْوُهُ مقبولاً ، والمعنى من كلٍّ ناحية مكشوفاً ، واللفظُ من الغريب بريئاً ، والكناية لطيفة ، والتصريحُ احتجاجاً ، والمؤاخاة موجودة ، والمواءمة[1] ظاهرة .

وأما بلاغة الخَطابة[2] فأَنْ يكون اللَّفظ قريباً[3] . والإشارة فيها غالبة ، والسَّجْعُ عليها مستوْلياً ، والوَهْم فى أضعافِها سائحاً ، وتكون فِقرُها قِصاراً ، ويكون ركائبها شَوارِدَ إبل .

وأما بلاغةُ النثر فأن يكون اللّفظ متناوَلاً[4] ، والمعنى مشهوراً ، والتهذيب مستعمَلا ، والتأليفُ سهلا ، والمُرادُ سليما ، والرَّونقُ عالياً ، والحواشى رقيقة ، والصّفائح مصقُوله ، والأمثلة خفيفة المأخذ ، والهوادى متّصلة ، والأعجاز مُفَصَّلة[5] .

وأما بلاغةُ المَثَل فأن يكون اللفظ مقتضَباً ، والحذْفُ محتمَلاً ، والصورةُ محفوظة ، والمرْمَى لطيفاً ، والتّلويحُ كافياً ، والإشارةُ مُغْنِيَة ، والعبارة سائرة[6] .

وأما بلاغة العقل فأنْ يكون نصيبُ المَفهوم من الكلامِ أسبَقَ إلى النّفس من مَسموعه إلى الأذُن ، وتكون الفائدةُ من طريق المعنى أبلَغ من ترْصيع

---

(١) فى ب : والمراماة ، وفى ا : والمراقبة ؛ وهو تحريف فى كلتا النسختين .

(٢) فى كلتا النسختين « الكتابة » ؛ وهو تحريف ، لما فيه من التكرار ، لأنه سيتكلم فيما بعد عن بلاغة النثر .

(٣) فى كلتا النسختين : « غريبا » بالعين ؛ ولعل صوابه ما أثبتنا .

(٤) فى كلا الأصلين : « متبذلا » ؛ وهو تحريف .

(٥) فى ا « مقضاة » ؛ وهو تحريف .

(٦) فى ب « سادرة » .

اللفظ ، وتقفية الحروف ، وتكون البساطة فيه أغلب من التركيب ، ويكون المقصود ملحوظاً فى عرض السَّنَن[١] ، والمَرْمَى يُتَلَقَّى بالوهم لِحُسْن الترتيب .

وأما بلاغة البديهة فأن يكون انْحِياش[٢] اللفظ للفظ فى وزن انْحِياش[٢] المعنى للمعنى ، وهناك يقع التعجُّب للسامع ، لأنه يهجُم بفهمه على ما لا يُظنّ أنه يَظفر به كمن يعثر بمأموله ، على غَفلةٍ[٣] من تأميله ، والبديهة قدرة رُوحانيّة ، فى جِبِلّةٍ بشريَّة ، كما أنّ الرَّوِيَّة صورة بَشريَّة ، فى جِبِلّةٍ[٤] رُوحانيّة .

وأما بلاغة التأويل فهى [التى] تُحْوِج لغموضها إلى التدبُّر والتصفّح ، وهذان يفيدان من المسموع وجوهاً مختلفة كثيرةً نافعةً ، وبهذه البلاغة يُتسَع فى أسرار [معانى] الدِّين والدُّنيا ، وهى [التى] تأوّلها العُلماء بالاستنباط من كلام الله عزّ وجلّ وكلام رسوله — صلّى الله عليه وسلّم — فى الحرام والحلال ، والحَظْر والإباحة ، والأمر والنهى ، وغير ذلك مما يكثُر ؛ وبها تفاضلوا ، وعليها تجادلوا[٥] ، وفيها تنافسوا ، ومنها استملوا ، وبها اشتغلوا ؛ ولقد فقدت هذه البلاغة لفقد الرُّوح كله ، وبَطَل الاستنباط أوّله وآخره ، وجولان النفس واعتصار الفكر إنما يكونان بهذا النمط فى أعماق هذا الفنّ ؛

(١) وردت هذه الكلمة فى ا مهملة الحروف من النقط ، وفى ب « السبب » ؛ وهو غير واضح المعنى ، ولعل صوابه ما أثبتنا . والسنن : الطريق .

(٢) فى ب : « اختلاس » ، ولم نتبين معناه ؛ ولعله محرف عما أثبتنا .

(٣) فى ا ، ب « عقله » ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق ، وفى (ا) أيضاً قبل هذه الكلمة قوله : « كمن يعبر بعقوله » ، وهو تحريف كذلك .

(٤) فى كلتا النسختين « فى حلية » ، وهو تصحيف .

(٥) فى ب « يحاولوا » ؛ وهو تحريف .

وها هنا تَنْثَالُ[١] الفوائد ، وتَكْثُرُ العَجائب ، وتَتَلاقَحُ الخواطر ، وتَتَلاحَقُ الهِمَم ، ومِنْ أَجْلِها يُسْتعانُ بقُوَى[٢] البلاغاتِ المتقدِّمة بالصِّفات المُمَثِّلة[٣] ، حتى تكون مُعِينةً ورافِدَةً فى إثارة المعنى المدفون ، وإنارةِ المُرادِ المَخْزون .

وأمثلةُ[٤] هذه الأبواب موجودةٌ فى الكُتُب ، ولولا ذٰلك لرَسَمْتُ فى هٰذا المكان لكل فنّ مثالاً وَشَكَّلْتُ شَكلا ، ولو فعلتُ ذٰلك لكنتُ مُكرِّراً لما قد سُبِقَ إليه ، ومتكلِّفاً ما قد لُقِّنَ من قَبل . على أنّ الزُّهد فى هٰذا الشّأن قد وَضَعَ[٥] عنّا وعن غيرِنا مَؤُونَةَ الخَوْض فيه ، والتعنِّى به ، والتوفُّر عليه ، ونقديمهِ على ما هو أَهَمُّ[٦] منه ، أَعْنِى طابَ القوت الّذى ليس إليه سبيل إلا ببَيْع الدِّين ، وإخلاقِ المروءة ، وإراقَةِ ماءِ الوجه ، وكدِّ البدن ، [وتَجرُّعِ الأسى ، ومُقاساةِ الحُرْقة ، ومَضِّ الحِرْمان] ، والصَّبرِ على ألوانٍ وألوان ؛ واللهُ المُستَعان .

وقد كان هٰذا البابُ يُتنافس فيه أَوَانَ كان للخلافةِ بَهْجَة ، وللنِّيابة عنها بَهاء ، وللدِّيانة مُعتقِد[٧] ، وللمُرُوءةِ عاشق . وللخيرِ مُنتهِز ، وللصِّدْقِ مُؤْثِر ، وللأدب شُراة[٨] ، وللبيان سُوق ، وللصَّواب طالب ، وفى العلمِ راغب ؛ فأما

---

(١) فى ا « تتقابل » ؛ وهو تحريف .
(٢) فى ب « توق » ؛ وهو تحريف .
(٣) فى ا المشتملة ؛ وهو تحريف .
(٤) يظهر أن هذا وما بعده من كلام المؤلف لا من تتمة كلام أبى سليمان .
(٥) فى ا « رصع » ؛ وهو تحريف .
(٦) فى ا « أعم » ؛ وهو تحريف .
(٧) فى ب « معقد » ؛ وهو تحريف .
(٨) فى كلتا النسختين « شارة » ؛ وهو تحريف .

[اليومَ] واليدُ عنه[(١)] مقبوضة ، والذَّيْلُ دُونَه مشمرٌ ، والمُتَحَلِّى بجمالِه مَطْرُود ، والمُباهى بشرَفه مُبْعَد ، فما يُصْنَع به ، ولله أمرٌ هو بالغُه .

(٩) وقال ابنُ دَأْب : قال لى [ابن] موسى : اجتمعنا عند عبد المَلِك بن مَرْوَانَ فقال : أىُّ الآدابِ أغْلَبُ على الناس ؟ فقلنا فأكْثَرْنا فى كل نوع : فقال عبد الملك : ما الناس إلى شىء أَحْوَجُ منهم إلى إقامةِ ألسنَتِهم التى بها يتعاوَرون القول ، ويَتعاطَوْن البيان ، ويَتهادَوْن الحِكَمَ ، ويَسْتَخْرِجون غَوامضَ العِلمِ من مخابِئها[(٢)] : ويَجْمَعون ما تَفرّق منها ؛ إن الكلامَ فارِقٌ للحُكْم بين الخُصُوم ، وضِياءٌ يَجْلو ظُلَمَ الأغاليط ، وحاجةُ الناسِ إليه كحاجَتِهم إلى موادّ[(٣)] الأغذية .

وقد قال زهير :

لسانُ الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤادُه ... فلَمْ يَبْقَ إلا صورةُ اللّحْمِ والدَّم

فقلنا : لم يَقُلْهُ زُهَير ، إنما قاله زيادٌ الأعجم ؛ فقال : لا ، والله من هو أعظمُ تجربةً وأنطقُ لساناً منه[(٤)] .

وقال أبو العَيْناء : سمعتُ العبّاس بن الحسَن العَلَوىّ يصفُ كلامَ رجُل [فقال] : كَلامُه سَمْحٌ[(٥)] سهلٌ ، كأنّ بينه وبينَ القلوبِ نَسَب ، و بينه وبَيْن الحياةِ

(١) عنه ، أى عن هذا الباب السابق ذكره ، وهو التأويل .
(٢) فى ا « مجانيها » ؛ وهو تحريف .
(٣) فى ا « موارد » ؛ وهو تحريف .
(٤) فى ا « قوله » ؛ وهو تحريف .
(٥) فى ب « شيخ » ؛ وهو تحريف .

سبب ؛ كأنَّما هو تُحْفة[١] قادم ، ودواء مريض ، وواسطةُ قلادة .

ورأيتُ أبا إسحاقَ الصابي وهو يعْجَب من فَضْـلٍ قرأهُ من كتاب وَرَد عليه ، وهو : أشْعِر قلبَكَ يَأسَ مُجَاوِزِ[٢] السَّبيل ، مقصِّرٍ عن الشَّوْط .

وقال ابنُ ذَكْوان : سمعتُ إبراهيمَ بن العبَّاس[٣] الصُّوليّ يقول : ماسمعتُ كلاماً مُحْدَثاً أجزَلَ فى رِقّة ، ولا أصْعَبَ فى سُهولة ، ولا أبلغَ فى إيجاز ، من قَوْلِ العبَّاس بنِ الأحْنَف :

تَعالَىْ نُجَدِّدْ دَارِسَ العهْدِ بيننا ... كِلانَا على طُولِ الجفَاءِ مَلومُ

أُنَاسِيَةٌ ما كان بَيْنِى وبينها ... وقاطعةٌ حَبْلَ الصَّـفاءِ ظَلومُ

وفى الجملة ، أحسنُ الـكلام ما رَقَّ لَفْظُه ، ولَطُف معناهُ ، وتلألأَ رَوْنَقُه ، وقامت صُورَتهُ بين نظمٍ كأنَّه نثر ، ونثرٍ كأنّه نظم ، يُطمِـعُ مشهودُه بالسَّمع ، ويَمْتَنِـعُ مقصودُه على الطَّبْع ؛ حتّى إذا رامَه مُرِيغٌ[٤] حَلَّق ، وإذا حَلَّق[٥] أسفَّ ، أعنى يَبْعُد على المُحاوِل بعُنْف ، ويَقْرُب من المُتناوِلِ بلُطف .

وما رأيتُ أحـداً تَناهَى فى وَصْفِ النّثر بجميع ما فيـه وعليه غيرَ قُدامةَ ابنِ جَعْفر فى المنزلة الثالثةِ من كتابه ؛ قال لنا علىّ بنُ عيسى الوزير : عرضَ علىّ قُدَامةُ كتابه سنة عشرين وثلثمائة ؛ واختَبَرتُه[٦] فوجدتُه قد بالغَ وأحْسَن ، وتفرَّدَ فى وَصفِ فُنُون البلاغة فى المنزلة الثالثة بمـا لم يشركه فيه أحد من

(١) فى ا « حقه » .
(٢) فى ب « مجاوزاً للشك مقصراً عن القنوط » ؛ وهو تحريف .
(٣) فى ب « ابن ذكوان » ؛ وهو خطأ من الناسخ .
(٤) فى ا « مرتفع » ؛ وهو تصحيف . والمريغ : الطالب .
(٥) إذا حلق ، أى المريغ .
(٦) وردت هذه الكلمة فى كلتا النسختين مهملة الحروف من النقط .

طريق اللَّفظ والمعنى ، ممَّا يدلّ على المختار المُجْتَبى والمَعِيب المجتنَب . ولقد شاَكَه[(١)] فيه الخليلَ بنَ أحمد فى وَضْع العَروض ؛ ولـكنّى وجدتُه هجينَ اللَّفظ ، رَكيكَ البلاغةِ فى وَصْفِ البلاغة ، حتَّى كأنّ ما يَصِفُه ليس ما يعرفه ، وكأنّ ما يَدُلُّ به غيرَ ما يَدُلُّ عليه . والعرب تقول : [فُلان] يدُلُّ ولا يُدَلُّ ، حكاه ابن الأعرابى ، وهذا لا يكون إلا من غَزارةِ العِلم ، وحُسْنِ التصوُّر ، وتوَارُدِ المعنى ، ونَقْدِ الطَّبْع ، وتصرُّف[(٢)] القريحة . قال : ولولا أنّ الأمر على ما ذكرتُ لكان ذلك الطريقُ الّذى سَلَكه ، والفنُّ الّذى مَلَكه ، والـكنزُ الذى هَجَمَ عليه ، والنَّمَطُ الذى ظَفِرَ به ؛ قد[(٣)] بَرَز فى أحسنِ مَعرِض ، وتَحَلّى بألطافِ كلام ، وماسَ فى أطول ذَيْل ، وَسَفَر عن أحسَنِ وَجْه ، وَطَلَع من أقرب نَفَق ، وحلَّق فى أبْعَدِ أُفق .

وابنُ المَراغِىّ يقول كثيراً — وهو شيْخٌ من جِلّة العلماء ، وله سَهْمٌ وافٍ فى زُمرة البُلغاء — : ما أحسنَ مَعونةَ الـكلماتِ القِصار ، المُشْتمِلة على الحِـكَم الـكِبار ، لمن كانت بلاغتُه فى صناعته بالقلم واللِّسان ، فإنّها تُوَاتِيه عند الحاجة ، وتَسْتَصْحِب أخواتِها على سهولة ؛ وهكذا مَصاريعُ أبيات الشِّعر ؛ فإنّها تختلِط بالنّثر مُتقطِّعةً ومَوْزُونة ، ومنتثِرَةً ومَنْصودة .

قال[لى] ابنُ عُبيْدٍ الكاتب : بلغنى [هذا الوصف] عن هذا الشيخ ؛ فَبلوته بالتّتبُّع فوجدتُه على ما قال ؛ وما أشبه ما ذكره إلا بالصُّرَّةِ[(٤)] المُعدَّة

(١) فى (ا) « سأله » ؛ وهو تحريف .
(٢) فى كلا الأصلين « وتصور » ؛ وهو تحريف .
(٣) فى كلتا النسختين : « وقد برز » والواو زيادة من الناسخ كما هو ظاهر .
(٤) الصرة : كيس الدراهم والدنانير ؛ والذى فى كلا الأصلين « الجرة » ؛ وهو تحريف لا يستقيم به الكلام .

عند الإنسان ، لما يحتاجُ إليه فى الوقت المهمّ والأمرِ المُلِمّ ؛ فهذا هذا .

فقال — أدام الله دولتَه ، وكبت أعداءه — : قَدِّم هذا الباب [فقد أتى][1] على ما لم أظُنّ أنه يُؤْتَى عليه ويُهْتدى إليه — إذا شئتَ ؛ وانصرَفْتُ .

الليلة السادسة والعشرون

ثم قال : وما أَمْثلةُ الكلماتِ القِصارِ الّتى أَوْمَأَ إليها ذلك الشّيخ ؟ (١)

فكان [من] الجواب : إنّ هذا الباب واسع ، نحو قول القائل : ما خابَ من استخار ، ولا نَدِم من استشار . كلُّ عزيزٍ دَخَلَ تحتَ القُدْرة فهو ذَليل . غَنِمَ من أَدَّبَتْهُ الحكمة ، وأحكمتْه التجربة . التضاغن رائدُ التّباين . المرء ما عاشَ فى تجرِبب .

الدهرُ [يومٌ ويومُ] والعيشُ عَــذْلٌ ولَوْمُ

* وأَكثَرُ أسبابِ النَّجاحِ مع الياسِ *

من لم يُقَدِّمْه حَزْم أَخَّرَه عجز . كم مستدرَجٍ بالإحسان إليه ، ومُغْتَرٍّ باليُسْرِ[2] عليه . الحرْبُ[3] مَتْلفَةُ العباد[4] مُذْهِبَةٌ للطارِف والتِّلاد .

* ليس المُقِلّ عن الزّمان براضى *

من ضاق صَدْرُه اتَّسَعَ لسانه .

* وحَسْبُك داء أن تَصِــحّ وتسلما *

---

(١) هذه التكملة لم ترد فى كلا الأصلين ، وسياق الكلام يقتضى إثباتها .

(٢) فى كلتا النسختين « بالبشر » ؛ وهو تصحيف .

(٣) فى (أ) « الحزن » ؛ وهو تصحيف .

(٤) فى (أ) العيال ؛ وهو تحريف .

العيال سُوس المال . الموتُ الفادِح خَيْرٌ من الزِّىّ الفاضح . احذروا نفَادَ النِّعَم ، فما كلُّ شاردٍ مردود . خير الأمور أوساطها . يَكْفيكَ من شَرٍّ سماعُه . الكريمُ لا يلينُ على قَسْر ، ولا يُقْتَسَرُ على يُسْر . ما أدْرَكَ النَّمّامُ ثاراً ، ولا محا عاراً .

* ومن يَبْكِ حوْلاً كاملا فقد اعتَذَر *

* إنّ المَطامعَ فقْر والغِنَى الياسُ *

* والأمر تَحْقِرُهُ وقد يَنْمِى *

* [رُبَّ كبيرٍ هاجَه صغيرُ *

* ذَهَبَ القَضاء بحيلة الأقوامِ] *

* وقد يُسْتجهَل الرَّجلُ الحليمُ *

* وإذا مَضى شىء كأنْ لم يُفعَل *

من عُرِف بالحكمة لاحظته العيونُ بالهيبة . البِطْنَةُ تَذْهِب الفِطنة ، إنّ المَقدرةَ[1] تُذْهِبُ الحفيظة . من ثَقُلَ على صديقه خَفَّ على عدوِّه . زيادةُ لسان على عَقْلٍ خُدْعة ، وزيادة عقلٍ على منطق هُجْنَة .

* وحاجةُ من عاشَ لا تَنْقضِى *

مَن أطاعَ هواه ، أعطَى عدوَّه مُناه

* عند الشَّدائِدِ تذْهَب الأحقادُ *

اِحْذَرْ صَرَعات البَغْى وفَلَتات المِزاح .

---

(١) كذا فى مجمع الأمثال للميدانى ، والذى فى الأصول « البطنة تذهب » الخ ، وهو تبديل من الناسخ .

* ومن يَسأل الصُّعْلوكَ أين مَذاهِبُه *

« المرء يَعجِز لا المَحالة »

ذُلّ الطالب بقَدْرِ حاجتِه ، إذا ازدَحَم الجواب خَفِيَ الصَّواب . الكريم للكريم مُجِلّ . موتٌ فى قوّةٍ وعِزٍّ خيرٌ من حَياةٍ فى ذُلٍّ وعجْز . عَدْلُ السلطان خيرٌ مِن خِصْب الزمان . من توَقّى سَلِم ، ومن تهوَّرَ نَدِم ، من أسرَعَ إلى الناس بما يكرهون ، قالوا فيه ما لا يَعْلَمون . الضُّرُّ[1] خيرٌ من الفاقة ، عَيٌّ صامت خيرٌ من عَيٍّ ناطق . رُبّما سَوَّدَ المالُ غيرَ السَّيِّد ، وقَوَّى غيرَ الأيِّد . وهل يَدْفع رَيْبَ المنيّةِ الحِيَل .

* الموت حَتْمٌ فى رِقاب العباد *

كفى بالإقرار بالذّنب عُذْراً ، وبرجاءِ العَفْوِ شافِعاً . قليلٌ يُوعَى ، خيرٌ من كثير يُنْسَى ، ليس على طول الحِدَم[2] نَدَم ، ومنْ وَراء المرءِ ما لم يَعْلم . مروءتان ظاهرتان : الرآسةُ[3] والفصاحة . من أطالَ الأمَل أساءَ العمل . لا تَكَلَّفْ ما كُفِيت ، ولا تُضَيِّع ما وَلِيت . احتَمِلْ من أدلَّ عليك ، واقبَلْ ممَّن اعْتذَرَ إليك .

* إنّ الشّجاعةَ مَقْرونٌ بها العَطَبُ *

* إنّ الكِرامَ على ما نابَهُمْ صُبُرُ *

لو سَكَتَ من لا يَعلمُ سَقَطَ الاختلاف . لا عُذْرَ فى غَدْر . ليس من العدل

---

(١) فى كلتا النسختين « الصبر » ؛ وهو تحريف .

(٢) فى (ا) « الحياة » ؛ وهو تحريف .

(٣) فى (ا) « الرياش » .

سُرْعةُ العَذْل . أقبحُ عملِ المقتدِرين الانتقام . شَرٌّ من الموت ، ما يُتمنَّى له الموت . من جاعَ جَشِع . المَكِيدة فى الحرْب أبلغُ من النَّجْدة . لكَ مِن دُنْياك ، ما أصْلَحَ مَثْواك . من أحبَّ أن يطاع ، لايسألُ ما لا يُسْتطاع ، إذا غلبتْك نفسُك بما تظنّ ، فاغلبْها بما تستَيْقِن . الرَّدُّ الجميل أحْسَنُ من المَطْلِ الطويل . القبر خيرٌ من الفقْر . شَفِيعُ المُذْنب إقراره ، وتوبته اعْتِذارُه . صُحْبة الأشرار ، تورث سوء الظَّنّ بالأخْيار ، لا كثيرَ مع تبذير ، ولا قليل مع تقدير . من صانَ لسانه نجا من الشرِّ كلِّه .

* ولربما نفع الفتى كَذِبُه *

* ومَنْ يَعْدِلْ إذا ظَلَمَ الأميرُ *

* إذا فَزِعَ الفؤادُ فلا رُقادُ *

* ما العلمُ إلاّ ما وَعاه الصَّدْرُ *

* إنّ الكريمَ على الإخوانِ ذُوالمال *

* إنّ الفِرار لا يزيد فى الأجل *

* إنّ الشَّفيق بسوءِ ظَنٍّ مُولَعُ *

لا تَبُلْ على أكمة ، ولا تُفْشِ سِرّكَ إلى أمَة . إذا أقبلتِ الدُّنيا على المرءِ أعارَتْه محاسنَ غيرِه ، وإذا أدبرتْ عنه سلبَتْه محاسِنَ نفسِه . فى التّجارِب عِلمٌ مستأنَفٌ . قد خاطرَ من استغْنَى برأْيه . عليك لأخيك مِثْلُ الّذى عليه لك . الحقد ظِلٌّ ظَلِيل . المودّة قرَابَةٌ مُسْتفادة . مُعْدِمٌ وَصُول خيرٌ مِنْ مُكثِرٍ جافٍ . مِنَ الفَراغ تكون الصَّبْوة . من نال استطال . فى تقلّب الأحوال عِلمُ جواهِرِ الرجال . الشكرُ عِصمةٌ من النِّقمة . اللُّبُّ مِصْباحُ العِلم . من ركِبَ العَجَلة ، لم يأمن الكَبْوَة . إزالةُ الرَّواسى ، أيسَرُ من تأليف القلوب . قارِب الناسَ فى عقولهم ،

تَسْلم من غوائلهم ، وترتَعْ فى حدائقهم . عاشِرْ أخاكَ بالحُسْنَى . الحَسَد أَهْلَكَ الجَسَد . خذ على خَلائقك ميثاقَ الصَّبْر . خيرُ ما رُمت ما يُنال .

* كلُّ أمرئ فى شأنه ساعى *

[قد يُدرِك المتأنِّى بعضَ حاجته وقد يكون مع المستعجِل الزَّللُ]

غمُّ الفَقير لا يَـكْشِفُه إلاّ الموت . خِفّة الظَّهْر أَحَدُ اليَسارَيْن . أُصُولُ الأسـقام من فُضُول الطعام . طلاقُ الدنيا مَهْرُ الجَنَّة . من عِزِّ النفسِ إيثارُ القناعة . التواضُعُ بالغَنِىّ أَجْمَل ، والـكِبْرُ بالفقير أسمَج . من أستعان بغير الله لم يزَلْ مَخْذولا . من لم يَقبَـلْ من الدَّهر ما آتاه طال عَتْبُه على الدهر . عُجْبُ المَرْء بنفسه أَحَدُ حُسّادِ عَقْله . العجزُ والتَّوانى يُنْتِجان الفاقة . إن صبرتَ صَبْرَ الأحرار ، و إلاّ سلوت سُلُوَّ الأغمار . العِلْمُ بالعمل يَنْمو . معاشَرةُ الإخوان تَجْلو البَصَر ، وتطرُدُ الفِكَر . لا تُوحِشْك الغُرْبة ما أُنِسْت بالـكفاية ، فإنّ الفقرَ أَوْحَشُ من الغُرْبة . الغِنَى أُنسٌ فى [غير] (١) الوَطَن . الغَنِىُّ فى الغُرْبة مَوْصول ، والفَقير فى الأهْل مَصْرُوم . أَوْحِشْ قَرِينَك إذا كان فى إيحاشِـه أُنْسُك . إذا أَيسرتَ فكلُّ أهلٍ أهلُك ، و إنْ أعسَرْت فأنتَ غريبٌ فى قَوْمِك . مِن أخْلاق الصِّبيان ، إلْفُ الأوطان ، والحنينُ إلى الإخوان . من لم يَأنف ، لم يَشْرُف . خَيْرُ المَودّة ما لم تكن حِذارَ عادِية ، ولا رجاءَ فائدة . من حَمَل الأمور على القضاء استراح فى الإقبال والإدبار حتّى يَنْتَهيا . لو أُستحسَن الناسُ ما أَمر به العَقل استَقْبَحوا ما نَهى عنه العقل . أَقْدَر الناسِ على الجواب

(١) لم ترد هذه الـكلمة فى كلتا النسختين ؛ والسياق يقتضيها ، ويقوى ذلك الـكلمتان السابقة واللاحقة .

من لا يَغضب . الكلامُ فى وَقْت السكوت عِىّ ، والسكوتُ فى وقت الكلام خَرَس . الهمُّ يَهدِم البَدَن ، وينغص العَيْش ، ويقرِّبُ الأجَل . الموتُ رقيبٌ غيرُ غافل . المرء نَهْبُ الحوادث . إذا تَمَّ العَقْلُ نَقَصَ الكلام . هَبْ ما أنكَرْت، لما عرَفْت ، واُغفر ما أغضَبَك لما أرْضاك . اليَأسُ إحدى الرّاحتَيْن . المَطْل أحدُ العَذابيْن. الكَظْم مُرّ ، ولا يتجرَّعه إلاّ حُرّ . الرأى لا يَصْلُح إلا بالشَّرِكة ، والمُلْكُ لا يَصْلُح إلاّ بالتفرُّد . من كبُرَ عنصرُه ، حَسُنَ مَحضَرُه .

* ولَرُبَّ مُطْمِعَةٍ[1] تَعُودُ رِياحا *

* والحمدُ لا يُشتَرَى إلا بأثمان *

* ولكنّ نَكْءَ القَرْح بالقَرْحِ أوْجَع *

من أزْهَر بقَوْل ، حَقيقٌ أن يُثْمر بفِعْل . السَّلامُ أرْخَى للبال ، وأبقى لنفوس الرِّجال . حَسْبُك مِنْ عَقْلك ما أوضَحَ غَيَّكَ مِن رُشدك . التسويفُ بطاعة الله اُغترار ، وحياةُ المرءِ كالشىء المُعار[2] . من بَذَل بعضَ عنايته لك ، فاجعَلْ جميعَ شُكْرِك له .

* ولِلحُرِّ من مالِ الكريمِ نصيبُ *

اليومَ فِعْل ، وغدًا ثَواب .

الخيرُ مختارٌ شهىُّ المُطَّلَبْ والشرُّ محذور كَرِيهٌ مُجتنَبْ

رُبَّ سكوتٍ من كلامٍ أبلغْ ورُبَّ قول من عَمُودٍ[3] أدْمغْ

مَن سَلِمَ الناسُ على[4] لسانه أصبَح منصورًا عَلَى سلطانه

(١) فى (أ) « مطعمة » ؛ وهو تحريف .
(٢) فى كلتا النسختين « المعتاد » ؛ وهو تحريف .
(٣) يريد بالعمود : الذى يضرب به فى الحرب . (٤) على هنا بمعنى من .

من القليـل يُجْمَع الـكثيرُ   رُبَّ صـــــغير قَدْرُه كبيرُ

من باع ما يَفْنَى بمـا يبقى غَنِم   وآثَر الدنيا على الأخرى نَدم

قد يُحرَم الراجي ويُعطى القَانط   ويُبعَدُ الأدْنَى ويُدْنَى الشاحِطُ

من لَم يُنلكَ البِرَّ(١) فى حياته   لَمْ تَبـك عَيْناكَ عَلَى وَفاته

المـالُ ما تُنْفِق لا ما تَجْمَعُه   والزرعُ ما تحصُد لا ما تَزرَعُه

يا رُبَّ هَزْلٍ كان منـه الجِدُّ   ورُبَّ مَزْحٍ كان منه الحِقْدَ

البَحرُ مُستغنٍ عن الفُرات

فقال — أدام الله أيّامه — هذا فنٌّ مُوفٍ على الغاية .

الليلة السابعة والعشرون

(١) وقال — أدام اللهَ أيّامه — فى ليلة أخرى : كنت أحبُّ أن أَسمعَ كلاما فى كُنْه الأتّفاق(٢) وحقيقته ، وإنّه مما يَحارُ العَقْل فيه ، ويَزِلُّ حَزْمُ الحازِم معه ، وأحبُّ أيضاً أن أَسمع حديثاً غريباً فيه ؛ فكان من الجواب : إن الرواية فى هذا الباب أكثرُ وأفشى من الأطلاع على سرِّه ، والظفر بمكنونه ؛ فقال : هات ما يتعلّق بالرواية . قلت : حكى لنا أبو سليمانَ فى هـذه الأيام أنّ ثيُودُسْيُوس(٣) مَلكَ يونان كتَبَ إلى كُنْتُس(٤) الشاعر أن يَزوِّده(٥) بمـا عنده من [كتب]

(١) فى (ا) « من لم يبكيك لـكثر » ؛ وهو تحريف .

(٢) يريد بالاتفاق الأمور التى تحدث بالمصادفة .

(٣) فى (ا) « قومودوس » ، وفى ب « تودورس » ؛ والصواب ما أثبتناه نقلا عن كتب التاريخ .   (٤) فى كلتا النسختين « إينقس » ؛ وهو تحريف .

فلسفيّة ؛ فجمع ماله فى عَيْبَةٍ ضَخْمَة ، وارتحل قاصداً نحوَه ، فلقى فى تلك البادية قومًا من قطّاع الطريق ، فطمعوا فى ماله وهمّوا بقتْله ، فناشدهم اللهَ ألاّ يقتلوه وأن يأخذوا مالَه ويُخلّوه ، فأبَوْا ، فتحيَّر ونظَر يميناً وشمالاً يلتمس مُعيناً وناصرًا فلم يَجِد ، فرَفَع رأسه إلى السماء ، ومدَّ طَرفَه فى الهواء ، فرأى كَرَاكِىَّ تطير فى الجوّ مُحلّقة ، فصاح : أيتُها الكراكىُّ الطائرة ، قد أعْجَزَنى المعينُ والناصر ، فكونى الطالبةَ بدَمى ، والآخذةَ بثأرى . فضحك اللُّصوص ، وقال بعضهم لبعض : هذا أنقص الناس عَقْلا ، ومن لا عَقلَ له لا جُناح فى قَتْلِه ؛ ثمّ قتلوه وأخَذوا مالَه واقتَسَموه وعادوا إلى أماكنهم ؛ فلمّا اتّصل الحديثُ بأهْل مدينته حَزِنوا وأعظَموا ذلك ، وتَبِعوا أثَر قاتله واجتَهدوا فلم يُغنُوا شيئاً ولم يقفوا عَلَى شىء ؛ وحَضر اليونانيون وأهلُ مدينته إلى هيكلهم لقراءة التسابيح والمُذاكَرة بالحكمة والعِظَة ، وحَضر الناسُ من كلّ قُطْر وأَوْب ، وجاء القَتَلة واختلطوا بالجمع ، وجلسوا عند بعض أساطين[1] الهيكل ، فهم على ذلك إذ مرَّت بهم كَراكىُّ تتداعى وتصيح ، ورفع اللصوصُ أعيُنَهم ووجوهَهم إلى الهواء ينظرون ما فيه فإذا كَراكىّ تصيح وتطير ، وتسدّ الجوّ ؛ فتضاحكوا ، وقال بعضهم لبعض : هؤلاء طالِبو دَمِ كُنْتُس الجاهل — على طريق الاستهزاء — فسمعَ كلامهم بعضُ من كان قريباً منهم فأخبرَ السلطانَ فأخذهم وشدَّد عليهم ، وطالبهم فأقرّوا بقتْله ، فقتلهم ؛ فكانت الكَراكىُّ المطالِبةَ بدَمِه ، لو كانوا يَعْقِلون أنّ الطالبَ لهم بالمرصاد .

وقال لنا أبو سليمان : إن كُنْتُس وإن كان خاطَبَ الكَراكىّ فإنه أشارَ به إلى ربِّ الكَراكىّ وخالِقها ، ولم يُطِلّ اللهُ دَمَه ولا سَدَّ عنه بابَ إجابتِه ؛

(١) فى كلتا النسختين « أساطير » ؛ وهو تحريف .

فسبحانَه كيف يهيّئُ الأسباب ، ويَفتح الأبواب ، ويَرْفعُ الحجابَ بعد الحجاب .

فقال : هذا عجَب :

قلتُ : قال لنا أبو سليمان : كلّ ما جُهِل سببُه من ناحية الحسّ بالعادة ، ومن ناحية الطبيعةِ بالإمكان ، ومن ناحيــة النفس بالتهيئة ، ومن ناحية العقْل بالتَّجويز ، ومن ناحية الإله بالتَّوفيق — فهوَ مَعْجوبٌ منه ، معجوزٌ عنه ، مسلَّمٌ لمن له القُدْرة المُحيطة ، والمشيئة النافِذَة ، والحــكمةُ البالِغة ، والإحسانُ السابق .

(٢) ولقد حكى أبو الحسن الفَرَضيُّ فى أَمر الأُنفاق شيئاً ظريفاً عن بعض إخوانه قال : خرجنا إلى بعض المُتنزَّهات ومعنا جَرٌّ[١] نَصيدُ به السُّمانَى ، وكنَّا جماعة ، فقال حَدَثٌ كان معنا — وكان أصغرَنا سِنًّا — : أنتم تصيدون بجَرٍّ[١] ، وأنا أَصيدُ بيَدى ؛ يقول ذلك على جِهَة المَزْح ؛ ورَمى بعد قليل فاتَّفق له أن أثارَ سُمانَى ، فأسرَع إليه ونحن لا نَعلَم أنَّه أخَذَ شيئاً ، فقلنا له على طريق العَبَث : اِحذَر الخنْزير — من غير أَنْ نكون رأَيْنا خِنزيرا — فالتفت فَزِعاً وفَرَّ[٢] مُوَلِّيا ، فاتّفق له أن رأى خِنْزِيرًا منه غيرَ بعيد ، فأَقبل إلينا مُسرِعًا هارباً من الخنْزير والسُّمانى بيَده وقد صاده .

وكنت فى البادية فى صَفَر سنة أربع وخمسين منصرفاً من الحج ومعى[٣] جماعةٌ من الصُّوفية ، فلَحِقَنا جُهْدٌ من عوَز القُوت وتعَــذُّر ما يُمْسِك الرُّوحَ فى

(١) الجرّ : الحبل . وفى نسخة : « مجر » ، وهو الحبل الذى يجرّ به أيضا .

(٢) وردت هذه العبارة فى كلا الأصلين مهملة أكثر حروفها من النقط ، وما أثبتناه هو أقرب الوجوه إلى ما فى الأصول من الرسم وما يقتضيه السياق من الكلام .

(٣) فى الأصل : « وبقى » ؛ وهو تحريف .

حديث طويل — إلا أنّا وَصلْنا مِنْ زُبالة(١) — بالحيلة اللّطيفة منّا ، والصُّنْع الجميل من اُللّه تعالى — إلى شىء من الدقيق ؛ فانتعشتْ أنفُسُنا به ، وغَنِمْناه ، ورأيناه نفحةً من نَفَحات الله تعالى الكريم ؛ فجعلناه زادنا ، وسِرْنا ؛ فلما بلغْنا المنْزل قعدنا لنُمارِس ذلك الدقيق ، ولقَطْنا البَعَرَ ودُقاقَ الحَطَب ، فلما أَجْمَعْنا على العَجْن والمَلْكِ(٢) لم نجد الحُراق(٣) — وكان عندنا أنّه معنا ، وأنّا قد اُستظهرناه(٤) — فدخلَتْنا حَيْرة شديدة ، وركِبَنا غَمٌّ عالب ، وسفَفْنا من ذلك الدقيق شيئا ، فما ساغ ولا قَبِلَتْه الطبيعة ، وبِتْنا لَيْلتَنا طاوِين ساهِرِين ، قد علانا الكَمَد ، وملَكَنا الوُجومُ والأسف ؛ فقال بعضُنا : هذا لمّا وَجَدْنا الدقيق ؟ ! وأَصْبَحْنا ورُكَبُنا قد اُسترْخَتْ ، وعيونُنا قد عارت ، وأَحَدُنا لا يحدِّث صاحبَه غمّا وكَرْبا ؛ وعُدْنا إلى ما كنّا فيه قبلُ بزيادةِ حسرةٍ من النَّظر إلى الدقيق ؛ وقال صاحبٌ لنا : نَرْمى بجراب الدَّقيق [حتَّى نُلقِىَ حِمْلَه وثِقْلَه فى طولِ هذا الطريق] ؛ فقلنا : ليس هذا بصواب ، وما يضرّنا أن يكون معنا ، فلعلّنا أن نَرَى رَكْبًا أو نَلقَى حَطَبا . وكانت الباديةُ خاليةً فى ذلك الوقت ، لرُعْبٍ لَحِق قوماً من بنى كِلاب من جهة أعدائهم ، فلم يكن يجتازُ بها [فى ذلك الوقت] غريب . وبقينا كذلك إلى اليوم الثّالث ، ونحنُ نُلاحِقُ(٥) ونُجاهد فى المَشْى ؛ فلمّا كان العَصْرُ مِنْ ذلك اليوم كنتُ أَسيرُ أمامَ القوم أُجَرِّئهم(٦) وأسألهم ،

(١) زبالة : بلد بالطريق من الكوفة إلى مكة .
(٢) الملك : إنعام العجن .
(٣) الحراق : ما تقع فيه النار عند اقتداحها من حرق ونحوها .
(٤) قد استظهرناه ، أى حملناه معنا فوق أظهرنا .
(٥) فى كلتا النسختين « نراجف » ؛ وهو تصحيف لا معنى له .
(٦) فى كلتا النسختين « أجرّهم » ؛ وهو تحريف .

وكنتُ كالحاطب[١] لهم : « إذا عثَرْنا بحُراقٍ[٢] وظفِرنا بفَتيلة » ؛ فوَجدوا خرقةً مَلفُوفة فيها حُراق ، فهلّلوا وكبَّرُوا ، ورَفعوا أَصْواتهم ؛ فقلت كالمتعجِّب : ما ٱلخبَر ؟ قالوا : البُشْرَى ؛ قلت : وما ذاك ؟ قالوا : هذه خِرقة مُلئَتْ حُرَاقا ، فلا تَسَلْ عمَّا دَهَانا من الفَرح والاستِبْشار ؛ وثابَ إلينا من السُّرُور والارتياح ، وزال عنَّا مِنَ الأنخزال والانكسار ، وقعَدْنا فى مكانِنا ذٰلك ، ولَقَطْنا البعَر ، وأَثَرْنَا الوَقود ، وأَجَّجْنا ناراً عظيمة ، ومَلَكْنا[٣] الدَّقيق كلَّه مَلْكَةً واحدةً وكان أربَعين رِطْلا ، وكان ذلك بلاغَنا إلى القادسيّة ؛ فلما دَنَوْنَا منها تلقّانا بَشر من أَهْلِها ، وقالوا لنا : كيف سَلِمتُم فى هٰذه الطريق مع العَوَز والخوف ؟ فقلنا : لُطْفُ الله يُقرِّب كلَّ بعيد ، ويسهِّل كلَّ شديد ، ويَصْنَع للضعيف حتَّى يتعجَّبَ القوىّ .

وليس أحدٌ مِنْ خَلْق الله يَجحَد هذا القول ، ويُنكِر هذا الفَضل ، ويَرجِعُ إلى دِينٍ وَثيقٍ أو واهٍ (إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ) .

وحدَّثنى أبو الحسن علىُّ بنُ هارُون الزَّنْجَانىُّ القاضى صاحبُ المذهب قال : اصطحب رَجُلان فى بعض الطُّرُق مسافرَين : مَجُوسىٌّ من أَهْلِ الرَّىّ ، والآخَر يَهودِىٌّ من أرض جَىّ[٤] ؛ وكان المَجُوسىُّ راكباً بَغلة له عليها سُفْرَة[٥] من الزّاد والنفقة وغيرِ ذلك ، وهو يسير مرفَّها وادِعا ، واليهودىّ يمشى بلا زادٍ ولا نفقة ؛ فبينا هما يتحادثان إذ قال المجوسىُّ لليهودىّ : ما مذهبُك وعقيدتُك

(١) فى (ب) « كالحاجب » .
(٢) فى كلتا النسختين « نحن » ؛ وفيه تحريف ونقص ؛ وسياق الكلام يقتضى ما أثبتنا .
(٣) فى الأصل : « ومللنا ... ... ملة » ؛ وهو تحريف .
(٤) فى كلتا النسختين « حى » بالمهملة ، وهو تصحيف . وجى : مدينة بناحية أصبهان تسمى الآن شهرستان ، وكان لليهود محلة فى طرفها ، فلما خربت حى بقيت محلتهم ، وهى اليهودية .
(٥) فى كلتا النسختين : « فى سفره » ؛ وهو تحريف .

يا فلان ؟ قال اليهودىّ : أعتقِدُ أنَّ فى هذه السماء إلهًا هو إلهُ بنى إسرائيل ، وأنا أعبُدُه وأُقدِّسه وأَضْرَع إليه ، وأطلبُ فَضْلَ ما عنده من الرزق الواسع والعمرِ الطويل ، مع صِحَّة البدَن ، والسَّلامةِ من كلِّ آفة ، والنُّصْرَة على عَدُوِّى ، وأسأله الخيرَ لنَفْسى ولمن يُوَافِقُنى فى دِينى ومَذْهَبى ، فلا أَعْبَأُ بمن يُخَالِفُنى ، بل أَعتقِد أنَّ من يُخالفُنى دَمُه لى يَحِلُّ ، وحَرَامٌ علىَّ نُصْرَتُه ونَصِيحته والرحمةُ به . ثم قال للمجوسىّ : قد أخبرتُكَ بمذْهَبى وعقيدتى وما اُشتَمل عليه ضَمِيرى ، فخبِّرْنى أنتَ أيضاً عن شأنِكَ وعَقِيدتِكَ وما تَدِين به رَبَّك ؟ فقال المجوسىّ : أمَّا عقيدتى ورأيى فهو أنى أُريد الخيرَ لنَفْسى وأبناءِ جِنْسى ، ولا أُريد لأحَدٍ من عِباد الله سُوءًا ، ولا أتمنَّى له ضُرًّا ، لا لمُوافِقى ، ولا لمخالِفى . فقال اليهودىّ : وإن ظَلَمك وتعَدَّى عليك ؟ قال : نعم ، لأنى أعلمُ أنَّ فى هذه السماء إلـهًا حبيرًا عالما حكيما لا تَخْفَى عليه خافِيةٌ من شىء ، وهو يَجْزِى المُحْسِنَ بإحسانِه ، والمسىء بإساءته . فقال اليهودىّ : يا فلان ، لستُ أراكَ تَنصُر مَذهبَك وتُحقِّق رأيك . قال المجوسىّ : كيف ذاك ؟ قال : لأنى من أبناء جِنْسِك ، وبَشَرٌ مِثلُك ، وتَرانى أَمشى جائعاً نَصِباً مجهوداً ، وأنتَ راكبٌ وادعٌ مرفَّهٌ شَبْعان . فقال : صدقتَ ، وماذا تَبْغى ؟ قال : أَطعِمْنى من زادِك ، واُحملنى ساعةً ، فقد كَلَلْتُ وضَعُفْت . قال : نَعم وكَرامة . فنزل ومَدّ مِنْ سُفْرَتِه وأطعَمَه وأشْبَعَه ، ثم أَرْكَبه ، ومَشى ساعة يحدِّثه ؛ فلمَّا مَلَك اليهودىّ البَغْلة وعَلِمَ أنَّ المجوسىّ قد أَعيا ، حرَّك البغلةَ وسبَقه ، وجَعل المجوسىُّ يمشى ولا يَلْحقُه ، فناداه : يا فلان ، قِفْ لى واُنزِلْ ، فقد اُنحسرتُ واُنبهَرْت . فقال اليهودىّ : أَلمْ أُخبِّرْكَ عن مَذهَبى وخَبَّرْتنى عن مَذْهَبك ، ونَصرْتَه وحَقَّقْتَه ؟ فأنا أريد أيضاً أن أحقِّق مَذْهَبى ، وأنصر رأيى واُعتقادى . وجَعَل يحرِّك البَغلة ، والمجوسىّ يَقْفوه على ظَلَع ويُنادِى : قِفْ

يا هٰذا واحملنى ، ولا تترُكنى فى هذا الموضع فيأكلَنى السَّبُعُ وأموتَ ضَياعا ، وارْحمنى كما رَحِمْتُك . واليهودىُّ لا يُلوِى على ندائه واستغاثته ، حتّى غابَ عن بَصره ؛ فلمّا يَئِسَ المجوسىُّ منه وأشفَى على الهلَكَة ، ذَكَرَ اعتقادَه وما وَصَفَ به رَبَّه ، فرَفَع طَرْفَه إلى السماء وقال : إلٰهى قد علِمْتَ أنى اعتَقَدْتُ مذهباً ونصرتُه ، ووَصفْتُك بما أنتَ أهْله ، وقد سمعتَ وعَلِمتَ ، فحقِّق عند هذا الباغى علىَّ ما مجَّدْتُك به ، ليَعْلم حقيقةَ ما قلتُ فما مشى المجوسىُّ إلاَّ قليلا حتَّى رأى اليهودىَّ وقد رَمَتْ به البَغْلة ، واندقَّتْ عُنُقه ، وهى واقفةٌ ناحيةً منه تنتظر صاحبَها ؛ فلمّا أدْرَك المجوسىُّ بَغلَتَه ركبَها ومَضى لسبيله ، وتَرَكَ اليهودىَّ مُعالِجًا لكَرْبِ المَوْت ؛ فناداه اليهودىُّ : يا فلان ، ارحمنى واحملنى ولا تتركنى فى هٰذه البرّية أهْلِكْ جُوعاً وعَطَشا ، وانصُرْ مَذْهَبَك ، وحقِّق اعتقادَك . قال المجوسىُّ : قد فعلتُ ذلك مرَّتين ، ولكنَّك لم تَفْهَمْ ما قلتُ لك ولم تَعقِلْ ما وَصَفْتُ . فقال اليهودىّ : وكيف ذلك ؟ قال : لأنى وَصفتُ لك مَذْهَبى فلم تصدِّقنى فى قولى ، حتّى حقَّقْتُه بفِعْلى ، وذاك أنى قلت : إن فى هذه السماء إلٰهًا خبيراً عادلاً لا يَخفى عليه شىء ، وهو وَلِىُّ جزاءِ المحْسِن[1] بإحسانه ، والمسىء بإساءته . قال اليهودىّ : قد فهمتُ ما قلتَ ، وعلمتُ ما وَصَفْتَ . قال المجوسىّ : فما الذى مَنَعَك من أنْ تتَّعِظ بما سمِعْت ؟ قال اليهودىّ : اعتقادٌ نَشَأتُ عليه ، ومذهبٌ تربَّيْتُ به ، وصار مألوفاً مُعْتاداً كالجِبِلّة بطول الدَّأْبِ فيه ، واستِعمال أبنِيَتِه[2] ، اقتداء بالآباء والأجداد والمعلِّمِين من أهلِ دِينى [ومن أهل] مذهبى ، وقد صارَ ذلك كالأُسِّ الثابت ، والأصل النابت ؛

---

(١) عبارة (ا) جزاء المحسنين ويكافئ المسيئين .

(٢) ابنيته ، أى أصوله التى أبنى عليها . وفى (ا) « بنته » ؛ وهو تحريف .

ويَصْعُب[1] ما هٰذا وَصفُه أن يُترَكَ ويُرْفَض ويُزال . فرَحِمه المجوسىّ ، وحمله معه حتَّى وافَى المدينة ، وسلّمه إلى أوْليائه محطَّمًا مُوجَعاً ، وحَدَّثَ الناسَ بحديثِه وقصَّته ، فكانوا يتعجَّبون من شأنهما زماناً [طويلا] .

وقال بعضُ النّاسِ للمجوسىِّ [بعدُ] : كيف رَحِمتَه بعد خيانتِه لك ، وبعد إحسانك إليه ؟ قال المجوسىّ : اِعتذَر بحالِه التى نشأَ فيها ، ودَأَبَ عُمُرَه فى اعتقادها ، وسَمَى لها واُعتادَها ؛ وعَلمتُ أنّ هذا شديدُ الزّوال عنه ، وصدَّقْتُه ورحمته ، وهذا منى شُكْرٌ على صُنْعِ اللهِ بى حين دَعَوْتُه عند ما دهانى منه ، وبالرّحمةِ الأولَى أعانَنى ربِّى ، وبالرّحمة الثانية شَكَرْتُه على ما صَنَع بى .

هذا كلُّه سردناه اسبَبَ الأمر الذى يبدو من غير جَنان ، والعارضِ الذى يَبْرُز من غير توهُّم .

وأبو سليمان يقول : الأمور مَقْسومةٌ على الحدود الطبيعيّة والقُوَى النفسيّة والبسائط العَقْليّة والغرائب الإلٰهيّة ؛ فبالواجب ، ما كان هاهنا مألوفٌ له نسبةٌ إلى الطبيعة ، ونادِرٌ له نسبةٌ إلى النفس ، وبَديعٌ له نسبةٌ إلى العقل ، وغريبٌ له نسبةٌ إلى الإلٰه ؛ والفَلَتات فى الأحوالِ من هـذا القَبيل ، أعْنى ما يَتَخَلَّلُ هذه المَراتب .

فقال [له] البخارىّ : أيقال لما يَصْدُر عن الإلٰه فَلْتة ؟ قال : بحَسَب مَصِيرِه إلينا ، ووصوله إلى عالَمِنا ، لا بحَسَب صُدُورِه عن البارى ، فليس هناك هذا و[لا] ما يُشْبِهه ، لأنَّ هـذه السِّمات لَحِقَت المركَّبات ، من الأوائل

(١) فى (ا) ويعقب ؛ وهو تحريف .

المُزْدَوِجات[١] ، والثّواني المكرَّرات ، والثوالث المُحقّقات ، والرّوابع المتممّات ، والخوامس المدبّرات ، والسوادس المضاعَفات ، والسوابع الظّاهرات ، والثوامن المعقّبات ، والتواسع العالِيات ، والعواشر الكاملات ؛ وما بَعْدَ العواشر داخلٌ في المكرّرات .

قال له البخاريّ مستزيدا : أكان[٢] التّوفيق من الاتفاق ؟ فقال : هما يتوحّدان من وجه ، ويَفترَقان من وَجه ؛ فوَجْهُ تَوَحُّدهما أنَّ الاتّفاقَ وليدُ التوفيق ، والتّوفيقَ غايةُ الاتّفاق ؛ ووَجْهُ افتراقهما أنَّ الاتّفاق يَبْرُز إلى الحسّ ، وأصحابَه يَشْتركون في التعجُّب منه ، والاستِطرافِ له ؛ والتّوفيقَ يُسْتَرُ عن الحسّ ؛ ولهذا لا تُسلَكُ[٣] مَسالِكُه . وأما الوفاق والموافَقة والتوفيق والاتّفاق فمتلابسةُ المعاني ؛ ولمّا لم يكُنْ بين المعنى والمعنى مَسافةٌ مُحصَّلةٌ[٤] حُسِب هذا في حَيِّز هذا ، وعُدَّ هذا في جُملةِ هذا .

(٣) وقال — أبقاهُ اللهُ وأدام أيّامه — : ما اليُمْن والبَرَكة ؟ والفألُ والطِّيَرَةُ وأضْدادُها ؟

فكان الجواب : إنَّ اليُمْنَ عِبارةٌ عن شيء يبشَّرُ به [ويُبْتَغى][٥] ويُراد ؛ ويقال : فلانٌ مَيْمونُ الناصيَة ، وميسور الناصية ؛ أي هو سببٌ ظاهرٌ في نيلِ مأمُول وإدْراكِ محبوب ؛ واشتِقاقُه من اليَمِين، وهو القوّة ؛ ولذلك يقال لليَسار : شِمالٌ، لأنّها أَضعَفُ منها ، وتسمَّى أيضاً : الشُّؤمَى. ويقال : يُمِنَ فلانٌ عليهم ،

(١) لعله « المتوحدات » .
(٢) في (ا) « فإن التوفيق » ؛ وهو تحريف . وهمزة الاستفهام لم ترد في الأصول .
(٣) الذى في كلتا النسختين « فلهذا لا يسأل مالكه » .
(٤) في (ا) « خاصة » .
(٥) في (ا) « ما يراد ويبتغى » .

وشُؤِمَ ، وهو ميمونٌ ومَشْئوم ؛ جُعِل الفِعْل على طريقِ ما لم يُسَمَّ فاعِلُه ، لأنّه شىءٌ موصولٌ به من غيرِ إرادته واْختِيارِه . و إنما نزعوا إلى قولهم : فلان مشئوم ليكون الفعل واقِعاً به — أعنى المكْرُوه — و إلّا فهو شائمٌ فى الأصل . ويقال : شأَمَ فلانٌ قومَه ، وكذلك يَمَنَهُم ؛ وكأنَّهما قوَّتان عُلْويَّتان تَصْحَبان مِزاجيْن مختلفَين ، و إذا اُعتِيدَ منهما هذان العَرَضان اللذان يَصْدُران عن هاتين القوَّتين العُلويّتين ، قيل : فلان [كذا] ، وفلانٌ كذا .

وأما البَرَكة فهى النَّماء والزِّيادة والرَّفْعُ ، من حيث لا يوجد[١] بالحسّ ظاهراً مكشوفاً يُشار إليه ، وإذا عُهِدَ من الشيء هذا المعنى خافِياً عن الحسّ قيل : هذه بَرَكة ، واْشتِقاقها من البُروك ، وهو اللُّزوم والسَّعَة ؛ ومن ذلك : البِرْكة . والبَرَكة يوصَف بها كلُّ شىء ، وليس لِضدِّها اْسمٌ مشهور ، لذلك يقال : قليلُ البَرَكة .

وأما الفَألُ ففسِّرَ بأنّه جَرَيان الذِّكْرِ الجميلِ على اللِّسان مَعْزُولاً عن القَصْد ، إمّا مِنَ القائل ، و إمّا من السامع . وقد سَمِعَ النبيُّ — صلّى الله عليه وسلّم — لمّا نزَلَ المدينةَ عَلَى أبى أيُّوب الأنصاريّ — أبا أيُّوبَ يقول لغلامٍ له : ياسالمُ يا غانم . فقال لأبى بكر : « سَلِمَتْ لنا الدَّارُ فى غُنْمٍ إنْ شاء الله » . وهذا مشهورٌ بين النَّاس .

وضِدُّه الطِّيَرَةُ والإشعار[٢] . ويُرْوَى أنّه نَهى عن الطِّيَرَة ، وكان

(١) لا يوجد ، أى النماء وما عطف عليه .

(٢) لم نجد فيما راجعناه من كتب اللغة التى بين أيدينا من ذكر الإشعار بهذا المعنى الذى أراده المؤلف هنا . غير أن المراد به يتضح مما نقلناه عن اللسان فى الحاشية الآتية رقم ٣ من صفحة ١٦٤ من قصة عمر مع رامى الجمار وتطير الرجل اللهبىّ بما حدث ، فانظرها ثم .

يُحبُّ الفَأْلَ صلّى اللهُ عليه وسلم ، وليس لهما عِلَلٌ راتبة ، ولا أسباب مُوجبة ، ولا أوائلُ معروفة ؛ ولهذا كُرِه الإفراط فى التّطيُّر والتّعويلُ على الفَأْل ، لأنهما أمران يَصحّان ويَبْطُلان ، والأقلُّ منهما لا يميَّز من الأكثر ؛ وللمزاجِ من الإنسان فيهما أثرٌ غالب ، والعادةُ أيضاً تُعين ، والوَلوع يزيد ، والتحفُّظ مما هذا شأنُه شديد . ولقد غلَبَ هذا حتى قيل : فلانٌ مدوَّرُ الكَعب ، وفلانٌ مشئوم ؛ وحتّى تَعدَّى هذا إلى الدَّابة والدار والعَبْد ؛ وكلُّ هذا ظهر فى هذه الدار حتّى لا يكونَ للعبْدِ طُمأْنينة إلاّ بالله ، ولا سُكونٌ إلاّ مع الله ، ولا مطلوبٌ إلاّ من الله ؛ ولهذا — عزَّ وجلَّ — يُطلِعُ الخوفَ من ثنِيّة الأمْنِ ، ويَسُوقُ الأمْنَ من ناحيَة الخوف ، ويَبعَث النَّصرَ وقد وقَعَ اليأس ، ويأتى بالفَرَجِ وقد اشتدَّ البأس . وأفعالُ الله تعالى خَفِيَّةُ المطالِع ، جَلِيَّةُ الموانِع ، مطويّةُ المنافع : لأنّها تَسْرِى بين الغَيْب الإلهى ، والعِيانِ الإنسىّ ، وكلُّ ذلك ليَصِحَّ التوكّل عليه ، والتسليمُ له ، واللِّياذُ به ، وبعرِّجَ على كنَفِ مُلكه ، ويُتَبَوَّأَ مَعَانُ[1] خُلْده ، ويُنالَ ما عندَه بطاعتِه وعبادته .

فقال الوزير — كَبتَ الله أعداه ، وبَلَّغه مُناه — : هذا كلامٌ ليس عليه كلام ، أرَى النُّعاسَ يَخْطُب إلى عَيْنَىَّ حاجَته ، وإذا شئتَ فاجمَعْ لى فِقَرًا مِن هذا الضَّرْب الذى مرَّ من حَديث الطِّيَرة والفَأْل والاتّفاق .

الليلة الثامنة والعشرون

وعُدْتُ ليلةً أخرَى وقرأتُ عليه أشياء من هذا الفنّ .

منها : عَقَد هشامُ بنُ عبدِ الملك لسعيدِ بن عمرو الجُرَشىِّ أيّامَ التُّرْك ، فقال (١)

(١) المعان : المنزل .

سعيد : يا فَتْحُ ، يا نَصْرُ ، خُذَا اللِّواء . فقال هشام : أَعَمْدًا قلتَ هـذا ؟ قال : لا ، ولـكنّهما غُلاماى دَعَوْتُهما . قال هشام : هو الفَتْحُ والنَّصرُ إنْ شاء الله . وكان ذلك كذلك .

وكان عمرُ بنُ الخطّاب — رضىَ الله عنه — يَعْرِض ، فمرَّ به حَيَّةُ بنُ نَـكَّار ، فقال : لاحاجة لنا فى هذا ، هذا حَيَّة وأبوه يَنْـكُز[1] .

ورمى رجلٌ الجِمارَ ، فأصابَ صَلْعة عمر بحَصاةٍ فشَجَّه . فقال رجل : أُشْعِرتَ يا أميرَ المؤمنين[2] لا يقوم عمر هذا المَقامَ أبداً . فكان ذلك كذلك[3] .

وخرج رجل ينظر الحسَن بن علىّ — صلوات الله عليه — فلقىَ رجُلاً ، فقال له : ما اسمك ؟ قال : عِقال . قال : اِبنُ مَن ؟ قال ابنُ عَقِيل . قال : مِنْ بنِى مَنْ ؟ قال : من بنى عُقَيل . قال عقَلْتَه عَقَلك الله .

(٢) هذا الجزء أيُّها الشيخُ — أبقاكَ الله ما تمنَّيت البقاء — هو الجزْء الثانى ، والثالثُ يَتْلوه ، والظَّنُّ الجميل بك ، يعِدُنا بالحُسنى منك ، وقد علمتَ الغرَضَ فى جمع هـذا كلِّه والتعب فيه ، وأرجو ألاَّ يَخيبَ الأمل ، ولا يَبُورَ العمَل ،

---

(١) ينكز ، من النكز ، وهو لسع الحية بأنفها ، ومنه أخذ اسم هذا الرجل « نكار » كما أن النكار نوع من أخبث الحيات .

(٢) فى (ا) « أم المؤمن » ؛ وهو تحريف .

(٣) وردت هذه القصة فى اللسان مادة شعر ونصها : « أن رجلا رمى الجمرات فأصاب صلعته بحجر فسال الدم فقال رجل أشعر أمير المؤمنين . ونادى رجل آخر ياخليفة ، وهو اسم رجل ، فقال رجل من بنى لهب : ليقتلن أمير المؤمنين . فرجع فقتل فى تلك السنة . ولهب قبيلة من اليمن فيهم عيافة وزجر وتشاءم هذا اللهبىّ بقول الرجل : أشعر أمير المؤمنين فقال : ليقتلن ، وكان مراد الرجل انه اعلم بسيلان الدم عليه من الشجة كما يشعر الهدى إذا سيق للنحر . وذهب به اللهبي إلى القتل ، لأن العرب كانت تقول للملوك إذا قتلوا : أشعروا وتقول لسوقة الناس : قتلوا . ولما قال الرجل : أشعر أمير المؤمنين جعله اللهبي قتلا فيما توجه له من علم العيافة وإن كان مراد الرجل أنه دمى كما يدمى الهدى إذا أشعر . وحقت طيرته ، لأن عمر رضى الله عنه لما صدر من الحج قتل » والإشعار : الإدماء بطعن أو رمى أو وجء بحديدة . اهـ

و إن كان ذلك لا يَخْلو من بَعض الخلَل والزَّلَل . فإذا أَخذتَ بحُكْمِ الفَضْل الذى هو عادَتُك ودَيدنك مع الصغير والكبير ، والقريب والبعيد ، فاز قِدْحى ، وصدق نَوْئى ، وصحَّ زَجْرِى وفَأْلِى. حرسَ اللهُ نفسَك ، وصان نعمَتَك ، وكَبتَ كلَّ عدوٍّ لك .

الجزء الثالث من كتاب الإمتاع والمؤانسة

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

(١) أيها الشيخ وصل الله قولكَ بالصوابِ ، وفعلكَ بالتَّوفيق ، وجعل أحوالكَ كلّها منظومةً بالصلاح ، راجعةً إلى حميد العاقبة ، متألّفةً بشوارد السُّرُور ، ووفَّرَ حَظّكَ مِن المَدْحِ والثَّناء ، فإنّهما أَلَذُّ مِنَ الشَّهْدِ والسَّلْوَى ، ومَدّ فى عُمرك لكسْب الخير ، واستدامة النِّعمة بالشُّكْر ؛ وجعَلَ تلذُّذك باصطناع المعروف ، وعرَّفكَ عَواقِبَ الإحسانِ إلى المُسْتَحِقِّ وغير المستحق ، حتّى تتكلّفَ بثّ الجميل ، وتُشْغَفَ بنَشْرِ الأيادى ، وحتى تجدَ طَعْمَ الثناء ، وتَطْرَبَ عليه (٢) طَرَبَ النَّشْوانِ على بديع الغناء . لا طرب[١] البرَدَانيّ على غناء عَلْوَة جارية ابن عَلُّويه فى درب السِلْق[٢] إذا رَفعَتْ عَقِيرتها فغنّت بأبيات السَّرَوِىّ[٣] :

بالورد فى وَجْنَتيْكَ مَنْ لطمك ... ومَنْ سَقاكَ المُدام لِمْ ظلَمَكْ ؟

[خَلّاكَ لا تستَفِيقُ مِنْ سُكرٍ ... توسِعُ شَتْماً وجَفْوَة خَدَمَكَ]

مُعَقْرَبَ الصُّدْغِ قد ثَملتَ فما ... يمنعُ مِنْ لَثْمِ عاشِقِيكَ فَمَكَ ؟

---

(١) فى (ا) « ولا طرب » .

(٢) فى كلتا النسختين « السلق » ، والياء زيادة من الناسخ . ودرب السلق محلة ببغداد .

(٣) فى ب « الشرو » بالمعجمة .

[تجرُّ فضلَ الإزارِ مُنْخرِقَ النَّــعْلَيْنِ قد لوّثَ الثرى قدمَكْ
أظَلُّ مِن حَيْرَةٍ ومِن دَهَشٍ أقول لما رأيتُ مبتَسَمكْ]
باللهِ يا أقْحوانَ مَضْحَكِهِ على قَضيب العَقيق مَنْ نظَمَكْ ؟

ولا طَرَبَ أبن فَهم[١] الصُّوفيّ على غناء « نهاية » جارية ابن المغنّى إذا اندفعت بِشدوها[٢] :

أستودِعُ اللهَ فى بَغداد لى قمراً بالكَرْخ من فَلَك الأزْرارِ مَطلعُهُ
وَدَّعْتُه وبودّى لو يودِّعُنى صَفْوُ الحياةِ وأنّى لا أُوَدِّعه

فإنه إذا سَمِع هذا منها ضَرَبَ بنَفْسه الأرضَ ، وتمرّغ فى التراب وهاج وأزْبَدَ ، وتعفّر[٣] شَعره ؛ وهاتِ[٤] مِنْ رِجالك من يَضْبُطه ويمسكه ، ومَنْ يجْسُرُ على الدنو منه ، فإنه يَعَضّ بنابه ، ويَخْمِشُ بظُفره ، ويركلُ برِجْلِه ويخرّقُ المرقّعةَ قِطعَةً قِطْعَةً ، ويَلْطِمُ وَجْهَه ألفَ لَطْمة [فى ساعة] ، ويخرج فى العَبَاءَةِ[٥] [كأنه] عبد الرازق المجنون صاحبُ الكيال فى جيرانك بباب الطاق .

ولا طَرَب ابن عيلانَ البزاز على تَرْجيعات « بلَّوْر » جارية ابن اليزيدى المؤلِّفِ بين الأكباد المحرَقة ، والمُحْسِنِ إلى القلوب المتصدّعة والعيون الباكية إذا غنّت .

---

(١) فى نسخة « ابن قثيم » .
(٢) فى (ا) « اشدوها » ؛ وهو تحريف .
(٣) فى (ا) « وتعرف » ؛ وهو تحريف ؛ ووردت هذه الكلمة والتى بعدها فى (ب) مطموستى الحروف تتعذر قراءتهما .
(٤) فى (ا) « وهاب وجالك » ؛ وهو تحريف ؛ كما وردت هذه العبارة فى (ب) غير واضحة .
(٥) فى (ا) « الحكاية » ووردت هذه الكلمة مطموسة الحروف فى « ب » ، ولعل صواب الكلمة ما أثبتنا بدليل ما سبق فى قوله « ويخرق المرقعة » الخ .

أعطِ الشَّبابَ نَصِيبَهُ ما دمْتَ تُعْذَرُ بالشَّبابِ
وأنعم بأيام الصِّبى وأخلعْ عِذارَكَ فى التَّصابى

فإنه إذا سمع هذا منها أنقلبت حماليق عيْنَيْه ، وسَقَطَ مَغْشيا عليه ، وهاتِ الكافور وماء الورد ، ومَنْ يقرأ فى أُذُنه آيةَ الكرْسِىّ والمعوّذتين ، ويُرْقى بِهَيَا شَراهِيا[1] .

ولا طربَ أبى الوزير الصوفىّ [القاطن] فى دار القُطن[2] عند جامع المدينة على « قَلَم القضيبية[3] » إذا تَنَاوَأتْ[4] فى استهلالها ، وتضاجرتْ[5] على ضُجْرَتِها ، وتذكّرت شجوَها الذى قد أَضْناها وأنصاها ، وسلبها منها[6] وأنساها إياها[7] . ثم أندفعتْ وغَنَّتْ بصوتها المعروف [بها] .

أقولُ لها والصبحُ قد لاح نورُه كما لاح ضَوْء البارقِ المتألّقِ
شَبيهُكِ قد وَافَى وحان[8] افتراقنا فهل لك فى صَوْتٍ ورِطْلٍ مُرَوّقِ

---

(١) هيا شراهيا كلمة عبرانية معناها ياحى ياقيوم كما فى المصباح وفى القاموس مادة شره . أشر إهيا بفتح الهمزة والشين : كلمة يونانية معناها الأزلى الذى لم يزل والناس يغلطون ويقولون أهيا شراهيا وهو خطأ على ما يزعمه أحبار اليهود .

(٢) فى كلتا النسختين القطان ؛ والذى وجدناه فى محلات بغداد دار القطن لا القطان ، وإليها ينسب الدارقطنى .

(٣) القضيبية نسبة إلى القضيب الذى توقع به .

(٤) فى (ا) « تناوت » وفى ب « تبارت » ، وهو تحريف فى كلتا النسختين ، والصواب ما أثبتنا كما يدل عليه الكلام الآتى بعد ، وتناوأت أى تثاقلت وتظاهرت بالإعياء والتعب من ناء بالحمل ينوء .

(٥) وتضاجرت على ضجرتها أى تظاهرت بالضجر زيادة على ما فيها منه ، وفى كلتا النسختين وتخاطرت مكان قوله وتضاجرت وهو تحريف لا معنى له . وفى (ا) على صخرتها ، وهو تحريف أيضاً .

(٦) سلبها منها نظير قول المؤلف فى وصف بعض الغلمان المغنين (ص ١٧٥ سطر ٣ من هذا الجزء) « يسرقك منك » .

فقالت حياتى فى الذى قد ذكرتَه وإن كنتَ قد نغَّصْتَه بالتفرُّق

ولا طرب الجراحى أبى الحسن مع قضائه فى الكرخ ورِدائه المُحَشَّى، وكُمَّيه المُفَدَّرين[1] ووجنتيه المتخلِّجَتَيْن[2]، وكلامه الفَخْم، وإطراقه الدائم؛ فإنَّه يَغمِزُ بالحاجب إذا رأى مِرْطا[3]، وأمَّل أن يُقبِّلَ خدًّا وقُرطا[4]؛ على غناء شُغْلَة:

لا بدّ للمشتاقِ مِنْ ذِكْرِ الوطَنْ واليأس والسَّلْوةِ مِنْ بَعْدِ الحزَنْ

وقيامتُه[5] تقوم إذا سمعَها ترجِّع فى لحنها

لو أنّ ما تبْتليني[6] الحادثاتُ به يُلقَى على الماء لم يُشْرَب من الكَدَرِ

فهنالك ترَى شَيْبَةً قد أُبتلّت بالدموع، وفؤاداً قد نزَا[7] إلى اللّهاة، مع أسَفٍ قد ثقَبَ القلب، وأوْهَن الرُّوح، وجابَ الصَّخْر[8]، وأذاب الحديد، وهناك ترى والله أحداقَ الحاضرين باهتة، ودموعَهم متحدِّرة، وشهيقَهم قد علا رَحمةً له، ورقّةً عليه، ومساعدةً لحاله، وهذه صُورةٌ [إذا] أستولَتْ على أهْلِ مجلس وَجَدْتَ لها عَدْوَى لا تُملَك، وغايةً لا تُدْرَك، لأنّه قلّما يخلو إنسانٌ من صبوة أو صبابة، أو حسرةٍ على فائت، أوْ فِكْرٍ فى مُتمنّى، أو خوفٍ من قَطيعة،

---

(١) كذا فى كلتا النسختين ولعله من التفدير فى الثوب، أى الزيادة والفضل؛ وهو دخيل كما يظهر لنا إذ لم نجده فيما لدينا من كتب اللغة، غير أن ذلك مستعمل فى بعض بلاد مصر ويطلقون عليه الفَدار بفتح الفاء أى الزيادة أو لعل صوابه: «المفرزين» بالزاى المشددة، أى المشقوقين فإن شق الكمين لا يزال معروفاً حتى اليوم فى أقبية أهل العلم والقضاء.

(٢) المتخلجتان، أى المضطربتان المرتعشتان ويكون ذلك من الضعف وكبر السن.

(٣) المرط من ملابس النساء معروف. وفى كلتا النسختين «شرطا»؛ وهو تحريف إذ لم نجد له معنى يناسب السياق.

(٤) فى كلتا النسختين «وفرطا» بالفاء؛ وهو تصحيف.

(٥) فى (أ) و«قيامه يقوم». ووردت هذه العبارة فى «ب» غير واضحة الحروف

(٦) فى (أ) «تنتابنى»؛ وهو تحريف.

(٧) فى (أ) «نزل»: وهو تحريف.

(٨) جاب الصخر: قطعه.

أو رَجاء لمنتظَر ، أو حُزْنٍ على حالٍ ، وهذه أحْوَالٌ مَعرُوفة، والناسُ [منها] على جديلةٍ[١] معهودة .

ولا طرب ابن غسّانَ البصريِّ المتطبِّب إذا سمع ابْن الرَّفاء يُغَنِّى :

وحياةِ مَنْ أهْوَى فإنى لم أكُنْ أبدا لأحْلفَ كاذباً بحياته

لأخالفنَّ عواذلى فى لَذّتى ولأسْعِدَنَّ أخى على لَذّاته

وابنُ غسّان هـذا مليحُ الأدب ، وهو الذى يقول فى ابن نصرٍ العاملِ — وقد عالجه من علّة فلم يتفقّده ولم يَقْض حَقّه — :

هَبِ الشُّعراءَ تُعْطِيهم رِقَاعاً مُزوَّرةً كلاما عن كلام

فلِمْ صلة الطَّبيبِ تكونُ زُوراً وقد أهْدَى الشفاءَ من السَّقامِ

عجبتُ لمن بمنّه[٢] أرضُ لؤم وبُخْلٍ لِمْ يُعَدُّ من الكرامِ

نُسِبْتَ إلى السماحةِ لا لشىء سِوى نقْصانِ لؤمِكَ فى اللئامِ

عَنى بها أنه من أصْبهانَ[٣] ، وكان آخر حديث ابن غسان ما عرفته[٤] ، وإنه غرّق[٥] نفسه فى كِرْدابِ[٦] كلْواذَى ، وذلك لأسباب تجمّعت عليه من صَفَر اليد ، وسُوءِ الحال ، وجَرَبٍ أكل بدَنه ، وعِشْقٍ أحْرَقَ كَبده على غُلام (الآمِدىِّ الحلاوىِّ) بباب الطاق ، وحيرة عَزَبَ معها عَقْلُه، وخذَلَه رأيه ، وملكه حينه ، ونَسْأَلُ الله حسْن العُقْبى بدرْكِ المُنى ، وليس للإنسان من أمره شىء ،

---

(١) الجديلة : الطريقة . (٢) فى (ا) « تموت » ؛ وهو تحريف .

(٣) يشير إلى شهرة أهل أصبهان بالبخل .

(٤) فى ب « علمته » .

(٥) فى (ا) « عرف » ؛ وهو تصحيف .

(٦) فى (ا) كردان بالنون ؛ وهو تحريف . والجرداب كلمة فارسية معناها دوامة الماء وهى وسط البحر ولجته التى يدوّم عليها الموج . وهى بالجيم ، ولعل العرب كانوا ينطقونها بالكاف .

وماهوآئضٌ[١] إليه فهو مملوكٌ عليه، يُصَرِّفُه فيما يُصَرِّفُ فيَظُنُّ أنه أُتى مِنْ قِبَلِه، ولعَمرى مَن غُلِّطَ غَلِط، ومن غُولِطَ غالَط، والكلام فى هذا غاشٌ[٢] والإغراقُ فيه مُوسْوِس، والإعراضُ[٣] عنه أجْلَب للأنس، وما أحسنَ ما قال القائل:

إذا استَعْفَيْتُ مِن أَسْرِ اللَّيالى ... تُصرِّفنى فأَسْرِى فى خَلاصِى[٤]

ولولا طَيْش[٥] القلَمِ وتسَحُّبُ الخاطر، وشُرُودُ الرأى، ما عَثَرْتُ بهذا الموضع ولا عَلِقْتُ بهذا الحبل، نعم.

ولا طَرَبَ ابن نُباتة الشاعرِ على صَوْتِ الخاطِفِ إذا غَنَّتْ.

تَلْتَهِبُ الكفُّ مِنْ تَلَهُّبِها ... وتَحْسُرُ العينُ إنْ تقصَّاها

كأنّ نارا بها محرَّثةً[٦] ... تَهابُها[٧] مَرّةً وتَغْشاها

نأخذها تارةً وتأخُـذنا ... فنَحْنُ فُرْسانُها وصَرْعاها

ولا طَرَبَ ابن العَوْذِىِّ[٨] إذا سمع غناء تَرَف[٩] الصابئة فى صوتها، عند نشاطها ومَرَحِها، وهواها حاضر، وطَرْفها إليه ناظر:

---

(١) آئض، أى راجع.

(٢) فى (ا) «حاش» بالحاء والشين المعجمة؛ وفى «ب» حاس بالحاء والسين المهملة؛ ولم نجد لواحدة منهما معنى يناسب السياق؛ ولعل الصواب ما أثبتنا.

(٣) فى كلتا النسختين: «والإفراج»؛ وهو تحريف.

(٤) ورد هذا البيت فى (ا) هكذا:

إذا استعفت رقى من ليال ... تصرفى فأسرى فى حلاصى

وفيه تحريف ظاهر.

(٥) فى (ا) «طعس»؛ وهو تحريف.

(٦) حرث النار: حركها. وفى كلتا النسختين «محرشة» بالشين؛ وهو تصحيف.

(٧) فى (ا) «شهابها»؛ وهو تحريف.

(٨) لعله نسبة إلى العوذ من بنى أسد. والذى فى كلتا النسختين ابن العودى بالدال المهملة، ولم نجد هذه النسبة فيما راجعناه من كتب الأنساب.

(٩) فى (ا) «شرف»؛ وماأثبتناه عن «ب» وهوالأرجح أن يكون من أسمائهن.

لَبِّ الهوى كلّما دَعا كا ولاحِ فى الحبِّ من لَحَا كا
مَن لامَ فى الحُبِّ أو نَها كا فزِدْه فى غَيِّكَ أُنهما كا
إنْ لم تكن فى الهوى كذا كا نال[1] لذَّاتِهِ سِــوا كا

ولا طَرَبَ المعلِّمِ غلام الحُصْرىّ شيخ الصُّوفية إذا سمع ابن بُهلولٍ يغنى فى رحبة المسجد بعد الجمعة وقد خَفَّ الزحام :

وقال لىَ العَذُولُ تَسَلَّ عنها فقلتُ له : أتدرى ما تَقول ؟
هى النفسُ التى لا بُدَّ منها وكيف أزول عنها أو أَحُولُ ؟

ولا طرب أبن الغارى على جارية العَمِّىِّ[2] فى مجلسها الغاصِّ بنبلاء الناس بين السُّورَيْن[3]

يَلحَى ، ولو أَرَّقَهُ مِيعادُ أو رَاعَه الإعْراضُ والإبْعادُ
أو هَرَّه الأعداء والحُسّادُ أو سَلَقَتْه الأَلْسُنُ الحِدادُ
ما[4] لامَ مَنْ لَيْسَ له فؤادُ

ولا طَرَب ابن صُبْر[5] القاصى قبلَ القضاءِ على غناء درّة جارية أبى بكر الجرّاحىّ فى دربِ الزعفرانىّ التى لا تَقْعُدُ فى السَّنة إلّا فى رَجَبَ ، إذا غَنَّتْ :

لستُ أنسَى تلك الزِّيارَةَ لمّا طرقَتْنــا وأقبلتْ تتثنّى
طروتْ ظبيةُ الرُّصافة ليلا فهى أحلى من جَسَّ عُوداً وغنَّى

---

(١) فى كلتا النسختين : « فإن لذاته » ؛ وهو تحريف لا معنى له .

(٢) فى كلتا النسختين « عمى » بدون ألف ولام ؛ ولعل صوابه ما أثبتنا ، والعمّىّ نسبة إلى العمّ بطن من تميم .

(٣) بين السورين : محلة كبيرة كانت بكرخ بغداد وكانت من أحسن محالها وأعمرها وقد وردت هذه الكلمة فى كلتا النسختين بعد قوله « العمى » . واللائق إثباتها فى هذا الموضع .

(٤) فى « ب » « من لام » ؛ وهو تحريف .

(٥) كذا ضبط هذا الاسم بالعبارة فى شرح القاموس .

كم ليالٍ بِتْنا نَـلَذُّ ونَلْهو ونُسَقَّى شرابَنــا ونُغَنَّى
هجرتْنا فمـا إليها سَبِيلٌ غيرَ أنّا نقولُ: كانت وكُنّا

وإذا بلغتْ «كانت وكنّا» رأيتَ الجيْبَ مَشْقوقا ، والذَّيْـلَ مَخْرُوقا ، والدَّمْعَ مُنْهملا ، والبال مُنْخَذِلا ، ومكتومَ السِّرِّ فى الهوى باديا ، ودليلَ العِشْقِ على صاحِبِه مُناديا .

ولا طرب ابن حَجَّاج الساعر على غناء فِنْوَةَ البَصْرية ، وهى جارَتُه[1] وعَشِيقَتهُ ، وله معها أحاديث ، ومع زوجها أعاجيب : وهناك مكايَدات ، وَرَمْىٌ ومُعايَرات ، وإفشاء نِـكات ؛ إذا أَنْشَدَتْ :

يا ليتَنى أَحْيَا بقرْبِهمو وإذا فقدتهمْ انقضى عمْرى

ثم ثنّت بِصَوْتِها[2] الآخر :

هَبِينى امرأً إمّا بريئًا ظلمتِه وإمّا مُسِيئًا تاب بعدُ وأعتبا
فكنتُ كذِى داءٍ تبغّى لدائه طبيبًا فلما لم يجدْه تطبّبا

ولا طرب ابن معروف قاضى القضاة على غناء غانيةٍ إذا رجّعت لحنَها فى حَلْقها الحلو[3] الشَّجِى بشعر ابن أبى رَبيعة :

أنيرِى مكانَ البدْرِ إنْ أفَلَ البدْرُ وقومى مقامَ الشّمْسِ ما استأخرَ الفَجْرُ
ففيكِ من الشّمسِ المُنيرة نُورُها وليس لها مِنْكِ المحاجِرُ والثَّغرُ[4]

ولا طَرِب ابن إسحاقَ الطبرىّ على صَوْتِ [دُرَّةَ] المصريّة إذا غَنَّتْ :

(١) فى (ا) جاريته ؛ وهو تحريف .
(٢) فى (ا) صورتها .
(٣) هنا كلمة مطموسة فى (ا) قبل هذه الـكلمة .
(٤) فى (ا) « والشعر » .

يا ذا الذى زار وما زارا كأنّه مُقْتَبِسٌ نارَا
فامَ بباب الدار مِنْ زَهوِه ما ضَرَّه لو دَخَل الدارا
لو دَخَل الدارَ وكلَّمتُه بحاجتى ما دَخَل النّارا
نَفْسى فِداهُ اليومَ مِن زائرٍ ما حلَّ حتى قيلَ قد سَارَا

ولا طَرَب أُبن الأزْرَق الجَرجَرائىّ على غِناء سُنْدُسَ جارية ابن يوسف صاحب ديوان السَّواد إذا تَشاجَتْ وتَدَلّلَتْ ، وتفتَّلَتْ(١) وتَقَتّلَتْ ، وتكسَّرَتْ وتَيَسَّرَتْ ، وقالت : أنا والله كَسْلانة مشغُولة القلب بين أحلام أراها رَديئةً ، وبَخْتٍ(٢) إذا أُسْتوى الْتوى ، [وأَمَلٍ] إذا ظَهَرَ عَثَر ؛ ثم اندفعت وغَنَّتْ :

مجلسُ صَبَّيْن عَميدَيْن ليسا مِنَ الحُبِّ بِخلْوَيْنِ
قد صيَّرا رُوحَيهما واحداً واقتسَماه بين جِسْمَيْنِ
تَنازَعا(٣) كأسا على لَذّةٍ قد مَزَجاها بين دمْعَيْنِ
الكأسُ لا تَحْسُنُ إلا إذا أدرْتَهـا بَيْن مُحِبَّيْنِ

ولا طربَ أُبن سَمْعون [الصُّوفىّ] على ابن(٤) بُهلول إذا أخذ القضيب وأوقع(٥) ببنانه الرَّخْص ، ثم زَلْزَلَ الدنيا بصوته الناعم ، وغُنّتِه الرَّخِيمة ، وإشارته الخالبة ، وحركتِه المَدَغدغة(٦) ، وظَرْفه البارع ، ودَماثته الحُلْوَة ، وغَنَّى :

---

(١) تفتلت ، أى تلوت ، وفى كلتا النسختين « وتقبلت » وهو تصحيف إذ لا يناسب معناه سياق ما هنا ، ولعل صوابه ما أثبتنا كما يدل عليه قوله بعد : « وتقتلت » أى تثنت فى مشيتها.
(٢) فى (١) « ونحيب » ؛ وهو تصحيف .
(٣) هذه الكلمة مطموسة فى (١) .
(٤) على ابن بهلول ، أى على غناء ابن بهلول .
(٥) فى (١) « ورفع » ؛ وهو تصحيف .
(٦) الدغدغة والزعزغة كلا اللفظين بمعنى واحد وقد استعارها هنا لما يلزم ذلك من معنى الخفة والسرور وانبساط النفس .

ولو طابَ لى غَرْسٌ لطابَتْ ثمارُه ولو صحَّ لى غَيبى لصَحَّتْ شَهادتى

تزَهَّدْتُ فى الدنيا وإنى لراغِبٌ أرى رَغْبَتى ممزُوجةً بزهادتى

أيا نَفْسُ ما الدنيا بأهْلٍ لِحُبِّها دَعيها لأقوامٍ عليها تَعادتِ

ولا طرب ابن حَيَّوَيه[1] على غلام[2] الأمراء إذا غَنَّى :

قد أشهدُ الشارِبَ المعذَّلَ[3] لا معــروفُهُ مُنْــكَرٌ ولا حَصرُ

فى فِتْيَةٍ ليِّــنى المآزِرِ لا ينسَوْن[4] أحلاقَهُمْ[5] إذا سكروا

وغلامُ الأمراء هو الذى يقول فيه القائل :

أبو العباس قد حَجَّ وقد عاد وقد غَنَّى

وقد علَّقَ عنّاراً[6] فهــذا هُمْ كما كُنّا

وأصحابُنا يَسْتَمْلِحون قولَه (هُمْ) هاهُنا ، ويَرَوْنَه من المعنى الفصيح .

ولا طَرَبَ أبى سُلَيْمان المنطقىِّ إذا سمع غِناء هٰذا الصَّبِىِّ الموصلىِّ النابغ الذى قد فتن الناس وملأ الدنيا عِيارةً[7] وحسرةً . وافتُضِح به أصحابُ النسك والوقار ، وأصنافُ الناس من الصِّغار والكبار ، بوجهه الحسن ، وثغره المُبتسِم ، وحديثه الساحر ، وطَرْفه الفاتر ، وقدِّه المَديد[8] ، ومَعطفه الحُلْو ، ودلّه المخلوب ، وتمنّعه

---

(١) فى (ا) « حيوية » بالميم ، وهو تحريف .

(٢) على غلام ، أى على غناء غلام .

(٣) وردت هذه الكلمة فى كلتا النسختين بالدال المهملة ؛ وهو تصحيف .

(٤) ورد هذا البيت فى (ا) أكثر حروفه مهملة من النقط .

(٥) فى (ب) « أحلامهم » ، والمعنى يستقيم عليه أيضا .

(٦) العنّار طبل كان يعلقه المخنّثون وأصحاب الغناء فى أعناقهم . والذى فى (ا) « وقد عانق عبارا » .

(٧) العيارة : تخلية المرء نفسه وهواها لا يردعها ولا يزجرها .

(٨) فى (ا) المدير ؛ وهو تصحيف .

المُطمِع ، و إطماعِه المُمَنِّع [١] وتشكيكه فى الوصل والهجر، وخَلْطِه الإباء بالإجابة ، ووقوفه بين لا ونعم . إنْ صَرَّحْتَ له كَنَى ، و إنْ كَنيتَ له صَرَّح ؛ يَسْرِقُكَ منك ، ويَرُدُّكَ عليك ، يَعْرِفُكَ مُنْكِراً لك ، ويُنْكِرُكَ عارفا بك ؛ فحالُه حالات ، وهِدايَتُه ضلالات ، وهو فتنة الحاضِرِ والبادى ، ومُنْيَة [٢] السائق والهادى ؛ فى صوته الذى هو من قلائده :

عرفتَ الذى بى فلا تَلْحَنى ... فليس أخو الجهْل كالعالِمِ
وكنتُ أُخَوِّفُه بالدُّعا [٣] ... وأحشى عليه من المائم
ولو كنتُ أبصرتُ مِثْلا له ... إذًا لمتُ نَفْسِى مَع اللائمِ
فلمّا أقامَ على ظُلْمِه ... تركْتُ الدُّعاءَ على الظالِمِ

ولا طرَبَ أبى عَبْدِ الله البَصْرِىِّ على إيقاع أبن العَصَبِىّ إذا أَوْقَعَ بقَضِيبه وغنَّى بصَوْته :

أنسِيتَ الوَصْلَ إذ بِتْـ ... ـنا على مَرْقَدِ وَرْدِ
واعْتَنَقْنَا كوِشاحٍ ... وانتَظَمْنَا نَظْمَ عِقْدِ
و تعطَّفْنا كغُصْنَيْـ ... ـنِ فقَدَّانا [٤] كَقَدِّ

و بسبب [٥] هـذا ونظائِره عابه [٦] الواسطىُّ ، وقَدَحَ فى دِينِه ، وألصق به الرِّيبة [٧] ، واُستحلَّ فى عِرْضِه الغِيبة ، ولقّبه بالمنفِّر عن المذهب ، وقاطعِ الطّريق على الْمُسْتَرْشِد .

---

(١) فى كلتا النسختين « الممتع » بالتاء ؛ وهو تصحيف ، وما أثبتناه هو مقتضى سياق الكلام .
(٢) فى (ا) وفتنة ؛ وهو تبديل من الناسخ لتكرره مع ما قبله .
(٣) كذا فى « ب » . والذى فى (ا) ولست أخوفه باللقا ؛ والمعنى عليه غير مستقيم .
(٤) فى (ا) « وعدا » ؛ وهو تحريف . (٥) فى (ا) وليست ؛ وهو تحريف .
(٦) فى (ا) « بعاية » ؛ وهو تصحيف . (٧) فى (ا) « الزينة » ؛ وهو تصحيف .

ولا طَرَبَ ابن الورّاقِ على رَوْعَة[١] جارية ابن الرِّضيِّ فى الرُّصافَة إذا غَنَّتْ :

وحقِّ محلٍّ ذِكْرِكَ مِنْ لسانى ... وقَلْبِى حِين أخْلُو بالأمانى
لقد أصْبَحْتُ أُغْبِطُ كلَّ عَيْنٍ ... تعانُها فَتَسْعَدُ بالعِيانِ

ولا طَرَبَ السِّنْدوانىِّ[٢] على ابن الكَرْخِىِّ إذا غنّى :

هَجَرْنى ثم لا كلّمْتِنى أبداً ... إن كنتُ خُنْتُكِ فى حالٍ من الحال
فلا أُنتجيْتُ نجيّا فى حِيَانتِكُمْ ... ولا حَرَتْ حطرةٌ منه[٣] على بالِ
مسوِّغينى المُنى كيما أعيشَ بها ... ثم أُحبسى البَذْلَ ما أُطلقتِ آمالى
أو أُبعثِى تلفاً إن كنتِ قاتلتى ... إلىَّ منكِ بإحسانٍ وإجمالِ

ولا طَرَبَ الحريرىِّ الشاهد على حِلْيَة جارية أبى عائذ الكَرْخِىِّ « إذا أخذت فى هرارها »[٤] ، واشتَعَلَتْ بنارها وغنّتْ :

قالت بُثَيْنَةُ لما جئْتُ زائرَها[٥] ... سبحانَ خالقِنا ما كانَ أوْفا كا
وعَدْتَنا مَوْعِدًا تأتى[٦] لنا عَجِلاً ... وقد مَضَى الحَوْلُ عَنّا ما رَأَيْنا كا
إن كنتَ ذا غرضٍ أو كنت دا مَرَضٍ ... أوِ كنتَ دا حُلّةٍ أحرَى عَذَرْنا كا

ولا طَرَب أبى سعيد الصائغ على جاريته ظَلُومْ إذا قلبَتْ لحنها إلى حَلْقِها واستنزلته[٧] مِنَ الرأس ، ثم أوْقعَتْ فغنّتْ :

---

(١) فى (ب) زرعة ؛ وهو تحريف . وروعة من أسمائهن .
(٢) فى (ا) السودى . وفى (ب) : « السودى » . ولم نجد هاتين النسبتين فيما راجعناه من كتب الأنساب ولعل الصواب ما أثبتناه والسندوانى نسبة إلى السندية وهى قرية بنواحى بغداد
(٣) فى (ا) منى ؛ وهو تحريف .
(٤) كذا وردت هذه العبارة التى بين هاتين العلامتين فى كلا الأصلين ؛ ولم تتبين معناها ولعله تحريف صوابه « إذا خلعت من عذارها » .
(٥) كذا فى ب والذى فى (ا) أكبرها ؛ وهو تحريف .
(٦) فى (ب) يتتابنا ؛ وفى (ا) فتأتنا ؛ وهو تحريف فى كلتا النسختين .
(٧) عبارة « ا » واسترسلت من الرأس

فيالكِ نظرةً أوْدَتْ بعقْلِي وغادرَ سَهْمُها مِنّى جَرِيحا
فليتَ مَلِيكَتى جادَتْ بأخرى وأَعْلَم أنَّها تَنكا القُروحا
فإمّا أنْ يكُونَ بها شِفائى وإمّا أنْ أَمُوتَ فأسْتَرِيحا

ولا طرب الزُّهْرىّ[1] على خَلوبَ جارية أبى أيُّوب القَطّانِ إذا أهَلَّت واُستهَلَّتْ ، ثم اندفعت وغنَّتْ :

إذا أَرَدْتُ سُلُوًّا كان ناصِرَكم قلبى وما أنا مِن قَلْبى بمُنْتَصِر
فأ كثِروا أوأَقِلّوا من إساءتكم[2] فكلُّ ذلك محمولٌ على القَدَرِ
وصعتُ حَدى لأدنى مَنْ يُطيف بكم حتّى احتُقِرْتُ وما مِثْلِى بمحتَقَرِ

وأبو عَبْدِ الله المرْزُبانىّ شيخُنا إذا سَمِعَ هٰذا جُنَّ واستغاثَ ، وشَقّ الجَيْبَ وحولَق[3] وقال : يا قومُ أما تَرَوْنَ إلى العبّاس بن الأحنف ، ما يَكفيه أَنْ يَفْجُرَ حتى يَكْفُرُ ؟ متى كانت القبائح والفضائحُ والعيوبُ والذنوب[4] محمولةً على القَدَر ؟ ومتى قَدَّرَ اللهُ هٰذهِ الأشْيَاءَ وقد نَهَى عنها ، ولو قَدَّرَها كان قَدْ رَضِىَ بها ، ولو رضى بها لما عاقَبَ عليها ، لَعَنَ اللهُ الغَزَلَ إذا شيب بمجانة ، والمجانةَ إذا قُرِنَت بما يَقْدَحُ فى الديانة . ورأيتُ أبا صالح الهاشمىّ يقول له : هَوِّن عليك يا شيخ ، فليس هٰذا كلّه على ما تَظُنُّ ، القَدَرُ يأتى على كلِّ شَىء ، ويَتَعَلَّقُ بكلِّ شىء ، ويَجْرِى بكلِّ شىء ، وهو سرّ الله المكتوم ، كالعلم[5] الذى يحيط

---

(١) كدا فى (ب) والدى فى (١) الزنديرى . ؟ وهو تحريف إد لم نجد هذه النسبة فيما راجعناه من كتب الأنساب

(٢) فى (١) « من أسى تكم » ؛ وهو تحريف .

(٣) حولق ، أى أكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله .

(٤) فى (١) « من الذنوب » .

(٥) هذه الكاف ساقطة من (١) .

بكل شىء ؛ وكلُّ ما جازَ أَنْ يحيطَ بِهِ عِلْمٌ جازَ أَنْ يَجْرِى به قَدَر ، وإذا جازَ هٰذا جازَ أَنْ يَنْشُرَه خَبَر ، وماهذا التصابقُ والتحارُجُ فى هذا المكان ، والشاعرُ يَهْزِلُ ويَجِدُّ ، ويَقْرُبُ ويَبْعُد ، ويُصِيبُ ويُخْطِئُ ، ولا يؤاخَذ بما نؤاخَذ به الرَّجلُ الديّان ، والعالِم ذو البَيان .

ولا طَرَبَ ابن المَهْدِىّ على جارِيةِ بنتِ خاقانَ المشهورة بعَلْوَة إذا غنّتْ :

أُرَوَّعُ[١] حين يأتينى الرسولُ وأُكْمَدُ[٢] حينَ لا يأتى الرَّسُولُ

أُؤَمِّلُكمْ وقد أَيقنتُ أنّى إلى تكذيبِ آمالى أَؤُولُ

ولا طَرَبَ أبى طاهر بن المقنّع[٣] المعدَّل على عَلْوانَ[٤] غلامِ ابن عُرْس فإنه إذا حَضَر وألْقَى إزارَه ، وحَلَّ أزراره ، وقال لأهل المجلس : اقترحوا واستفتِحُو فإنّى وَلَدُكم بل عَبْدُكم لأحدُمكم[٥] بغنائى ، وأتقرَّبُ إليكم بولائى ، وأُساعِدُكم[٦] على رُخصى وغَلائى ؛ مَنْ أَرادَنى مَرّةً أَرَدْتُه مرّات . ومن أَحَبّنى رِياءً أَحْبَبْتُه إخْلاصا ، ومَنْ بَلَغَ بى بَلَغْتُ به ؛ لم أَبخَلْ عليكم بحُسْنِى[٧] وظَرْفى ، ولم أَنْفَس[٨] بهما عليكم ، وإنما خُلِقْتُ لكم ، ولِمَ أُغاضِبُكم[٩] وأنا آمُلُكُمْ غدا إذا نَقَلَ[١٠]

(١) فى كلتا النسختين « أودع » ؛ وهو تحريف .

(٢) فى (ا) « وأكره » ؛ وهو تحريف .

(٣) فى (ا) ابن المبيع ، وهو تحريف ؛ إذ لم نجد هذه النسبة فيما راجعناه من معجمات النسب

(٤) فى (ا) « علون » ، وهو تحريف .

(٥) فى (ا) « اقدمكم » وفى ب « أمديكم » وما أثبتناه هو ما كتبه المصحح فى ب حاشية الصفحة .

(٦) فى (ا) « وأشاعركم » ، وهو تحريف .

(٧) فى (ا) « تحسى » ، وهو تحريف .

(٨) أنفس بهما عليكم ، أى أضن .

(٩) فى ب « أعاصيكم » ، والمعنى يستقيم عليه أيضا .

(١٠) فى (ا) « ثقل » بالثاء المثلثة ، وهو تصحيف . ونقل وجه الغلام ، أى خرجت لحيته .

وَجْهِي ، وتَدَلَّى سِبالى ، ووَلَّى جَمالِى ، وتَكَسَّرَ حَدِّى ، وتَعَوَّجَ قَدِّى ، ما أصنع ؟ حاجَتِى واللهِ إليكم غدا أشَدُّ من حاجَتِكم إلىَّ اليوم ، لَعَنَ اللهُ سُوءَ الخُلُق ، وعُسْرَ الطِّباع ، وقلةَ الرِّعاية ، واستحسانَ الغَدْر . فيَمُرُّ فى هذا وما أشبهَه كلامٌ كثير ، فلا يَبْقَى مِنَ الجماعةِ أَحَدٌ إلا ويَنْبِضُ عِرْقُه ، ويَهَشُّ فُؤادُه ، [ويَذْكو طَمَعُه] ويَفْكَهُ قَلْبُه ، ويتحرك ساكِنُه ، ويَتَدَغدَغُ رُوحُه[1] ، ويُومِئُ إليه بقُبْلَتِه ، ويَغْمِزُه بطَرْفِه ، ويَخُصُّه بتَحيّة ، ويَعِدُه بعَطيّة ، ويُقابِلُه بمِدْحَة ، ويَضْمَنُ له مِنْحَة ، ويُعَوِّذُه بلسانِه ، ويُفَضِّلُه على أقرانه ، ويَراه واحدَ أهْلِ زَمانِه ؛ فيَرَى ابنُ المُقَنَّعِيّ وقد طارَ فى الجوّ ، وحَلَّقَ فى السُّكاك[2] ، ولَقَطَ بأناملِه النُّجوم ؛ وأقبَلَ على الجماعة بفَرحِ الهَشاشَة[3] ، ومَرَحِ البَشاشة[3] ، فيقول : كيف ترون اختيارى[4] وأيْنَ فَراسَتى من فَراسة غيْرى ، أبى الله لى إلاّ مايَزِينُنى ، ولا يَشينُنى ، ويَزيدُ فى جمالى ، ولا يَنْقُصُ مِنْ حالى ؛ ويُقِرُّ عَيْنِى ولُبِّى ، ويَقْصِمُ ظَهْرَ عَدُوِّى ؛ هاتِ يا غلامُ ذلك الثوبَ الدَّبيقيَّ[5] وذلك البُرْدَ الشَّطَوِيَّ[6] ، وذلك الفَرُّوجَ[7] الرُّومىّ . وتلك السُّكّة[8] المطيَّبة ، والبَخُورَ المدَّخَرَ فى الحُقّة[9] ، وهاتِ الدِّينارَ الذى فيه مائةُ مِثْقالٍ أهْداه لنا أمس أبو العلاء الصَّيْرَفِيُّ

---

(١) الدغدغة والزغزغة كلا اللفظين بمعنى واحد ، والمراد هنا انبساط الروح وهشاشته .

(٢) السكاك : الجو . وفى (ا) الشكاك بالشين المعجمة وفى ب «السكال» باللام فى آخره وهو تحريف فى كلتا النسختين .

(٣) فى (ا) «السياسة» مكان «الهشاشة» ، وهو تحريف .

(٤) فى (ا) «أخبارى» ، وهو تصحيف .

(٥) الدبيقى من دق الثياب ، منسوب إلى قرية بمصر كان ينسج فيها اسمها دبيق .

(٦) الشطوى نسبة إلى شطا قرية بمصر كانت تنسج فيها هذه الثياب .

(٧) الفروج قباء فيه شق من خلفه .

(٨) فى «ب» «الشيكة» ، وهو تحريف ، والسك: ضرب من الطيب معروف ، وقد ذكره صاحب نهاية الأرب فى الجزء الثانى عشر الطبعة الأولى وذكر كيفية عمله وتوسع فى ذلك فانظره . (٩) فى (ا) «مع الحقة» وقوله «مع» خطأ من الناسخ .

فإنّه يَكفيه لنفقة أُسْبُوع ؛ ما أَحْسَنَ سِكّتَه ، وأحْلَى نَقْشَه ! ما رأيتُ فى حُسْنِ أُسـتِدارَتِه شِبْهَا[١] ، وعَجِّل لنا يا غلامُ ما أَدْرَكَ عِنْدَ الطَّبّاخ ، من الدَّجاج والفِراخ ؛ والبَوارِدِ[٢] والجَوْزِيّات[٣] وتَزايين المائدة ؛ وصِل ذلك بشراء أَقْراطٍ[٤] وجُبْنٍ[٥] وزَيْتون من عند كبل[٦] البَقّال فى الـكَرْخ ، وقطائف حَبَش ، وفالُوذَجِ عُمَر ، وفُقّاع[٧] زُرَيق ، ومُخَلَّطِ[٨] خُراسان من عِنْدِ أبى زُنْبُور ، ولو كُنّا نَشْرَبُ لَقُلْنا : وشَراب صَرِيفِين[٩] من عند ابن سُورِين[١٠] ، ولـكن إن أَحْبَبْتم أن أُحْضر بسَببكم ومن أَجْلِـكم فليس فى الفُتُوّةِ أن أَمْنَعَكم من أَرَبِكُم[١١] بسببِ ثِقْل رُوحى وقِلّةِ مُساعدتى ، لعن الله الشهادةَ ، فقـد حَجَبَتْنِى عن كلِّ شَهْوةٍ و إرادة ؛ وما أَعْرِفُ فى الدَّالة ، إلا مَوْتَ الطَّلَبَـةِ[١٢] والعُلالة .

وما أَحْسَنَ ما قالَ مَنْ قال :

ما العَيْشُ إلا فى جُنُونِ الصِّبَى ... فإنْ تولّى فجنونِ المُدامْ

هذا كلُّه يَمُرُّ وما هو أَشْجَى منه وأَرَقُّ ، وأعجَبُ وأَظْرَف ، ثم يَنْدَفِعُ عَلْوان ويغنِّى فى أبياتِ بَشّار :

---

(١) فى كلتا النسختين « شيئا » .

(٢) فى ب « والنواد » . ولعل المراد بالبوارد ما يؤكل من الأطعمة بارداً .

(٣) الجوزيات أنواع من الأطعمة تصنع من الجوز . وفى كلتـا النسختين والجوزابات ، وهو تحريف . (٤) فى كلتا النسختين « قيراط » . ولم نجد من معانيه ما يناسب السياق ، ولعل صوابه ما أثبتنا ، والأقراط جمع قرط بكسر أوله وسكون ثانيه ، وهو نوع من الـكرات يقال له كراث المائدة . (٥) فى (١) و « خبز » ، وهو تحريف .

(٦) كذا ورد هذا الاسم فى كلتا النسختين ولم نتبين وجه الصواب فيـه بعد طول المراجعة والبحث . (٧) الفقاع ، شراب يتخذ من الشعير .

(٨) مخلط خراسان طعام يصنع من أنواع شتى .

(٩) صريفين : من قرى بغداد تنسب إليها الخمر . (١٠) كذا ورد هذا الاسم فى كلتا النسختين . (١١) فى ب « من لذتـكم » والمعنى يستقيم عليه أيضا .

(١٢) فى كلتا النسختين « الطينة » ، وهو تحريف .

أَلا يا قَوْمُ خَلُّونى وشانى فلستُ بتارِكٍ حُبَّ الغوانى
نَهَوْنى يا عُبَيْدَةُ عَنْ هَوَاكم فلَمْ أَقْبلْ مقالةَ مَنْ نَهانى
فإِن لم تُسْعِفى فعِدِى وَمَنِّى خِداعا لا أَمُوتُ على بِيانِ[(١)]

ولا طَرَب أبى سَعِيد الرَّقِّىِّ على غناء مذْكُورة إذا اندفعَتْ وغنَّتْ :

سرِرْتُ بهجرِكَ لمـا عَلِمْتُ بأَنّ لِقَلبِكَ فيه سُرُورا
ولولا سُرورُكِ ما سَرّنى ولا كانَ قلبى عليه صَبُورا
ولـكنْ أَرى كلَّ ما ساءنى إذا كانَ يُرضيك سَهْلاً يسيرا

ولا طرب ابن مَيّاس على غِناء حَبَابةَ جاريةِ أبى تمّام إذا غنَّتْ :

صَـدَدْنَا كأَنَّا لا مودّةَ بيننا على أَنَّ طَرْفَ العَينِ لا بُدَّ فاضِـحُ
ومَدّ إلينا الكاشِحون عُيونَهمْ فلم يَبْدُ منّا ما حوَتْه الجَوانحُ
وصافحتُ من لاقَيتُ فى البيت غيرَها وكلُّ الهوَى مِنِّى لِمَن لا[(٢)] أُصافِحُ

وحَبَابةُ هٰذه كانت تَنُوح أيضا ، وكانت فى النَّوْح واحدةً لا أختَ لهـا ، والناسُ بالعراق تَهالَـكوا على نَوْحِها ، ولولا أنى أكْرَه ذِكرَه لرَفَعْتُ الحديثَ به . وقَدِمَ مِن شاش[(٣)] خُراسانَ أبو مُسلِم — وكان فى مرتبة الأمراء — فاشتراها بثلاثين ألفَ دِرهم معِزِّيّة[(٤)] ، وخرج بها إلى المَشرق ، فقيل : إنهـا لم تَعِشْ به إلا دُونَ سنةٍ لـكَمَدٍ لَحِقَها ، وهَوًى لها ببَغداد ماتت منه .

---

(١) بيان بكسر الباء : مصدر باينه أى فارقه ، أى لا أموت على قطيعة وفرقه .

(٢) عبارة (أ) : « منى لم أصافح » ؛ وهو تحريف .

(٣) فى كلتا النسختين : « ساس » بمهملتين ؛ وهو تصحيف . والشاش بمعجمتين : قرية بمـا وراء النهر ثم ما وراء نهر سيحون .

(٤) فى (أ) : « عربية » ؛ وفى (ب) : « عزية » ؛ وهو تحريف فى كلتا النسختين إذ لم نجد ذلك فيما راجعناه من الـكتب المؤلفة فى النقود ، ولعل صوابه ما أثبتنا . والمعزية نسبة إلى معزّ الدولة البويهىّ .

ورأيتُ لها أُخْتًا يُقال لها صَبَابة ، وكانت فى الحُسن والجمال فَوْقَها ، وفى الصَّنعةِ والحِذْق دونَها ، وزَلْزَلَتْ هٰذه بغدادَ فى وَقتِها ، ولم يكُنْ للنّاسِ غيرُ حديثِها ، لنوادِرِها ، وحاضِرِ جوابِها ؛ وحِدّةِ مِزاجِها ، وسُرْعةِ حركتِها ، بغيرِ طَيْش ولا إفراط ، وهذه شمائلُ إذا اُتّفقَت فى الجَوارى الصانعاتِ المُحسِنات خلبْنَ العُقول ، وخَلَسْنَ القلوب ، [وسَعَّرْنَ الصُّدور] ، وعَجِلْنَ بعُشّاقهنّ إلى القُبور .

ولا طَرب الكِنانىُّ المُقْرئ الشيخ الصالح على غِناءِ هذه[١] فى صَوْتِها[٢] المعروفِ بها :

عهودُ الصِّبَى هاجَتْ لىَ اليَوْمَ لَوْعةً ... وذِكرُ سُلَيمَى حين لا يَنْفعُ الذِّكرُ
بأَرضٍ بها كان الهوَى غيرَ عازبٍ ... لَدَيْنَا وغَضٌ[٣] العَيْشِ مُهتَصرٌ نَضْرُ
كأنْ لم نعِشْ يوماً بأَجْراع بِيشةٍ ... بأَرْضٍ بها أَنْشَا[٤] تَسِيبَتَنا الدهْرُ
بَلٰى إنَّ هذا الدَّهرَ فرَّقَ بيْنَنا ... وأىُّ حَميمٍ لا يفرِّقُه الدَّهرُ

ولا طَربَ غلامِ بابا على جارية [أبى] طلحة النّاهدِ[٥] فى سُوق[٦] العَطَش إذا غنَّت :

لَيْتَ شِعْرى بِكَ هل تعـ ... ـلَمُ أَنِّى لكَ عانِى
ولقـدْ أسرَرْتُه منْـ ... ـكَ وأَطلَعْتُ الأمانى
وتوهَّمْتُـكَ فى نَفْـ ... ـسى فناجاكَ لِسَانى
فاُجتمَعْنا واُفترَقْنا ... بالأَمانى فى مَكانِ

(١) هذه ، أى صبابة السابق ذكرها .
(٢) فى (ب) : « وصرمها » ؛ وهو تحريف . (٣) فى (ا) : « وعص » .
(٤) فى (ا) : « أنسا » ؛ وهو تصحيف . وأنشا ، أى أنشأ بالهمز .
(٥) عبارة (ا) : « الساهيق » ؛ وهو تحريف .
(٦) سوق العطش : محلة كبيرة كانت ببغداد بالجانب الشرقى بين الرصافة ونهر المعلّى ، وقيل: إن سوق العطش كانت بين باب الشماسية والرصافة .

ولوذَ كَرْتُ هٰذه الأطرابَ من المستمِعين ، والأغانيَّ من الرِّجال والصِّبْيان والجواري والحَرائر — لَطَال وأَملّ ، وزاحَمْتُ كلَّ من صَنّف كتاباً في الأغاني والألحان ، وعهدي[1] بهٰذا الحديثِ سنةَ ستّين وثلاثمائة .

وقد أحصَيْنا — ونحن جماعةٌ في الكَرْخِ — أربعمائةٍ وستّين جاريةً في الجانبَين[2] ، ومائةً وعشرين حُرّة ، وخمسةً وتسعين من الصِّبيان البُدُور ، يجمعون بين الحِذْق والحُسن والظَّرْف والعِشرة ، هـذا سِوَى مَن كنّا لا نَظْفَرُ به ولا نَصِلُ إليه لعِزّته وحرَسه ورُقبائه ، وسِوَى ما كُنّا نَسْمَعه ممَّنْ لا يتظاهر بالغِناءِ وبالضَّرْبِ إلا إذا نَشِط في وقت ، أو ثَمِلَ في حال ، وخَلَع العِذارَ في هَوًى قد حالَفَه وأَضناه ، وترنَّمَ وأَوْقَع ، وهَزَّ رأْسَه ، وصَعَّدَ أنفاسه ، وأَطرَب جُلاَّسَه ، واستَكتَمَهم حالَه ، وكشف عندَهم حِجابَه ، وادَّعَى الثّقةَ بهم ، والاستِنامَةَ إلى حِفاظِهم .

(٢) ثم إني أَرجعُ إلى مُنْقَطَع الكلام في الصَّفْحة الأولى من هذا الجزءِ الثالثِ وأَصِلُه بالدُّعاءِ الذي أَسألُ اللهَ أن يقبَله فيك ، ويحقّقَه لك وبك ، وأقول : وأَبقاكَ لي خاصّــةً ، فقد تَعَصَّبْتَ لي غائباً وشاهدا ، وتَعَمَّمْتَ[3] بسبَبي سرًّا وجهرا ، وبدأْتَ بالتّفضُّل ، وعُدْتَ بالإفضال ، وتظاهرتَ بالفَضْـل ؛ فإن استزدتُكَ فللنَّهم[4] الذي قلّما يخلو[5] منه بَشَر ، وإن تَظَلّمْتُ فللدّالّة التي تَغْلَطُ بها

(١) في كلتا النسختين « فلعهدي » واللام زيادة من الناسخ .

(٢) في (أ) : « الخلتين » ؛ وهو تحريف .

(٣) في (أ) : « وتنعمت بسنتي » ؛ وهو تحريف في كلا اللفظين . والمراد تعممت وتعصبت واحد ، إذ أن مأخذ اللفظين من العصابة والعمامة اللتين كانتا تلبسان في الحرب يعلم بهما الفارس نفسه بين الأقران . فتجوز في معنييهما واستعملا في انتصار المرء لصديقه ودفاعه عنه في الحرب وفي غيرها.

(٤) في نسخة : « فللشره » . والمعنى يستقيم عليه أيضا .

(٥) في (ب) : « يخلص » . والمعنى يستقيم عليه أيضا .

الخَدَم(١) ، وإن خاشَنْتُ(٢) فلِلثّقة بحُسْن الإجاب(٣) ، وإن غالظتُ(٤) فلِعلمى بغالبِ الحِلْم وفَرْطِ الأحتمال ، وما أُفترَقَ الكرمُ والتّغافُل قطّ ، وما أُفترَقَ المَجْدُ والكَيْسُ قطّ ، وليس إلاّ أَنْ يَظْلِمَ السَّيِّدُ نفسَه لعَبْدِه فى الحقوق اللاّزمة وغيرِ اللاّزمة ، ويُعرِضَ عن الحجّة وإن كانت له ؛ والناسُ يقولون : الحقّ مرّ ، وأنا أقول : السؤددُ مرّ ، والرّئاسةُ ثقيلة ، والنُّزولُ تحت الغَبْن شديد ؛ لكنّ ذلك كلَّه منْبتُ العِزّ ، ودليلٌ على صحّة الأصل ، وبابٌ إلى أُكتِساب الحمد ، وإشادةِ الذِّكر ، وإبعادِ الصِّيت ؛ ومُكرِمُ النّفْس بإهانة المال وبَذْل الجاهِ وإيثارِ(٥) التّواضُعِ أربَحُ تجارةً ، وأَحْمَى حريما ، وأعزُّ ناصراً مِن مُهِين النّفْس بصِيانة المال وحبْس الجاه وأُستِعمال التكبّر ؛ هذا ما لا يَشكّ فيه أحد وإن أَباهُ طِباعُه ، ولم يُساعِدْهُ أُختِيارُه ، وكان فى طينِه يُبْس ، وفى مَنْبِتِه شَوْك ، وفى عِرْقه حَوَر ، وفى خُلُقه تيه .

وقد رأيتُ ناساً من عُظماءِ أهْل الفَضل والمُروءة عابوا مذهَبَ الرَّجُلِ الذى ماكَسَ فى شىء تافهٍ يسيرٍ أُشتراه . فقيل له : أنت تَهَبُ أَضعاف هذا ، [فما هذا المِكاس] ؟ ! فقال : هذا عقْلى أبْخَل به ، وتلك مُروءتى أَجود بها .

وأكثرُ الناس الذين لم يَغُوروا فى التّجارب ، ولا أَنجَدُوا(٦) فى الحقائق ، يرَوْن هذا حكمةً تامّة ، وفضيلةً شريفة .

---

(١) فى (ا) : « يغلظ بها الحزم » . ولهذه العبارة معنى غير مستبعد ، غير أن ما أثبتناه فى صلب الكتاب أظهر وأشهر . (٢) فى (ا) : « حاسبت » . وفى (ب) : « حاشيت » ؛ وهو تصحيف فى كلتا النسختين إذ لا معنى لكلا اللفظين يناسب السياق . ولعل الصواب ما أثبتنا . (٣) الإجاب (بهمز الجيم) : الإجابة .

(٤) فى كلتا النسختين : « غالطت » بالطاء المهملة ؛ وهو تصحيف .

(٥) فى (ا) : « وإتيان » . (٦) فى (ا) : « ولا اتحدوا » ؛ ووردت هذه الكلمة فى (ب) مطموسة الحروف يتعذر قراءتها ؛ وسياق الكلام يقتضى ما أثبتنا .

فأمّا الذين ذكرتَهم فى أوّل الحديث فإنهم قالوا : لا تتمُّ المُروءةُ وصاحبُها يَنْظُر فى الدَّقيق الحقير ، ويُعيدُ القولَ ويُبدئُه فى الشيء النَّزْر[١] الذى لا مَرَدَّ له ظاهر ، ولا جَدْوَى حاضرة .

وذَكروا أيضاً أنَّ العقلَ أشرفُ من أن يُذالَ[٢] فى مِثلِ هٰـذه الحال ، ويُستخدَم على هذا الوجه ، قالوا : هٰـذا وما هو فى بابه بالكَيْس أشبَه ، والكَيْس يُحمَد فى الصِّبْيان ، وهو من مبادِئِ اللّؤم ، ومَوائح صدَإِ الخُلُق ، وقد قال الأوّل :

وقد يَتَغابَى المَرْءُ عن عُظْمِ مالِه ومن تَحْت بُرْدَيْهِ المُغيرةُ أو عَمْرُو[٣]

ولذلك يقال للحيوان الذى لا يَنْطِق : هو كَيِّس .

هٰذا والله الصِّدق ، فإنى سمعتُ بمكةَ أَعرابيًّا يقول : ما أَكْيَسَ هٰـذا القِطَّ[٤] ؟!

قالوا : ولذلك لا يقال للشَّيْخ المجرِّب والحكيمِ البليغِ والأصيل فى الشَّرف والمشهورِ بالزَّماتةِ[٥] والسَّكينة : كَيِّس . والكَيْس هو حدّةُ الحِسّ فى طلب المَنالة ودَفعِ الكَريهة وبلوغ[٦] الشَّهوة . والحِسُّ بعيدٌ من العقْل ، والعالِى فى الحِسِّ كأَنّه يرْتقى فى وادى الحيوان الذى لا نُطْق له[٧] ، والعالِى فى العَقْلِ

(١) فى (ا) : « المتردد » ؛ وهو تحريف .

(٢) فى (ا) : « يدال » بالمهملة ؛ وهو تصحيف .

(٣) يريد المغيرة بن شعبة وعمرو بن العاص ؛ ويشير إلى ما كانا يعرفان به من الدهاء والذكاء . وفى (ا) : ابن عمرو ؛ وهو تحريف .

(٤) فى (ا) : القفط ؛ وهو تصحيف .

(٥) فى (ا) : بالرماية ؛ وهو تصحيف . وفى (ب) : بالديانة ؛ وما أثبتناه أنسب بقوله بعد : والسكينة .

(٦) فى (ب) : واتباع .

(٧) فى (ا) : الذى يطق له ؛ وهو تحريف لا يستقيم به المعنى .

كأنَّه مطمئنٌّ فى وادى المَلَك الذى لا حِسَّ له ، والمَلَكُ لم يَعْدَم الحِسَّ لنقصه ، ولكن لكماله ، لأنَّه غنىّ عنه ، كما أنّ الحمارَ لم يَعْدَم العَقْل لكماله ، ولكن لنَقْصِه [ولما لم يُرِدَ من الحمار أن يكون إنساناً جُبِل على ما هو له وبه كاملٌ فى نَقْصه ، أى هو كاملٌ بما هو به حمار وناقص بما ليس هو به إنسانا] ؛ ولما لم يُرِدْ من الإنسان أن يكون حماراً حُفِظ عليه ما هو به إنسان ، ودُرِّج إلى كمال المَلَك الذى هو به شبيه ؛ وهٰـذا التدريج طريقُه على الاختيار [الجيِّد] والتوفيق السابق .

وبَعُدْتُ — جعلنى الله فداك — عن مَنْهج القَوْل وسَنَن[١] الحديث ، وأَطَعْتُ داعيةَ الوَسْواس ، وذَهَبْتُ مع سانِح الوَهْم ؛ وقد قيل : « الحديثُ ذُو شُجون » .

وقد قال الأوّلُ :

ولمّا قَضَيْنَا من مِنًى كلَّ حاجَةٍ	ومَسَّحَ بالأركانِ مَنْ هُوَ ماسحُ
أَخَذْنَا بأَطْرافِ الأحاديثِ بيْنَنَا	وسَالَتْ بأَعْنَاقِ المَطِيِّ الأباطح

فأَرْجِعُ [وأقول] :

قد أَوْصَلْتُ إليكَ الجزأين الأوّلَ والثانىَ على يد غلامك فائق ؛ وهـذا الجزء — وهو الثالث — قد والله نَفَثْتُ[٢] فيه كلَّ ما كان فى نفسى من جِدٍّ وهزلٍ ، وغَثٍّ وسمين ، وشاحِبٍ ونَضِير ، وفُكاهَةٍ وطيب ، وأدبٍ واحتجاج ، واُعتذارٍ واُعتِلال واُستدلال ، وأشياءَ من طَرِيف[٣] المُمالحَة على ما رُسِمَ لى ،

(١) فى (ا) : «عن سنن» ؛ وقوله : «عن» زيادة من الناسخ ؛ والصواب ما أثبتنا .
(٢) فى (ا) : « بقيت » ؛ وهو تصحيف .
(٣) فى نسخة : « من حديث » .

وطُلِبَ مِنِّي ؛ ولأنَّه آخِرُ الكتاب خَتَمْتُه برسالة وَصَلْتُها بكلامٍ في خاصِّ أمْرِي ستقف عليه ، وتستأنف نَظَراً في حالي ، يكون — إنْ شاء اللهُ — كَظَنِّي بك ، ورجائي فيك ؛ وفيه بعض العَرْبَدَة[1] لم أخرُج منه إلى كفرانٍ لنعمة ، ولا جَحْدٍ لإحسان ، ولا سَتْرٍ ليَدٍ ، ولا إنكارٍ لمعروف ، ولا شَكٍّ في عِناية ؛ وإنما تكلمت على مَذْهَب المُدِلِّ المُقِلِّ الذى يَبْعَثُه إقلالُه على تجاوُزِ قَدْرِه بالدّالة ، ويَرِيعُ[2] به إدْلالُه عن حُسْن أدَبِه بفَرْطِ الثِّقة ؛ ورُبَّ واثقٍ خَجِلٍ ؛ وبالله المَعاذُ مِن ذٰلك ، وفى الحالين صاحبُ هٰذا المَذْهَبِ لا يَخْلُو مِنْ وَلاءٍ صحيحِ المُعْتَقَب ، وعقيدةٍ كسبيكةِ الذَّهَب ؛ وأنتَ بِكَرَمِ[3] طِباعِك ، وسَعَةِ باعِك ، تَجبُر نَقْصِي ، وتَأسُو ما غَثَّ[4] مِنْ جراحي ، وأماتَ اهتمامي ؛ ومَنْ كان إحْسانُكَ إليه مَشْكُورا ، وتَعْذِيرُك[5] عنده مَسْتُورا ، لَخَلِيقٌ أنْ يَكُونَ على بالِك خاطِرا ، وبلِسانِكَ مذكورا ، والسلام .

وها أنا آخُذُ فى نَشْرِ ما جَرَى على وَجْهِه إلاّ ما اقتَضَى من الزِّيادة فى الإبانة والتَّقْرِيب ، والشَّرْحِ والتَّكْشِيف .

وقد جَمَعْتُ لك جميعَ ما شاهَدْتُه فى هٰذه المدّة الطويلة ، ليكونَ حَظّكَ من الكَرَم والمَجْد مَوْفُورا ، ونصيبى من اهتمامِك بأمْرِى وجَذْبِكَ بباعى

(١) فى (ا) : « العرودة » ؛ وهو تحريف .

(٢) يريع ، أى يرجع . وفى (ا) : « ويروع » ؛ ولا معنى له يناسب السياق .

(٣) فى (ا) : « تكثر من » ؛ وهو تحريف .

(٤) فى (ا) : « ماغب » ؛ وهو تصحيف . وغث الجرح ، أى سال غثيثه ، وهو مدته وقيحه .

(٥) وردت هذه الكلمة فى (ا) مهملة الحروف من النقط . ووردت فى (ب) : « وتقديرك » . وما أثبتناه هو مقتضى السياق . والتعذير : التقصير .

وإنقاذكَ إيّاىَ مِنْ أسْرِى تامًّا ، فَظَنِّى واعِدٌ بأنّكَ تبْلُغ بى ما آمُلُه فيك وتَتَجاوَزُه وتتَطاوَلُ إلى ما فَوْقَه ، لأزْدادَ عَجبًا ممّا خَصَّكَ اللهُ به ، وأفرَدَكَ فيه ؛ وأتحدَّثَ على مرِّ الأيّام بغريبه ، وأحُثَّ كلَّ مَنْ أراه بعْدَكَ على سُلوكِ طَرِيقك فى الخير ، ولُزُومِ مِنهاجِك فى الجَميل ، والدَّيْنونَةِ بمذْهَبك المستقيم ، وأُكايدَ أصْحَابَنا ببَغداد ؛ وأقول [لهم] : هل كان فى حُسْبانكم أنْ يَطْلُع عليكم مِن المَشْرِق من يَزيد[1] طَرْفُه على طَرْفِكم ، «ويَبْعُدُ[2] بعلْمه على عِلْمِكم» ، ويُبَرِّزُ هذا التَّبْريز فى كلّ شىء تفخَرون[3] به على غَيْرِكم ، فأناظِرُهم فيك وبِسَبَبك[4] ، لا مُناظَرةَ الحَنْبَليِّينَ مع الطَّبَرِيِّين ؛ وأتعَصَّبُ لك ، لا تعَصُّبَ المُفَضَّلِيِّينَ[5] والبُرْغُوثيِّين[5] ؛ وأُجادِلُ من أجْلِك ، لا جَدَلَ الزَّيْدِيِّينَ[6] معَ الإمَامِيِّين[6] ؛ وأدَّعى فى فضائلك الظَّاهِرَةِ والباطِنَة دَعْوَى أقْوَى مِنْ دَعْوَى الشِّيعِيِّين ، وأضْرِبُ فى ذلك كلَّ مَثَل ، وأستعينُ بكلِّ سَجْع ،

---

(١) فى (ا) : « يرتد طرفه على طرفكم » ؛ وهو تصحيف فى هذه الكلمات الثلاث .

(٢) كذا وردت هذه العبارة التى بين هاتين العلامتين فى (ا) والمعنى عليها مستقيم . والذى فى (ب) : « ويفقد بعلمه فى علمكم » ؛ وفى قوله : « ويفقد » بالقاف والدال تصحيف ظاهر صوابه : « ويبعد » . (٣) فى (ب) : « تحرون » ؛ وهو تحريف .

(٤) فى كلتا النسختين : « وبسدك » ؛ وهو تصحيف .

(٥) المفضليون فرقة تنسب إلى المفضل بن عمرو من الشيعة الامامية يقولون بأن الإمامة بعد موسى بن جعفر قد انتقلت إلى ابنه محمد بن موسى . والمفضليون أيضاً فرقة أخرى تنسب إلى المفضل الصيرفى ، وهذا قد قال : إن جعفر بن محمد إله ؛ فطرده ولعنه . والبرغوثيون فرقة من النجارية أصحاب محمد بن الحسين النجار والبرغوثية هذه تنسب إلى محمد بن عيسى الملقب ببرغوث . والذى فى كلتا النسختين والمرعوشيين وهو تحريف صوابه ما أثبتنا انظر (الملل والنحل) (وخبيئة الأكوان) (ومعالم الدين) .

(٦) الزيديون أصحاب زيد بن على بن الحسين رضى الله تعالى عنهم وهذه الفرقة تقول : إن الإمامة لأولاد فاطمة لا يشاركهم فيها أحد ولا يسوّغون إمامة غيرهم . والإمامية فرقة من الشيعة تقول إن الإمامة لعلى بن أبى طالب بعد محمد صلى الله عليه وسلم نصا وتصريحا وإشارة إليه بالعين .

وأَرْوِى كلَّ خَبَر ، وأنْشِدُ كلَّ بَيْت ، وأُعبِّر كلَّ رُؤْيا ، وأقيمُ كلَّ بُرْهان ، وأستشهدُ كلَّ حاضِرٍ وغائب ، وأتأوّلُ كلَّ مُشْكِل وغامِض ، وأضيفُ إليك الآيةَ بعدَ الآية ، والمُعجزةَ بعد المُعجزة ، وأَنْصَلِتُ(١) لكلِّ ضريبة ، وأَدَّعِى كلَّ غريبة ؛ هذا ولا أخلط كلامى بالهَزْل ، ولا أَشِينُ دَعْوايَ بالمُحال ، ولا أُبْعِدُ الشاهد ، ولا أتعلّقُ بالمُسْتَعْجِم ، ولا أَجْنَحُ إلى التّلفيق والتَّلْزِيق ؛ وكيف لا أفعلُ هٰذا ولِى فى قَوْلِ الحقِّ فيك مَنْدُوحة ، وفى تَقْدِيمِ الصِّدْقِ على غيره كفاية ، وفى نَشْرِ المَطْوِىِّ مِنْ فَضْلِكَ بَلاغ ؟ وإنّما يَمِيلُ إلى الكَذِبِ مَن قَعَدَ به الصِّدق ، ويَتَيمَّمُ بالصَّعيد مَن فاتَه الماء ، ويَحْلُم بالمُنَى مَنْ عَدِمَ المُتَمَنَّى فى اليَقَظة ؛ فأمّا أنت وقد أَلْبَسَك اللهُ رِداءَ الفضل ، وأَطْلَعَكَ مِنْ مَنْبِتٍ كريم ، ودَرَّجَك مِنْ بَيْتٍ ضَخْم ، وآتاكَ الحكمة ، وفَتَقَ لسانَكَ بالبيان ، وأَتْرَعَ(٢) صَدْرَكَ بالعِلم ، وخَلَطَ أخلاقَكَ بالدَّماثة ، وشَهَرَكَ بالكَرَم ، وخَفَّف عليك النُّهوضَ بكلِّ ما يُكْسِبُكَ الشكرَ مِن القريبِ والبَعيد ، وبكلِّ ما يَدَّخِرُ لك الأجرَ عند الصادرِ والوارِد ، حتّى صِرْتَ كهْفاً لأَبْناءِ الرَّجاء ، ومَفْزَعًا لبَنى الآمال ؛ فبابُك مَغْشِيٌّ مَزُور ، وفِناؤكَ مُنْتاب وخِوانُكَ(٣) مَحْضور ، وعِلْمُك مُقْتَبَس ، وجاهُك مَبْذول ، وضيفُك مُحَدَّث ، وكُتُبُك مستعارة ، وغَداؤكَ حاضر ، وعَشاؤكَ مُعَجَّل ، ووجهُك مبسوط ، وعفوُك محمود ، وجِدُّكَ مشكور ، وكلُّ أَمْرِكَ قائمٌ على النّهاية ، وبالغٌ الغاية ، والله يَزِيدُكَ ويَزِيدُنا بك ، ولا يَبْتَلينا بفَقْدِ ما أَلِفْناه منْك ، بمَنِّه وجُودِه .

---

(١) فى (ا) : « واتصلت » ؛ وهو تصحيف .
(٢) فى (ا) : « ودع » ؛ وهو تحريف .
(٣) فى (ا) : « وجوابك » ؛ وهو تصحيف .

الليلة التاسعة والعشرون

(١) قال الوزير — أعزّ الله نصره[١] ، وأطاب ذكره ، وأطار صيته — ليلة : أحبُّ أن أسمع كلاماً فى قول الله عزّ وجلّ : (هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ) ، فإنّ هذا الإيجاز لم يعهد فى كلام البشر .

فكان من الجواب : إنّ الإشارة فى « الأوّل » إلى ما بدأ الله به من الإبداع [والتصوير] ، والإبراز والتكوين ؛ والإشارة فى « الآخِر » إلى المصير إليه فى[٢] العاقبة على ما يجب فى الحكمة من الإنشاء والتصريف ، والإنعام والتعريف ، والهداية والتوقيف . وقد بان بالاعتبار[٣] الصحيح أنّه عزّ وجلّ لمّا كان محجَّباً عن الأبصار ، ظهرت آثاره فى صفحات العالم وأجزائه ، وحَواشيه وأثنائه[٤] ، حتى يكون لسانُ الآثار داعياً إلى معرفته ، ومعرفتُه طريقاً إلى[٥] قصده ، وقصدُه سبباً للمكانة عنده والحُظْوة لديه . على أنّه فى احتجابه بارز ، كما أنّه فى بروزه محتجِب ؛ وبيانُ هذا أنّ الحجابَ من ناحية الحِسّ ، والبُروزَ من ناحية العقل ، [فإذا طُلب من جهة الحسّ وُجِد محجوبا ، وإذا لُحِظ من جهة العقل] وُجِدَ بارزا ، وهاتان الجهتان ليستا له تعالى ، ولكنهما الإنسان الذى له الحسُّ والعقل ، فصارَ بهما كالناظر من مكانين ؛ ومَنْ نظَرَ إلى شىء واحدٍ من مكانين كانت نسبتُه إلى المنظور إليه مفترقة .

---

(١) فى (ا) : « رهطه » .
(٢) فى (ا) : « والعاقبة » ؛ وهو تحريف .
(٣) فى (ا) : « الاعتبار » بسقوط الباء ؛ وهو تحريف .
(٤) فى (ا) : « وأثباته » ؛ وهو تصحيف .
(٥) فى (ا) : « فى » مكان « إلى » ؛ وهو تحريف .

وإنما شَقَّ هٰذا الأمرُ على أكثر الناس واختلفوا فيه ، لأنّهم راموا تحقيقَ ما لا يُحَسُّ بالحِسّ ، ولو رامُوا ذاك بالعقل المَحْضِ بغيرِ شَوْبٍ من الحِسّ ، لكان المَرُوم يَسْبِقُ الرّائم ، والمَطلوبُ يلوحُ قُبالةَ الطّالب مِنْ غيرِ شكٍّ [لابِس ، ولا ريبٍ مُوحِش ، لأنه ليس فى العقل والمعقول شكٌّ] . وإنما الرَّيْبُ والشّكُّ والظّنُّ والتّوَهُّمُ كلّها من علائق الحِسّ وتَوابِع الخِلْقَة ، ولولا هٰذه العوارِضُ لمَا أُغْشِىَ وَجْهُ العقل ، ولا عَلاهُ شُحوب ، ولَبَقِىَ على نَضْرَتِه وجَمالِه[1] وحُسْنِه وبَهْجَتِه . ولمّا كان الإنسان مَغيضَ[2] هٰذه الأعراض فى الأوّل ، صار مَغيضَ[2] هٰذه الأحوالِ فى الثانى ، فاستعارَ مِنَ العقل نُورَه فى وَصْفِ الأشياء الجسْمِيَّة جَهْلاً منه وخطأً ، واستعارَ مِن ظلام الحِسّ فى وَصْفِ الأشياء الرُّوحانيّةِ عَجْزًا منه ونقصا ، ولو وُفِّقَ لَوَضَعَ كلَّ شىء مَوْضِعَه ونَسَبَه إلى شَكْلِه ، ولم يَرْفَع الوَضيعَ إلى مَحَلِّ الرَّفيع ، ولم يَضَع الرَّفيعَ فى مَوْضِعِ الوَضيع .

فلمّا بلغ الحديث هذا الحدّ ، عَجِب الوزيرُ وقال : ما أَعذَبَ هذا المَوْرِد ! وما أَعْجَبَ هذا المَشْهَد ! وما أَبْعَدَ هذا المَقْصِد ! وما أَرَى لمُصَنِّفٍ[3] من المُوَحِّدين مُتَصرَّفاً فى هذا النَّوْع إلاّ لهذه العِصابةِ الكريمةِ المخصوصةِ باليقظة[4] .

وسأل عن جُشَمَ فى اسمِ الرَّجل ما مَعْناه ؟

فكان من الجواب : إنَّ أبا سعيد السِّيرافىَّ الإمامَ ذكَر عن ابن الأعرابىِّ أنّه يقال : « رجُلٌ عظيمُ الجُشَم » ، يعنى وَسَطَه ، ومنه سُمِّىَ جُشَم .

(١) فى (ا) : « وكماله » .
(٢) مغيض بفتح الميم فى الموضعين أى موضع غيض هذه الأعراض وتلك الأحوال .
(٣) فى (ا) : « لمصنف » ؛ وهو تحريف .
(٤) فى (ا) : « بالثقة » .

وقال : ما الحِمْحِم ؟ وما الخمخم[١] ؟ فقيل أما الحِمْحمُ فبَقْلٌ يهيج فى أوّل الصيف ويَنبتُ فيؤكل فى ذلك الوقت ؛ وأما الخِمخِم فبَقْلٌ آخرُ خبيثٌ مُنْتِنُ الرِّيح[١] .

وقال : فأرَة المِسْك ، أنَقُولُها بالهَمز ؟

فكان من الجواب : حكاه ابْنُ الأعرابىّ بالهمز .

قال : عارِضَا الرَّجُل ما يُعنَى بهما ؟

قيل : قال أبو سعيد السِّيرافىّ : هما شَعرُ خَدّيه ، ولو قلت [لأمْرَد] : اِمسَحْ عارِضَيْك كان خطأ .

وقال : سمعتُ اليومَ فى كلام ابن عُبَيد : لاَئَه ، وظننت أنّه أراد : لاوَثه من اللَّوْث [لَوْث] العمامة .

فقيل : بل يقال : لايَثَه إذا تَشَبّه باللّيث .

وقال : ما الشاكِد ؟

فقيل : المُعْطِى من غير مكافأة .

قال : أوَتَهْمِز الكلمة[٢] ؟

---

(١) كذا ذكر المؤلف فى تفسير هذين اللفظين . وقال أبو حنيفة : الحمحم والخمخم واحد . وقال ابن البيطار فى الخمخم بالخاء المعجمة . هو اسم عربى لنبات شكله شكل الأنجرة السوداء إلا أنه أشد خضرة منها وأغصانه حمر كأغصانها إلا أنها أصلب . ومنابته الوديان والمسايل وعليه شوك دقيق لصاق بكل ما يعلق به من ثوب أو غيره ولا يؤذى اللامس وكثيراً ما تنبت هذه النبتة بظاهر القاهرة تحت الجبل الأحمر فى مسيل هناك بالقرب من قلعة الجبل . وذكر فى الحمحم بالمهملتين . أنه هو النبات المعروف بلسان الثور عند أهل الشام وديار بكر . وقال فى التعريف بلسان الثور إنه نبات خشن أسود ، يشبه فى شكله ألسنة البقر . وذكر فى الحمحم أنه سمعهم ينطقونه بضم المهملتين . وفى نسخة : «ما الجمجم» بجيمين مكان الحمحم بحاءين مهملتين . والجمجم بجيمين عروق تشبه فى شكلها ومقدارها عروق الجزر البرى المسمى عند أهل الشام الشقاقل .

(٢) يريد بالكلمة : المكافأة .

فقيل : إنى لو لم أَهْمِز لكان مُفاعَلةً من كَفَيْتُ .

قال : والثانية[1] ؟ تكونُ من كَفَأْتُ الإناء . فما معناه ؟

قيل : قال أبو سعيد : كأَنَّه قَلَبَ الحالَ إليه بالمِثل .

قال : الذَّوْدُ ، ما قَدْر عَدَدِه من الإبل ؟ فكان من الجواب : أَنَّ ابنَ الأعْرابىّ قال : الذَّوْدُ ما بَيْنَ الثَّلاثَةِ إلى العَشَرة . وإذا بَلَغَت العشْرينَ أو قَارَبَت فهى قِطْعَةٌ وصُبَّةٌ وفِرْقَةٌ وصِرْمَةٌ حتى تَبْلغَ الثلاثِينَ والأَرْبَعين . ثم هى حُذْرة وعَكَرة وعَجْرَمَة حتى تَبْلُغَ مائة . ثمّ هُنَيْدَة . وإذا بلغت مائتين فهى خِطْر[2] . وكذلك الثَّلاثمائة . وإذا بلغت أربعمائة فهى عَرْجٌ إلى الأَلْف ، والجَماعةُ عُرُوج . وإذا كَثُرَتْ عن الأَرْبَعين والخَمْسين وبَلَغَتْ مائةً وزادَتْ فهىَ جُرْجُور ، وإنّما سُمّيَتْ جُرْجُورًا لجَراجِرِها وأَصْواتِها . وقد تَسْتَعِيرُ العَرَبُ بعضَ هذا فتجعلُه فى بعض .

وقال : ما الفَرْقُ بين القَبْصِ والقَبْض ؟ فقيل : القَبْصُ لعَدَدٍ مّا كانَ قليلا أَوْ كثيراً ؛ قال ابنُ الأعرابى : وأَنشَدَنى العامِرىُّ لابن مَيّادة

عَطاؤُكُمْ قَبْصٌ ويحفِنُ غَيْرُكُمْ ... ولَلْحَفْنُ أَغْنَى للفَقِيرِ من القَبْصِ

وقال : القَبْصُ بأَطْرافِ الأصابع ، والقَبْضُ بالكَفّ ، والحَفْنُ بالكفّ والرّاحةُ إلى فوق مفتوحةٌ قليلا . هذا لفظه .

وقال : الإلُّ الذى هو العَهْد هل يُجْمَع ؟ فقيل : حَكَى ابنُ الأعرابىّ فى

---

(١) ورد فى كلتا النسختين قوله فقيل بعد قوله والثانية ؛ وهى زيادة من الناسخ لا مقتضى لها هنا .

(٢) فى (أ) « حظرة » . وفى (ب) « حطم » ؛ وهو تحريف فى كلتا النسختين .

جَمْعِه ، فقال : إلالٌ وأُلول[١] .

وقال : آمَ الرجل ماذا ؟ فقيل : هذا على وجوه ؛ يقال : آمَ الرَّجُلُ يَؤُومُ أُواماً مِنَ العَطَش ؛ ويقال آمَ الرَّجُل يَؤُوم إيَاما[٢] ، وهو الدُّخان . وآمَ الرَّجُلُ يئيم إذا بَقِيَ بغير حليلة ، والأيِّم مستعمَلٌ فى الرَّجل والمَرْأة .

قال : هذا نَمَط مفيد ، ويجب أَنْ يُجْمَعَ منه جُزْءٌ أو جُزْآنِ لِيَسْهلَ على الطَّرْفِ المَجَالُ فيه ، فإن الكُتُبَ الطِّوالَ مُسْئِمة ، وإذا تَداخَلَ اللَّطيف بالكثيف وما رَقَّ بما غلُظَ نَبَتِ النَّفْسُ ، ودَبَّ المَلَل[٣] والإنسانُ كَسَله مِنْ طِينِه ، ونَشاطُه مِنْ نَفْسِه ، والطِّينُ أغْلَبُ مِنَ النَّفْسِ .

فكان الجواب : السَّمْعُ والطاعةُ للأمْرِ المُشَرِّف .

قال : هاتِ حديثا يكون مَقْطَعاً للوَداع ، فإنَّ اللَّيلَ قد عَبَسَ وَجْهُه ، وجَنَح كاهِلُه ، وأهْدَى إلى العَيْنِ سِنةً تسْرِقُ الذِّهن وتسْبِي الرَّأْى .

فكان من الجواب أنه مَرَّ بى اليوم حديثٌ تُضارِعُ ما جَرَى مُنْذُ ليالٍ فى فسادِ الناس وحُؤُول الزَّمان ، وما دَهِمَ الخاصّ والعامَّ فى حَديث الدِّين الّذى هو العَمُودُ والدِّعامَةُ فى عِمارة الدَّارَيْن . وقد طال تعجُّبِى منه ، وصحَّ عندى أنَّ الداء فى هذا قديم ، والوجعَ فيه أليم .

(١) لم نجد الألول جمعا للإلّ بمعنى ما هنا فيما راجعناه من كتب اللغة والذى وجدناه إلال كما هنا وآلال .

(٢) الإيام بالياء بمعنى الدخان أصله الواو ، ثم قلبت الواو ياء كما فى كتب اللغة .

(٣) فى (أ) « ورث الحال » ؛ وهو تحريف فى كلتا الكلمتين .

قال : فهات فتشبيبُكَ[1] قد رَغَّبَ شديداً، وغَرامُكَ[2] قد بَعَثَ[3] جديداً .

وكان [من ذلك] الحديثِ أنّ محمد بن سلاّم قال فيما حَدَّثنا به أبو السائب القاضي عُتْبَةُ بنُ عُبيْدِ الله قال : حدّثنا السّكّريّ أبو سعيد قال : قال محمد بن سلاَّم : سمعتُ يونسَ يقول : فكّرتُ في أمْرٍ فاسمَعوه . قلنا : هاتِه . قال : كلُّ من أصبح على وَجْهِ الارضِ مِن أهْلِ النار إلاّ أُمَّتَنا[4] هذه ؛ والسلطان ومن يُطيف به هَلْكَى إلا قليلا ، فإذا قَطَعْتَ هذه الطَّبقَةَ حتى تبلغ الشّأْمَ فأكَلةُ رِباً وباغيَةٌ وشَرَبةُ خَمْرٍ وباعتُها إلاّ قليلا ، فإذا خَلَّفْتَ هذا الرَّمْلَ حتى تأتيَ رَمْلَ يَبْرِينَ وأعلام الرُّوم فلا غسلَ من جَنابة ، ولا إسباغَ وُضوء ، ولا إتمامَ صَلاة ، ولا عِلْمَ بحُدُود ما أنزل الله على رسولِه صلّى الله عليه وسلم إلاّ قليلا ؛ فإذا صِرْتَ إلى الأمصار فأصحابُ هذه الكراسيِّ ليس منهم إلا دئبٌ مُسْتَغِرٌّ[5] بدِينه، يَحْتالُكَ[6] عن دينارِكَ ودِرْهَمِك ، يَكْذِبُ ، ويَبخَسُ في الميزان ، ويطفِّفُ في المِكْيال ، إلا قليلا ؛ فإذا صِرْتَ إلى أصحاب الغَلاّت الّذين كُفُوا المَؤُونة وأُنعِمَ عليهمْ [وَجَدْتَهُمْ] يُمْسِي أحدهم سكرانَ ويُصْبِحُ مخموراً ، إلاّ قليلا ، ومعي والله منهم[7] وَطِيءٌ في الدار ، فإذا صِرْتَ إلى قوم لم يُنْعَم عليهم بما أُنْعِم

(١) في (ب) « فنسيبك » ؛ والمعنى يستقيم عليه أيضاً .

(٢) في كلتا النسختين : « وعرامك » بالباء ؛ وهو تحريف .

(٣) قد بعث جديداً ، أي بعث غراما جديدا في نفسي . والذي في (أ) : « بعث » . ووردت هذه الكلمة في (ب) مهملة الحروف من النقط . والصواب ما أثبتنا كما يقتضيه السياق .

(٤) يريد بالأمة هنا أهل طبقته كما يدل على ذلك سياق القصة .

(٥) مستغر أي يطلب غرة الناس وغفلتهم .

(٦) في (أ) « يحيلك » ؛ وهو تصحيف .

(٧) في (أ) « فيهم » ؛ وهو تحريف .

على هؤلاء ، وهم يشتهون ما يَشْتَهِى هؤلاء ، فواحدٌ لِصّ ، وآخر طَرّار[١] ، وآخرُ مستقْفٍ[٢] إلاّ قليلا ، فإذا صِرْتَ إلى أصحابِ هٰذه السَّوارى[٣] ، فهذا يَشْهَد على هذا بالكُفْر ، وهذا يَبرأُ مِن هذا ، واللهِ لَئن لَم يَعمَّنا اللهُ بِرَحْمَتِه إنها لَلفَضيحة .

فقال الوزير : لقد شَرَّدْتَ النومَ عن عَيْنِي ، وملأْتَ قلبى عَجَباً ، وإنّ الأمرَ لَكمَا قال ، وإذا كان هذا قولَه فى عَصرِه ، وشجرةُ الدين على نَضارَة أغصانها وخُضرةِ أوراقِها ، ويَنْعِ ثِمَارِها ، فما قوله — ترى — فينا لو لَحِقَنا ، وأَدْرَكَ زمانَنَا ، إنّا لله وإنّا إليه راجعون .

الليلة الثلاثون[٤]

وقال الوزير — [أدام اللهُ أيّامَه] — : سراويل يُذَكّرُ أم يُؤنّث ، ويُصْرَفُ أمْ لاَ ؟

فكان الجواب : أنّ عليّ بن عيسى حدّثنا عن شيخِه ابنِ السّراجِ قال : سألت المبرّد فقلتُ : إذا كان الواحدُ فى صِيغة الجَمْع ما يُمْنَع [به] فى الصَّرْفِ

(١) فى كلتا النسختين « طرار » بالراى المعجمة فى آخره ؛ وهو تصحيف صوابه ما أثبتنا والطرار بمهملتين هو الذى يشق كمّ الرجل ويستلّ ما فيه ، وهو المعروف عندنا بالنشال .

(٢) يقال : استقفاه إذا جاء من خلفه وضربه بالعصا على قفاه ويشير إلى هؤلاء الذين يقفون فى الطرق المنقطعة حتى إذا مر بهم من يظنون معه مالا ضربوه من خلفه بالعصا على قفاه حتى يفقد الحسّ والشعور فيستلون ما معه ويهربون ؛ أو لعل صوابه مستحف بالحاء .

(٣) يريد سوارى المسجد وعمده . ويريد بأصحابها العلماء الذين يجلسون إلى جانبها يقرأون العلم على الناس .

(٤) يلاحظ أنه لم يرد فى كلتا النسختين ما يشير إلى أنه ابتدأ ليلة جديدة بعد الكلام السابق لهذا العنوان . وقد رأينا أن الكلام الآتى بعد إنما وقع فى ليلة جديدة غير السابقة بدليل قوله فيما تقدم : « هات حديثا يكون مقطعا للوداع » الخ .

فى مثل شَعْرُه[١] هَرَاميل [وهذه] سَراويل وما أَشْبَهه ، فقال : أَلْحِقْه بالجمْع فامنَعْه الصَّرْفَ ، لأنه مِثْله وشَبِيهُه .

قال : وسألْتُ أحمَدَ بنَ يَحيى عن ذلك ، فقال : أَخْبَرنا سَلَمَةُ عن الفرَّاء قال : أَلحِقْه بأحمَد فامنَعْه الصَّرْفَ فى المَعْرِفة ، واصرِفه فى النَّكِرَة حتَّى يكون بين الواحدِ والْجَمْع فرْق .

وسأل فقال : ما واحد المناحِيب والمناجِيب وما حُكْمُهما ؟

فكان من الجواب : واحد المناحيب مِنْحاب ، يُمدح به ويُذَمّ ، فإذا كان مَدْحًا فهو مَأخُوذ من النَّحْب[٢] ، وهو الاختيار ، وإذا كان ذَمًّا فهو مَأخُوذ من النَّخْبَة ، وهى الاست قال : وهكذا المِنْجابُ يكون مَدْحا وذَمًّا ، فإذا كان مَدْحًا فهو مأخوذ من الانتجاب ، وهو الاختيار ، وإذا كان ذَمًّا فهو مَأخوذ من النَّجب ، وهو قِشْرُ الشَّجَر .

قال : ما معنى قولِهم : امرأةٌ عَروبٌ ؟

فكان من الجواب أن محمّد بنَ يزيد قال — على ما حدّثنا به أبو سعيد وابن السراج عنه — إنه من الأضداد ، وهى المتحبِّبة إلى زوجها ؛ وهى الفاسدة ، مأخوذ مِن قولهم : عَرِبَتْ مَعِدَتُه إذا فَسَدَتْ .

وقال : الصّهْباء يُمَدُّ ويُقْصَرُ ؟

فكان من الجواب أن ابنَ الأعرابىّ قال : الّذى حَصَّلْتُه عن الأعْراب

---

(١) فى (ب) « صيغة » ؛ وهو تحريف . ويقال : شعره هراميل ، إذا سقط .

(٢) فى الأصل : من النخبة ، وهى الاختيار ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما فى كتب اللغة إذ النخبة من القوم الجماعة المختارة ، لا نفس الاختيار .

أنَّ الصَّهْيَاء المَمْدُودةَ هى التى لا تَحِيض[١] ، وأن المقصورةَ هى الياسَمِين[٢] ؛
وجَمْعُ الأوّل صُهْىٌ وجَمْعُ المَقْصُور صَهَايَا[٣] .

قال : ما مَعْنَى المَنْدَلِىّ المطيَّر ؟

فكان من الجواب : أن ابن الأعرابىّ قال : هو مقلوب المُطَرَّى[٤] .

(٢) وقال : أَنْشِدْنِى غزلاً ، فأنْشَدْتُه ما حَضر فى الوَقْت لأعْرابىّ :

أَمُرُّ مُجَنَّبًا عن بَيْتِ سَلْمَى ... ولَمْ أُلْمِمْ بِهِ وبِهِ الغَلِيلُ
أَمُرُّ مُجَنَّبًا وهَوَايَ فيه ... وطَرْفِى عنه مُنْكَسِرٌ كَلِيلُ
وقَلْبِى فيه مُقْتَنَصٌ فهَلْ لِى ... إلى قلبى وقاتِلِهِ سَبِيلُ

(٣) وقال : أتحفظ الأبيات التى فيها :

تَكْفِيهِ فِلْذَةُ كِبْدٍ إنْ أَلَمَّ بِها ... مِن الشِّواء ويَكْفِى شُرْبَهُ الغُمَرُ

فأنشدته أبياتاً . وقال لأبى بكر : ما أحفظ إلا هذا البيت شاهداً ،
وهو لأعشى باهلة يرثى المنتشر[٥] :

---

(١) وأيضاً التى لا يدر لها ثدى .

(٢) لم نجد فيما راجعناه من كتب اللغة أن الصهيا المقصورة هى الياسمين كما ذكر المؤلف هنا . والذى فى اللسان أن الصهيا شجر من [illegible] كثير الشوك ، وعلته حمراء شديدة الحمرة ، وورقه كورق السمر .

(٣) فى كلتا النسختين « صهيا » ؛ وهو تحريف إذ [illegible] جمع الصهيا المقصور فيما راجعناه من كتب اللغة ؛ والصواب ما أثبتنا كما تقتضيه قواعد الصرف [illegible] أحد ما رأيت المقصور ، وكان على هذا الوزن يجمع على فعالى بفتح اللام وفعالى بكسرها ، كخلى ودفلى .

(٤) فى الأصل « إلى المطرى » . وقوله « إلى » زيادة من الناسخ إذ المطرّى هو المقلوب إلى مطيّر ، فالمطير منسوب إليه . والمطرى هو الذى يشتبه بالعطر [illegible] . والمندلى : العود من الطيب تتجر به فهى المندلى المطير العود الرطب .

(٥) المنتشر ، هو ابن وهب بن سلمة الباهلى . قال الآمدى . وهو أخو الأعشى لأمه . ورويت هذه القصيدة للدعجاء أخت المنتشر ، وقد ذكرها صاحب خزانة الأدب ، وعدة أبياتها أربعة وثلاثون بيتاً فيها ؛ وفى شعر أعشى باهلة المطبوع فى أوربا ستة وأربعون بيتاً . وقصة المنتشر هذا أنه كان قد [illegible] —

إنِّى أَتَتْنى لِسان لا أُسَرُّ بهـا ... مِنْ علْوَ لا عَجَبٌ منها ولا سُخُرُ(١)

فَبِتُّ مرتفِعاً للنَّجْـمِ أَرْقُبُـه ... حَيرانَ ذا حَـذَر لو يَنْفَع الحَذَرُ

وجاشَت النفسُ لمّـا جاء جَمْعُهُمُ ... وراكبٌ جاءَ من (تَثْلِيثَ) مُعْتمِرُ(٢)

يأتى على النّاسِ لا يُلوِى على أَحَدٍ ... حتى الْتَقينا وكانت دُونَنا (مُضَرُ)

نَعَيْتَ(٣) من لا تُغِبُّ الحىَّ جَفْنَتُه ... إذا الـكواكبُ أَخْطَا نَوْأَها المَطر

مَن لَيْسَ فى خَـيْرِه شرٌّ يُكدِّرُه ... على الصَّدِيق ولا فى صَفْوِه كَدَر

طاوى المصير على العَزّاءِ مُنْصَلِت ... بالقَوْم لَيْـلَةَ لا ماءٌ ولا شَـجَرُ(٤)

لا تُنْـكِرُ البازِلُ الـكَوْماءُ ضَرْبَتَه ... بالمَشْرَفِيِّ إذا ما اجْلَوَّذَ السَّـفَرُ(٥)

اليمامة — وكان بنو نفيل بن عمرو بن كلاب أعداءه ، وقد رأوا مخرجه وعورته وما يطلبه به بنو الحارث بن كعب وطريقه عليهم . فسار المنتشر ، حتى إذا كان بهضب النباع أنذر بنو نفيل بنى الحارث بن كعب بالمنتشر ، وكان المنتشر قد أسر رجلا من بنى الحارث بن كعب يقال له هند بن أسماء بن زنباع ، فسأله المنتشر أن يفدى نفسه ، فأبطأ عليه هند فقطع أنملته ثم سأله فأبطأ فقطع منه أخرى ، وقد أمّنه القوم ووضع سلاحه ، فقال هند بن أسماء : أتؤمنون مقطّعا (بتشديد الطاء مكسورة) ؟ وإلهى لا أؤمّنه ثم قتله وقتل علمته . انتهى ملخصا من خزانة الأدب .

(١) اللسان : الرسالة ، وجمعه ألسن . أما اللسان بمعنى الجارحة فجمعه ألسنة . وعلو روى بتثليث الواو ، يريد أعلى نجد كما فى خزانة الأدب . وفى شعر أعشى باهلة المطبوع فى أوربا : « لا كذب » مكان قوله : « لا عجب » .

(٢) فى رواية : « فلهم » مكان قوله : « جمعهم » . ومعتمر ، أى زائر . يقال : اعتمر إذا قصد مكانا بعينه زائراً له . وتثليث : موضع بالحجاز قرب مكة ، كما فى ياقوت .

(٣) فى كلتا النسختين : « نعين من لا نعين » ؛ وهو تصحيف . والتصويب عن شعر أعشى باهلة المطبوع فى أوربا وخزانة الأدب . ولا تغبّ الحىّ جفنته ، أى أنه دائم الإطعام لقومه لا تغب عنهم جفنته ، وهى القصعة فى زمن الجدب وقلة الأمطار . والنوء : سقوط نجم فى المغرب عند الفجر وطلوع نجم آخر يقابله فى المشرق ، وكانت العرب تنسب الأمطار والرياح والحر والبرد إلى الأنواء فيقولون : مطرنا بنوء كذا .

(٤) العزاء : الشدة والجهد . ومنصلت بالقوم ، أى منجرد مشمر .

(٥) فى كلتا النسختين : « المطر » ؛ وهو تبديل من الناسخ لا معنى له فى هذا البيت . والتصويب عن ديوان أعشى باهلة المطبوع فى أوربا وخزانة الأدب . والبازل من النوق : التى =

وتفزَع[(١)] الشَّوْلُ منه حين تُبصرُه حتى تُقطَّعَ فى أَعْناقِها الجِرَرُ

لا يَصْعُبُ الأَمْرُ إلا رَيْثَ يَرْكَبُهُ وكلَّ أمْرٍ سوى الفَحْشاء يأتَمِرُ

يكفيه حُزَّةُ فِلْذانٍ أَلَمَّ بها مِنَ الشِّواء ويكفى شُربَهُ الغُمَرُ[(٢)]

لا يَتَأَرَّى[(٣)] لِما فى القِدْرِ يَرقُبُهُ ولا يَعَضُّ[(٤)] عَلَى شُرْسُوفِه الصَّفَرُ

لا يَغمِزُ الساقَ مِنْ أَيْنٍ وَمِنْ وَصَبٍ[(٥)] ولاَ يَزَالُ[(٤)] أمامَ القَومِ يَقْتَفِرُ

مُهَفْهَفٌ أَهضَمُ الكَشْحَيْنِ مُنْخَرِقٌ عنه القميصُ بِسَيرِ الليلِ مُحتَقِرُ

عِشْنَا بذلك دَهْرًا ثم فارَقَنا كذلك الرُّمْحُ ذو النَّصْلَيْنِ يَنكَسِرُ

لا تأمن الناسُ مُمْساه ومُصْبَحَه من كلِّ أَوْبٍ[(٦)] وإن لم تأتِ يُنْتَظَرُ

إمَّا يُصِبْكَ عَدُوٌّ فى مُناوَأةٍ يوماً فقد كنتَ تَسْتَعْلى وتَنْتَصِرُ

= دخلت فى السنة التاسعة . والكوماء . الناقة العظيمة . واجلوذ السفر ، أى طال وامتدّ . وفى رواية : « إذا ما اخروّط » ؛ وهو بمعناه .

(١) يقول إن النياق تفزع منه مخافة أن يعقرها وتحبس جررها فى أعناقها حتى تتقطع . والجرر جمع جرّة (بالكسر) ، وهى ما يجترّه البعير معروف . وفى رواية : « قد تكظم البزل منه من مخافته * حتى تقطع ... الخ » .

(٢) الحزة : القطعة من اللحم تقطع طولا . والفلذان : جمع فلذة ، وهى القطعة من الكبد واللحم . والغمر : أصغر الأقداح . يقول : إنه يكتفى بالقليل من طعامه وشرابه إيثاراً لغيره على نفسه ، وكانت العرب كثيرا ما تتمدح بذلك .

(٣) لا يتأرّى ، أى لا يتحبّس ولا يتمكّث .

(٤) ورد فى كلا الأصلين هذان الشطران اللذان تحت هذا الرقم كل منهما مكان الآخر ؛ وهو خطأ من الناسخ صوابه ما أثبتنا نقلا عن المصادر التى بين أيدينا . والشرسوف : طرف الضلع . والصفر زعموا أنها دويبة مثل الحية تكون فى البطن تعترى من به شدة جوع . وفى كلتا النسختين : « ولا يراه » مكان قوله : « ولا يزال » ؛ وهو تحريف . ويقتفر ، أى يقتفى ويتبع .

(٥) فى رواية : « ألم به » مكان قوله : « ومن وصب » . يصفه بالصبر على السير .

(٦) فى رواية : « من كل فج وإن لم يغز » الخ .

لو لم تَخنْهُ نُفَيْلٌ(١) وهى خائنةٌ ألَمَّ بالقوم وِرْدٌ منه أو صَدَر
وَرّادُ حَرْبٍ شِهابٌ يُستضاء به كما يُضىءُ سَوادَ الطُّخْية القَمَرُ(٢)
إمّا سَلَكتَ سبيلاً كنتَ سالِكَها فاذْهَبْ فلا يُبْعِدَنْكَ اللهُ مُنْتَشِر
مَنْ لَيْسَ فيه إذا قاوَلْتَه رَهَقٌ وليس فيه إذا ياسَرْتَه عُسُرُ(٣)

الليلة الواحدة والثلاثون

١) وجَرَى ليلةً حديثُ الرأى فى الحَرْب والحَزْم والتَّيَقّظ وفائِدِ الاستهانةِ بالخَصْم، فقال ابن عُبَيْد الكاتب: أنا أستحسنُ كلاماً جَرَى أيّام الأمين والمأمون، وذاك أن علىَّ بن عيسى بنَ ماهان لمّا وُجِّه إلى حَرْب طاهر [بن الحسين] من بغدادَ، سأل قوماً وَرَدُوا من الرَّىّ عن طاهر، فقالوا: إنه مُجِدٌّ(٤). فقال: وما طاهرٌ؟ إنما هو شَوْكةٌ من أغصانى، وشَرارةٌ مِنْ نارى: ثم قال لأصحابه: واللهِ ما بَيْنَكم وبين أن ينقصِفَ انقصافَ الشَّجَر مِن الرِّيح العاصفة إلاّ أن يَبْلُغَه عُبُورُنا عقَبَةَ هَمَذان، لأنّ السِّخالَ لا تَقْوَى على النِّطاح، والثعالبَ لا صبرَ لها على لِقاء الأُسُود، وإن يُقِمْ طاهرٌ بمَوْضِعه يَكن أوّلَ معرَّضٍ لظُبَاتِ السُّيوف وأسِنَّة الرِّماح. فقال يحيى بنُ علىّ [لعلىّ] بن عيسى: أيُّها الأمير، إنَّ العساكر لا تُسَاس بالتَّوانى، والحُروبَ لا تُدَبَّر بالاغترار، وإنّ الشَّرارةَ الخفيَّةَ رُبّما

(١) فى كلتا النسختين: «لو لم تجبه»؛ وهو تحريف. وفى رواية: «لاستمر به * ورد يلم بهذا الناس أو صدر». ويريد نفيل بن عمرو بن كلاب.
(٢) الطخية (بضم الطاء): الظلمة الشديدة.
(٣) فى (أ): «عاسرته». وفى (ب): «عاشرته»؛ وهو تحريف فى كلتا النسختين. وما أثبتناه هى الرواية الصحيحة فى المصادر التى رجعنا إليها. والرهق بالتحريك الكذب. وقد ورد هذا البيت فى تلك المصادر فى غير هذا الموضع من القصيدة.
(٤) فى (أ) مجل؛ وهو تحريف.

صارَتْ ضِرَامًا ، والنَّهْلَةَ[١] من السَّيْل ربّما صارَتْ بَحْرًا عظيما .

فقال[٢] : إنّما حَجَبَ عليَّ بنَ عيسى عن وَثيقِ[٣] الرَّأْيِ هذا الاُستحقارُ بالكلام ، والاُقتدارُ على اللفظ ، ومَن صَدَق فِكْرُه فى طلَبِ الرأى النافِع ، قَلَّ كلامُه بالهَذَر [الصائع] .

(٢) وقال فى هذه الليلة : ما رأيتُ من يَفِي بإحْصاء وجوهِ فعِيل ومَواقِعِها[٤] .

وكان من الجواب : أنّ الأخفش قد ذكَرَ عَشْرَةَ أوْجُه ، وهى أكثرُ ما قَدَر عليه ، والمصفحُ قد دَلَّ على أربعين وَجْهاً وزيادة . فقال : فما أغْرَبُ[٥] ما مَرّ بك منها ؟ فقيل : فعيلٌ بمعنى فعَل . فقال : هذا واللهِ غريب ، فهاتِ له شاهداً . فقيل : يقال مَكانٌ[٦] دمِيثٌ ودَمَثٌ ، ويَقِينٌ ويَقَنٌ ، ورَصِيفٌ[٧] ورَصَف[٧] ؛ وللفرَس العَتِيد للعدْو : العتَد ؛ والنَّقِيلِ[٨] من العَدْو : نَقَل ؛ والخَبِيطِ[٩] من الورَق : خبَط ؛ والقَدِيم[٧] : قدَم[٧] ؛ والبئر النزيح : نَزَح ، وللجسم العميم : عمَم .

---

(١) فى (ا) وثبه

(٢) فقال ، أى الوزير .

(٣) فى « ب » « وثيق » ؛ ولعله يستقيم عليه أيضا

(٤) فى (ا) « ومواقعها » ؛ وهو تحريف .

(٥) فى (ا) « أغرب ما مرّ بك منها » ؛ وهو تحريف فى كلتا الكلمتين .

(٦) فى الأصل . « مكان » ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما فى « ب » .

(٧) كذا ورد فى كلتا النسختين هذه الكلمات الأربع التى تحت هذا الرقم ؛ ولم نجد فى كتب اللغة التى بين أيدينا ما يفيد أنه يقال فى فعيل رصيف وقديم رصف أو قدم بالتحريك منهما ؛ ولعل فى هذه الكلمات تحريفا لم نهتد إلى صوابه بعد البحث الطويل .

(٨) النقيل : مداومة العدو وسرعة نقل القوائم .

(٩) الخبيط : الذى يضرب من ورق الشجر حتى يتحاتّ بدون أن يضر ذلك بأصل الشجرة وفروعها .

وقال ابنُ الأعرابى : القَفِيل : الشَّـوْكُ[1] اليابس ، والجمعُ قَفْل[2] . وقال أحمد بنُ يحيى : هو منى بَعَدٌ أى بعيد ، والبَعَد يكون للجمْع[3] والواحد[4] .

فعَجب وقال : ينبغى أن يُعْنَى بهذه الوُجوه كلِّها . فإنّ[5] الزيادة على مِثلِ الأخفش ظَفَرٌ حَسَن ، وأمتيازٌ فى الغَزَارة جميـل[6] ، وما تَفاضَلَت[7] دَرَجاتُ العُلماء إلّا بتصَفُّح الأخيرِ قَوْلَ الأوّل وأستيلائه على ما فاته .

(٣) وسأل — أبادَ اللهُ عِداه ، وحَقّق مُناه — وقال : هل يسلَّمُ على أهل الذِّمّة ؟ وهل يُبْدَأُون ؟ فكان أبو البُخْترىّ الداودىُّ حاضراً — فحَـكى أنّ عُمَر بن عبدِ العزيز سُئِل عن هذا بعَيْنِه ، فقال : يُرَدُّ عليهم السلام ، ولا بأسَ بأنْ يُبْدَءوا ، لقول الله عزّ وجلّ : (فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ) .

وحـكى فى مَعْرِضِ حديث أبى[8] بكر قال : كتب مجنونٌ إلى مجنون : « بسم اللهِ الرّحمٰن الرّحيم ، حَفِظك الله ، وأبقاكَ الله ، كتبتُ إليكَ ودِجْلةُ تطغى ، وسَمْنُ المَوْصِلِ ها هِيَ ، وما يزْدادُ الصِّبْيان إلا شرًّا ، ولا الحجارةُ إلا كثيرة ، فإيّاكَ والمَرَق فإنّه شرُّ طَعامٍ فى الدّنيا ، ولا تَبِتْ إلّا وعند رأسِك حَجَرٌ

(١) فى كتب اللغة « الشجر » مكان « الشوك »

(٢) يلاحظ أن قفلا ليس جمعا لقفيل ، بل هو جمع قفلة بفتح القاف

(٣) نظيره فى الجمع خدم جمع خادم .

(٤) شاهده قول النابغة فى مدح النعمان :

فتلك تبلغنى النعمانَ إن له فضلا على الناس فى الأدنى وفى البعد

بالتحريك ، وفى رواية : « والبعد » بضمتين .

(٥) فى (ا) « قال » ؛ وهو تحريف .

(٦) فى (ا) : « فامتاز فى الغزارة جميل » ؛ وهو تحريف فى هذه الكلمات الثلاث صوابه ما أثبتنا .

(٧) فى (ا) « تعاظمت » .

(٨) يلاحظ أن هنا كلاما ساقطا من كاتبا النسختين كما يظهر لنا إذ لم يتقدم ذكر لأبى بكر هذا ولا حديث عنه .

أو حَجَرَان ، فإنّ الأخْبَر[1] يقول : (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اُسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ) .
[وكتبتُ إليك لثلاثَ عشرة وأربعين ليلة حلت من عاشوراء سَنَةَ الكَمْأَ [ة]»

قال : وكتبَ مجنونٌ آخر : «أبقاكَ اللهُ من النّار وسُوء الحِساب ، وتَفْدِيكَ نفْسِى مُوَفَّقاً إنْ شاءَ الله » .

قال : وكتبَ [مجنون] آخرُ إلى مجنونٍ مثلِهِ : وَهَبَ اللهُ لى جميعَ المكارِه فيك ، كتابى إليك من الكُوفةِ حقًّا حقًّا حقًّا ، أفلامى تخطُّ ، والموتُ عندنا كثير ، إلا أنّه سَليم والحمد لله ، أحْمَدْتُ[2] لمَعْرِفه إعلامَكم ذلك إن شاء الله .

فضحك — أضحكَ اللهُ سِنَّه — حتّى استلقى ، وقال : ما الذى يَبْلغ بنا هذا الاستطرافَ إذا سَمِعْنا بحديث المجانين ؟

فقال أبو زُرْعة : لأنّ المجنونَ مُشاركٌ للعاقل فى الجنس ، فإذا كان من العاقِل ما يُحْسَبُ أن يكون من المجنون كُرِهَ ذلك له ، وإذا كان من المجنون ما يُعْهَدُ من العاقل تُعُجِّب منه ، والعقلُ بين أصحابه ذو عرْضٍ واسع ، وبمقدْرِ ذلك يتفاضلون التّفاضُلَ الذى لا سبيل إلى حَصْرِه ، وكذلك الجنونُ بين أهْله ذو عَرْضٍ واسع ، وبحسَب ذلك يتفاوتون التّفاوُتَ الذى لا مَطمعَ فى تحْصيله ، وكما أنّه[3] يَنْدُرُ[4] من العاقل بعضُ ما لا يُتَوَقَّعُ إلا من المجنون كذلك يَنْدُرُ[4] من المجنون بعضُ ما لا يُتَوَقَّعُ إلا من العاقل . ولا يُعْتَدُّ بذلك ولا بهذا ، أعنى أنّ العاقل بذلك المقدارِ لا يُرَى مجنونا ، والمجنون بذلك المقدار

---

(١) فى ب « لأنّ الله » .
(٢) فى (أ) « احتمد » وهو تحريف .
(٣) فى (ا) : « وكما أنه إذا » . وقوله : « إذا » زيادة من الناسخ لا معنى لها فى هذا الموضع .
(٤) فى (ا) : « يبدر » بالباء فى كلا الموضعين ؛ وهو تحريف .

لا يسمَّى عاقلا ، وإنما اُجتَمعَا فى النادر القليل ، لاُجتماعهما فى الجنس الذى يَعُمُّهما ، والنوعِ الذى يَفْصلهما ، وفى الجملة الإنسان بما هو به حيوانٌ سَبُعٌ وحمار ، وبما هو [به] نَفْسىٌّ إنسان ، وبما هو به عاقلٌ نبىٌّ ومَلَكٌ ؛ وهذه الأعراض — وإنْ تَدَاخَلَتْ لاُنتظامها فى طينة واحدة — فإنّها تتميّز بقوّة العَقْل فى الصُّورة المخلوطة إما مفارَقة ، وإما مُواصَلة . ومرّ[1] له فى هذا الموضع كلامٌ بليغٌ تامٌّ مكْشوف .

كمل الجزء الثانى من كتاب الإمتاع والمؤانسه لأبى حيان التوحيدى
حسب تجزئتنا والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، ويليه الجزء
الثالث من هذا الكتاب وأوله : « ثم ترامى
الحديث إلى أمر المطعمين والطاعمين »
الخ . نسأل الله المعونة
وحسن التوفيق

(١) فى الأصل : « ومنّ » بالنون ؛ وهو تحريف .

فهرست الأعلام

الواردة فى الجزء الثانى من كتاب الإمتاع والمؤانسة

لأبى حيان التوحيدى

(ا)

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(س)

(ش)

(ص)

(ط)

(ظ)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ى)

« تم فهرست الأعلام »

فهرست أسماء الأماكن

الواردة فى الجزء الثانى من كتاب الإمتاع والمؤانسة

لأبى حيان التوحيدى

فهرست أسماء القبائل والأمم والفرق

الواردة فى الجزء الثانى من كتاب الإمتاع والمؤانسة

لأبى حيان التوحيدى

(ح)

(خ)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ط)

(ظ)

(ع)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(ى)

فهرست أسماء الكتب

الواردة فى الجزء الثانى من كتاب الإمتاع والمؤانسة

لأبى حيان التوحيدى

فهرست قوافى الأبيـات

الواردة فى الجزء الثانى من كتاب الإمتاع والمؤانسة

لأبى حيان التوحيدى

فهرست أنصاف الأبيات

الواردة فى الجزء الثانى من كتاب الإمتاع والمؤانسة

لأبى حيان التوحيدى

استدراك

اطلع الأستاذ محمد كردعلى على الجزء الثانى من الامتاع والمؤانسة بعد طبعه فأرسل إلينا بالملاحظات الآتية .

صفحة	خطأ	صواب
٥	العَوْفى	العوقى (كذا يرى حضرته)
١٤	الصائبون	الصابئون
١٤	ابن الحَمّار	ابن خَمّار (وكذلك يصحح ماجاء فى ص ٣٨ و ٨٣
٢٠	الحصرى	الصَّيْمَرى
٢٤	باستقامنا	باستقامتنا
٣٠	حتى ترعو	حتى ترغو
٣١	شَباط	شُباط
٣٢	الأمراض والأغراض	الأمراض والأعراض
٤٠	بالوَفْق والحرق	بالرِّفق والخُرق
٤٨	وهما سوس	هما سوس
٤٨	الدولة مقبلة	والدولة مقبلة
٥٥	مَزْيَد	مُزبِّد (كمحدِّث)
٩٣	صِنْبر باب	صِير باب
٩٩	الكافر خب ضب والمؤمن دعب لعب	فى الأساس : ويقال المؤمن دَعِب لَعِب والمنافق عَبِس قَطِب

صفحة	خطأ	صواب
١٠٥	أجبن من صقر	أجبن من صِفْرِد (وكذلك ما ورد فى الصفحة التالية ، وفى القاموس هوابو المليح وهو طائر جبان)
١١٧	أطفأ ثائرتها	أطفأ نائرتها
١٢٤	أن يكن معكم	إن لم يكن معكم
١٣٥	بالنّيِّر المخطط	بالمنيَّر المخطط
١٤٨	الموت الفادح	فى أمثال الميدانىّ : ظمأ قامح خير من رِىّ فاضح
١٤٦	غيرَما	غيرُما
١٥٥	أبو الحسن الفرَضى	العُرضى ؟
١٧١	بين السور يين	بين السورين (فى الحاشية وقد وردت صحيحة فى صلب الكتاب)
١٧٩	فَراستى من فَراسة	فِراستى من فِراسة

إلى هنا انتهت ملاحظات الأستاذ كرد على بك

استدراكات أخرى عثرنا نحن عليها فى هذا الجزء

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٦	٢	منهم	مُتهَم
٢٨	١٢	روّاد	روّادا
١٣٢	١٤	أبو عابد	أبو عائذ
١٥٠	٩	يعدل	يُغْدى